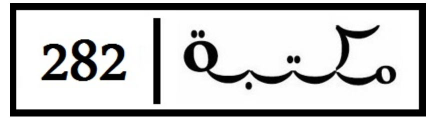

مكتبة ٢٨٢
ابقي معي
أيوبامي أديبايو
دار المنى

أيوبامى أديبايو

ابقي معي



االنصّ العربيّ : سكينه إبراهيم

دار المنى

أديبايو التي تبلغ من العمر 29 سنة روائية مميزة. فهي لا تكتب بأناقة استثنائية فقط، بل أيضًا بحكمة أصيلة عن الحب والخسارة وإمكانية الخلاص. وقد قدمت لنا رواية مفجعة وذات سحر قوي.

NEW YORK TIMES

رواية أيوبامي أديبايو الأولى «ابقي معي» هي انتصار – كلٌ مركب من أجزاء، استكشاف عميق للحب والزواج والعائلة في ظلّ الجيشان الثقافي والسياسي في نيجيريا من 1985 إلى 2008. تتضمن رواية أيوبامي طاقة هائلة. ومرة تلو مرة سيجد القارئ صعوبة في إغلاق هذا الكتاب والالتفات إلى أمور أخرى.

CHICAGO TRIBUNE

تناولها الطريف للحياة العائلية والمجتمع النيجيري هو إضافة مرحّب بها للمشهد الأدبي في بلادها المزدهرة. على الرغم من موضوع الرواية المغرق في الحزن، قدمت لنا الكاتبة عرضًا مشرقًا عن الروح الأنثوية، إضافة إلى فداحة الأذى الذي يسببه الكبرياء الذكوري غير المحدود.

THE GUARDIAN



أيوبامي أديبايو

(29 كانون الثاني 1988) كاتبة نيجيريَّة.

ولدت أيوبامي في لاغوس - نيجيريا. وتحمل درجة ماجستير في الأدب الإنجليزي.

درست سنة 2014 أصول الكتابة الخلَّاقة في جامعةِ «شرق أنجليا»، حيثُ فازت بمنحة دوليَّة.

صنفتها «الفاينانشال تايمز» واحدة من النُّجوم اللامعين في الأدب النَّيجيري.

روايتها الأولى، «ابقي معي»، نُشرت سنة 2017، وأدرِجت ضمن قائمة «بيليز» القصيرة لجائزة الأدب النِّسائيِّ.

ISBN: 978 91 87333 92 7

Published by agreement with Canongate Books Ltd

14 High Street, Edinburgh EH1 TE

Original Title: Stay with me

Original cover: Eric Thunfors

Typesetting: Joachim Trapp

Printed at Scandbook AB, Falun 2018

Bokförlaget Dar Al Muna AB

Box 127, 18205 Djursholm, Sweden

www.daralmuna.com

إلى أُمِّي الدُّكتورة «أولوسولا فاموريوا» الَّتي تستمرُّ
في جعلِ بيتنا أرضَ عجائب، حيثُ تذخرُ كلُّ
غرفةٍ فيهِ بالكتبِ، والحبِّ، والعرفانِ بالجَميل.

وتخليدًا لذكرى أبي السَّيِّدِ «أديبايو فاموريوا» الَّذي
خلَّف وراءَهَ مكتبةً وتراثًا... ما زلْتُ أفتقدكَ.

الفصلُ الأَوَّل

I

مدينةُ جوس كانون الأوَّل 2008

يَجِبُ أَنْ أغادرَ هذهِ المدينةَ اليومَ، وأذهبُ إليك. حقائبي حُزِمت، والغرفُ الفارغةُ تذكِّرُني بأنَّه توجّب عليَّ الرحيل قبلَ أسبوع. سائقي موسى، ينامُ في مقرِّ حارسِ الأمنِ كلَّ ليلةٍ منذُ يومِ الجمعةِ الماضي؛ ينتظرُني لإيقاظهِ فجرًا، حتَّى ننطلقَ في الوقتِ المحدَّدِ، لكنَّ حقائبي ما زالتْ في غرفة الجلوس تجمع الغبار.

تخلَّيتُ عن أغلب ممتلكاتي هنا: الأثاثُ، الأجهزةُ الإلكترونيَّة، بل حتَّى الأدواتِ المنزليَّة لمصففات الشَّعرِ اللواتي عملْنَ في صالوني. لذا، كلَّ ليلةٍ لمدة أسبوعٍ الآن، ارتميتُ على هذا السَّرير بلا تلفزيونٍ يخفِّف من ساعاتِ أرقي.

هناك بيتٌ بانتظاري في «أيفي»، خارج الجامعةِ مباشرةً حيثُ التقينا أوَّل مرةٍ أنا وأنت. إنِّي أتخيَّله السَّاعة، بيتٌ لا يختلفُ عن هذا البيت، غرفهُ العديدةُ مصمَّمةٌ لتستوعبَ عائلةً كبيرةً: رجلٌ وزوجةٌ وعدَّةُ أطفال. كان يُفترض بي المغادرة بعد أن نزعتُ مجفّفات الشَّعر. اقتضت الخطةُ أنْ أقضيَ أسبوعًا في تجهيزِ صالوني الجديد؛ وتأثيث البيت. أردتُ أن تأخذ حياتي الجديدة موقعها قبلَ أنْ أراكَ ثانيةً.

ليس السَّبب أنِّي غدوتُ متشبّثةً بهذا المكان، فأنا لن أفتقدَ الأصدقاءَ القلائلَ الَّذين اتخذتُهم، النَّاسُ الَّذين لا يعرفون المرأةَ الَّتي

كُنْتُها قبل قدومي إلى هنا ، الرِّجال الَّذين ظَنُّوا على مرِّ السِّنين أنَّهم واقعون في غرامي . بمجرَّد أن أرحل ، مؤكدٌ أنَّني لن أتذكَّرَ الرَّجل الَّذي طلبَ منِّي أنْ أصبحَ زوجتَه . لا أحد هنا يعلم أنِّي ما زلْتُ زوجتك . لا أخبرُهمْ إلَّا طَرَفًا منَ القصة : «كنتُ عاقرًا ، واتَّخذَ زوجي زوجةً أُخرى .» ، ولا أحدٌ تقصَّى الحقيقةَ أبعدَ من ذلك ، لذا ، لم أحدثهم قطُّ عنْ أطفالي .

أردتُ الرَّحيلَ منذُ أنْ قُتِلَ الفتيانُ الثَّلاثُ المنتمونَ إلى برنامجِ خدمة الشَّباب الوطنيِّ . قرَّرتُ إغلاقَ صالوني ومتجرِ المجوهراتِ حتَّى قبلَ أنْ أعرفَ ما قد أفعلهُ لاحقًا ، قبل أنْ تصلَني دعوةُ حضورِ جنازةِ والدِكَ مثلَ خريطةٍ تُريني الطَّريق . حفظتُ عن ظهرِ قلب أسماءَ الشُّبان الثَّلاث ، وماذا درسَ كلُّ واحدٍ منهم في الجامعة . لربَّما كانت «أولاميدتي» ستصبح بعمرهم تقريبًا ، ولا ريبَ في أنَّها هي أيضًا كانت ستتخرج في الجامعةِ الآن . عندما أقرأُ عنهم ، أفكِّر فيها .

أكين . . .غالبًا ما أَتساءلُ : أأنتَ أيضًا تفكِّرُ فيها؟

على الرَّغم من أنَّ النَّوم يجفوني ، حالما أغمض عيني في الليل ، تعود لي مقاطعُ من الحياة الَّتي هجرتُها . أرى أكياسَ المخدَّاتِ بتصاميمها المطبوعةِ في غرفةِ نومِنا ، أرى جيراننا ، أرى عائلتك الَّتي - لفترة مُضلِّلة - اعتبرتها عائلتي أيضًا ، وأراكَ . الليلةَ أرى مصباحَ السَّرير الجانبيَّ الَّذي جلبتَهُ لي بعد بضعة أسابيعَ من زواجنا . أخشى النَّوم في الظَّلام ، وأنتَ تعاني من الكوابيسِ إذا بقيَتْ مصابيحُ النيون مضاءَة . ذلك المصباحُ الجانبيُّ كان طريقتَكَ في حلِّ المشكلةِ . اشتريتَه من غير أنْ تخبرَني أنَّك ستتوصّل إلى تسويةٍ ما ، ومن غيرِ أنْ تسألَني إنْ كنْتُ أريدُ مصباحًا . وبينما رحتُ أمسِّدُ قاعدتَه البرونزيَّة ، وأبدي إِعجابي بالألواحِ الزُّجاجيَّة الملوَّنة الَّتي تظلّله ، سألْتَني ما يمكن أنْ آخذَ

معي خارج المبنى في حالِ احترقَ بيتُنا . لم أفكّر قبل أن أجيب ، قلتُ طفلنا ، على الرّغم من أنّنا لم نكن قد أنجبنا أطفالًا بعد . أعني شيئًا ما قلتَ ، وليس شخصًا . ولاحَ عليكَ بعضُ الانزعاجِ لأنّي عندما فكّرت في إنقاذِ شخص ، لم آخذ إنقاذَك بعين الاعتبار .

أُجرجرُ نفسي خارج السّرير ، وأغيّرُ قميصَ نومي . لن أهدرَ دقيقةً واحدةً أُخرى . الأسئلةُ الّتي عليكَ أنْ تجيبَ عنها ، تلكَ الّتي غصصتُ بها لأكثرَ من عقد ، تُسَرّعُ خطواتي بينما أنتزعُ حقيبة يدي ، وأدخلُ غرفةَ الجلوس .

لديَّ هنا سبعُ عشرةَ حقيبة ، جاهزة لتُحمَلَ إلى سيارتي . أحملقُ في الحقائبِ ، مستعيدةً في ذهني محتوياتِ كلِّ واحدةٍ منها . لو شبَّت النّار في هذا البيت ، أيُّ حقيبةٍ آخذ؟ عليَّ أن أمعنَ التّفكير في هذا ؛ لأنَّ أوّلَ ما يخطر لي هو لا شيء . حسنًا ، أختارُ حقيبةَ قضاءِ الليلة الّتي خطّطتُ أنْ أجلبَها معي لحضور الجَنازة ، وكيسًا جلديًا فيه مجوهرات الذّهبِ ، ويمكنُ أن يُحضرَ لي موسى بقية الحقائب في وقتٍ آخر .

هذا هو إذًا – خمس عشرة سنة هنا ، ومع أنَّ بيتي لا يحترق ، كلُّ ما أنا بصدد أخذه معي كيسُ ذهبٍ وغيارُ ملابسَ . الأشياءُ المهمة كامنةٌ في داخلي ، مُغلقٌ عليها في صدري كما قد يغلقُ القبر ، مكانٌ أبديٌّ ، صندوقُ كنوزي الشّبيه بالتّابوت .

أَخْطو إلى الخارج . الهواءُ صقيعيٌّ ، والسّماءُ السّوداءُ تتحولُ إلى أرجوانيّةٍ في الأفقِ بينما تبزغ الشّمس . موسى متكئٌ على السّيارة ، ينظّف أسنانَه بسواكٍ . يبصقُ في كوب وأنا أقتربُ ، ويضع السّواكَ في جيبِ سترتِه الدّاخليِّ . يفتح بابَ السّيارة ، نتبادل التّحية ، وأصعدُ إلى المقعدِ الخلفيِّ .

يُشغِّلُ موسى مذياع السّيارة ، مبدّلًا بين المحطّات ، ثم يستقرُّ على

محطةٍ تبدأُ إرسالَها اليوميّ بالنَّشيد الوطنيّ المُسجّل . يلوِّح حارسَ البوابةِ بيدهِ مودِّعًا ، ونحنُ نخرجُ من المُجمَّع . يمتدُ الطَّريقُ أمامَنا ، متلحِّفًا بظلمةٍ تتحول إلى فجرٍ يقودُنِي إليكَ .

2

إليسا 1985 وما بعد

حتَّى في تلكَ اللحظة، استطعْتُ أنْ أستشفّ أنّهم جاؤوا وهم مستعدُّونَ للحرب. رأيتهم من خلال ألواحِ زجاجِ الباب. سمعتُ ثرثرَتهم. لم يبدُ أنّهم لاحظُوا وقوفي عند جانب الباب الآخر لدقيقةٍ كاملةٍ تقريبًا. أردتُ أنْ أبقيهمْ في الخارج، وأنْ أعودَ إلى الطّابقِ العلويِّ لأنامَ. لعلّهم عندئذٍ يذوبونَ، ويتحوّلونَ إلى بركِ طينيَّةٍ بُنيَّةٍ إذا طال وقوفهم تحتَ الشّمس. كان ردفا «إيا مارتا» ضخمين جدًّا، بحيثُ إذا ذابا يمكن أن يحتلّا مساحةَ الدّرجِ الأسمنتيِّ المُفضي إلى مدخل بيتنا كلّها.

إيا مارتا هي إِحدى أمهاتِي الأربعة؛ وأكبرُ زوجاتِ أبي سنًّا. والرّجل الّذي يرافقها يُدعى بابا لولا، وهو عمُّ زوجي أكين. وإذ وقفا في الخارج، حنَيَا ظهريهما تحتَ وطأةِ الشّمس، وعبوسُهما المتجهمُ جعلَ وجهيهما بغيضين. حالما فتحتُ البابَ، سكتا، وألانتِ الابتساماتُ قسماتِهما. كان في وسعي أنْ أخمِّنَ الكلماتِ الأولى الّتي ستخرجُ من فمِ المرأة. عرفتُ أنّها ستكونُ استعراضًا مبالغًا فيه لرابطةٍ ما سبق أن وُجدتْ بيننا قطُّ.

«يجيدِه، بنتي الغَاليةا» أسفرَت إيا مارتا عن ابتسامةٍ واسعةٍ، وهي تمسكُ خدَّيَّ بيدين سمينتين ورطبتين.

ابتسمتُ ابتسامةً عريضة بدوري ، وركعتُ لأحييهما . «أهلاً ، أهلاً . لا ريبَ في أنَّ الرَّبَّ استيقظَ اليوم ، وهو يفكِّر بي ، أوه – لهذا أنتما هنا .» قلتُ ، منحنيةً نصفَ انحناءَة ثانيةً بعد أنْ دخلَا ، وجلسَا في غرفة الجلوس .

ضَحكَا .

‹أين زوجُكِ؟ أهوَ في البيت؟» سألني بابا لولا وهو يتحرَّى أرجاء الغرفة ، كما لو أنِّي قد أخفيت أكين تحت كرسيٍّ .

‹نعم يا سيدي ، هو في الطَّابق العلويِّ ، سأصعد وأستدعيه بعد أن أقدِّمَ لكما الشَّرابَ . وما الطَّعام الَّذي يجب أن أُعدَّه؟ بطاطا مهروسة؟»

رنا الرَّجل إلى زوجة أبي كما لو أنَّه – بينما كانا يتدرَّبان على المسرحيَّة الَّتي على وشك أنْ تتجلَّى– لم يقرأ هذا الجزء من مخطوطتهما .

هزّت إيا مارتا رأسَها من جهةٍ إلى أخرى . «لا نستطيعُ أنْ نأكلَ ، أحضِري زوجك ، لدينا أشياء مهمَّةٌ لنناقشها معكما .»

ابتسمتُ ، وغادرتُ غرفة الجلوس نحو السُّلم .

اعتقدتُ أنِّي عرفتُ ما «الأشياء المهمة» الَّتي جاءا ليناقشَاها . زار عددٌ من أنسبائي بيتَنا سابقًا لمناقشة القضيَّة نفسِها . نقاشٌ استقرَّ دائمًا على توجيههم الكلامَ لي ، بينما أستمعُ إليهم وأنا على ركبتي . في تلك الأوقات ، تظاهر أكين بالاستماعِ وتدوينِ الملاحظات ، في حين أنه في الحقيقة يكتب قائمة مهامِ اليومِ التَّالي . لا أحد في مجموعات الوفود تلك يُحسن الكتابةَ أو القراءةَ ، وكانوا كلُّهم ينبهرونَ بأولئكَ الَّذين يمكنهم ذلك ، وقد أثارَ أكين إعجابَهم بتدوينِ كلماتِهم . وأحيانًا ، في حالِ توقَّف عن الكتابة ، يتذمَّر الَّذي يتولَّى الحديث آنذاك ؛ لأنَّ أكين يقلِّلُ من احترامه أو احترامها بعدم تسجيل أيِّ

ملاحظاتٍ . غالبًا ما خطّطَ زوجي مهامَ أسبوعِه بأكملِه خلال زياراتٍ كتلك ، أمَّا أنا فتصيبني تشنجاتٌ فظيعةٌ في ساقيَّ .

أغضبَت الزِّياراتُ أكين ، وأرادَ أنْ يطلبَ من أقربائِه أنْ يهتمُّوا بشؤونِهم الخاصّة ، لكنَّني لم أسمحْ بهذا . المناقشاتُ المطوَّلةُ سبَّبت لي تشنّجاتِ ساقٍ ، إلّا أنَّها على الأقل جعلتني أشعرُ أنَّني عضوٌ من عائلته . ومنذ أن تزوَّجتُ ، وقبل عصر ذلك اليوم ، ما سبقَ أنْ جاءَني أحدٌ من أقربائِي أنا بهذا النَّوع من الزِّيارات .

وأنا أصعدُ السَّلالم بدا لي أنَّ حضورَ زوجة أبي إيا مارتا عنَى أنَّ نقطةً ما جديدةً سيُشار إليها . ما كنتُ بحاجةٍ إلى نصيحتهما . فبيتي بخيرٍ من دون الأشياءِ المهمَّةِ الَّتي لا بدَّ من أنْ يقولاها . لمْ أرغب في سماعِ صوتِ بابا لولا الأجشِّ ، وهو يقحمه بين نوبات السُّعال ، أو أنْ أرى مزيدًا من وميض أسنانِ إيا مارتا .

اعتقدتُ أنِّي قد سبقَ وسمعتُ ما في جعبتِهم كلّه ، وكنتُ متأكدةً من أنَّ زوجي سينتابه الشُّعور نفسُه . فوجئتُ برؤيةِ أكين مستيقظًا . أكين يعمل ستةَ أيامٍ في الأسبوع ، ويطيلُ النَّوم في معظم أيام الآحاد . وجدتُهُ يذرع الأرضيةَ ذهابًا وإيابًا عندما دخلتُ الغرفة .

«عرفتَ أنَّهما قادمَان اليوم؟» تحرَّيتُ وجههُ بحثًا عن المزيج المألوفِ من الرُّعبِ والغضبِ الَّذي يرتسمُ عليه في أيِّ وقتٍ يأتينا وفدٌ خاصٌّ للزيارة .

«هُم هنا؟» وقفَ بلا حراكٍ وشبكَ يديهِ وراءَ رأسِه . لا رعب ولا غضب . بدأتِ الغرفةُ تصبح خانقةً .

«أعرفتَ أنَّهما قادمان؟ ولم تخبرني؟»

«هيَّا ننزلُ فقط .» وخرجَ من الغرفة .

«أكين ، ماذا يجري؟ ماذا يحدث؟» صحْتُ خلفَه .

جلستُ على السَّرير، طوّقتُ رأسي بيديّ وحاولتُ أن أتنفَّسَ. بقيتُ هكذا إلى أنْ سمعتُ صوتَ أكين يناديني. نزلتُ إلى الطَّابقِ الأرضيِّ لأَنضمَّ إليهِ في غرفة الجلوس. رسمتُ ابتسامةً، ليست عريضةً تكشف الأسنان، بل مجرَّدَ شيءٍ طفيفٍ مرتفع عند زاويتَي فمِي. نوعُ الابتسامِ الَّذي يقولُ: مع أنَّكم أيُّها المُسنُّونَ لَا تعرفونَ شيئًا عن زواجي، أنا سعيدة، لا، بالأحرى مُنتشية لأنَّكم ستُسمِعُونَني تلك الأشياء المهمَّة الَّتي لديكم لتقولوها عن هذا الزَّواج، فأنا -في النهاية- زوجةٌ صالحةٌ.

لم ألاحظها في البداية. مع أنَّها كانت جاثمةً على طرف كرسيٍّ إيا مارتا. كانت حسنةَ المظهرِ، ذاتَ صفرةٍ شاحبةٍ مثلَ لبِّ ثمرةِ مانغا غيرِ ناضجة. شفتاها الرَّقيقتان مطليتان بأحمرَ شفاهٍ قاني الحمرة.

اتكأتُ على زوجي. شعرتُ بتصلّبِ جسدهِ، ولمْ يُحطني بذراعيه ويُدنِني منه. حاولْتُ أنْ أستنتجَ من أينَ جاءتْ المرأة الصَّفراء، متسائلةً لدقيقةٍ مجنونةٍ ما إذا كانت إيا مارتا قد خبأَتْها تحتَ دثارها عندما دخلَت.

«يا زوجتنا، يقول قومنا إنَّ المرءَ عندما يمتلك شيئًا ثمّ يصبحُ ما يمتلكه شيئين لن يغضبه ذلك، صحيح؟» بدأ بابا لولا.

أومأتُ برأسي، وابتسمتُ.

«حسنًا يا زوجتنا، هذه زوجتكم الجديدة. إنَّه طفلٌ واحدٌ مَن يستدعي طفلاً آخرَ إلى هذه الدنيا. من يدري! الحاكم في السَّماوات قد يستجيبُ لصلواتكِ يا يجيده بسببها. وحالما تحبلُ وتنجبُ طفلاً، نحن واثقون من أنَّك أنتِ أيضًا ستحبلين،» تابع بابا لولا.

أومأتْ إيا مارتا برأسها مبديةً موافقتها. «يِجيدِه يا بنتي، لقد فكَّرنا في هذه القضيَّة، وتعمَّدنا نسيانها مراتٍ عديدة، أنا وأهل

زوجك، وكذلك أمهاتُكِ الأخريات.»

أغمضتُ عينيّ. أنا حتمًا على وشكِ الاستيقاظِ من غيبوبةٍ ما. عندما فتحتُ عينيّ ثانيةً، اكتشفتُ أنَّ المرأةَ الَّتي بصفرةِ المانغا ما زالتْ هناك، ضبابيةً ولكنَّها هناك. أصابني دوارٌ.

توقّعتُهما أن يتحدَّثا عن عدم إنجابي الأطفال. كنتُ متسلّحة بملايين الابتسامات: ابتساماتُ اعتذارٍ، ابتساماتُ ارحموني، ابتساماتُ أنا أستعطف القدير - وكلُّ أنواعِ الابتساماتِ المصطنعةِ الضَّروريَّةِ لتخطِّي ذلك العصر مع مجموعة أناسٍ يزعمونَ أنَّهم يريدونَ ما هو أفضل للمرء، بينما هم يطعنون جرحه المفتوح بعود - كانت ابتساماتي تلكَ جاهزةً. كنْتُ مستعدَّةً لسماعِهِمْ يخبرونني بأنّه يجب عليَّ فعل شيء بخصوص حالتي. توقّعت السَّماع عن كاهنٍ مهمٍّ يمكن أن أقصده؛ عن جبلٍ آخرَ أستطيعُ الذَّهابَ إليهِ للصلاة؛ أو عن مسنٍّ مختصٍّ بالأعشاب في قريةٍ أو بلدةٍ نائيةٍ في وسعي استشارته. تسلّحت بابتسامات لشفتَي، وببريق دموع ملائم لعينَي، وشهقاتٍ لأنفِي. كنتُ مستعدَّةً كي أغلقَ صالونَ تصفيفِ الشَّعر طوالَ الأسبوعِ القادم؛ وأَمضي مخفورة مع حماتي بحثًا عن معجزةٍ. أمَّا ما لم أستعدَّ له، فهو وجود امرأةٍ أخرى مبتسمةً في الغرفة، امرأةً صفراءَ بفمٍ قاني الحمرة، منفرجٍ عن ابتسامةٍ عريضةٍ كحالِ أيِّ عروسٍ جديدةٍ.

تمنَّيتُ لو أنَّ حماتي هنا، المرأةُ الوحيدةُ الَّتي ناديتها مومي، زرتها أكثر ممّا زارها ابنها، وهي الَّتي وقفتْ تراقبُ بينما غسل كاهنٌ شعريَ المموّجَ مؤخرًا في نهرٍ متدفقٍ، بحجَّةِ أنَّ أمِّي ألقت عليَّ لعنةً قبل أنْ تموتَ بعد دقائقَ من إنجابي. ومومي كانت معي عندما قعدتُ على سجادة صلاةٍ لثلاثةِ أيّام، أرتّلُ كلمات لم أفهمها مرارًا وتكرارًا إلى أنْ

أُغميَ عليَّ في اليومِ الثَّالثِ، مختصرةً ما توجَّب أنْ يكونَ سبعةَ أيَّامٍ من الصِّيامِ والسَّهرِ.

حينما استعدتُ الوعيَ في عنبرِ مستشفى نقابة ويزلي، مسكت يدي وطلبت منِّي الصَّلاة لأتحلّى بالقوة. «حياة الأمِّ الصَّالحة شاقةٌ،» قالت، «قد تكون المرأة زوجةً سيئةً، لكنِ يجب ألَّا تكون أمًّا سيئَة.» أخبرتني مومي أنَّني قبل أن أسألَ الله أنْ يهبَني طفلاً، يجبُ أنْ أطلبَ منهُ منحِي نعمة القُدرة على تحمُّل المعاناة للحصول على ذلك الطِّفل. قالت إنَّني لستُ جاهزةً بعد لأكونَ أُمًّا، ما دمتُ قد غبتُ عن الوعي بعد ثلاثة أيام من الصِّيام.

أدركتُ حينذاك أنَّها لم تغبْ عن الوعي في اليوم الثَّالث، لأنَّها، على الأرجح، مارستْ ذلك النَّوع من الصِّيام عدَّة مرَّات، لتستعطفَ القديرَ باسمِ أطفالِها. في تلك اللحظة، غدتِ التَّجاعيدُ المحفورةُ حولَ عيني مومي نذيرَ شؤم، إذ بدأتْ تعني لي ما هو أكثرُ من علاماتِ الشَّيخوخة. تمزّقتُ، أردتُ أنْ أكونَ ذلك الشَّيء الَّذي ما حصلتُ عليه قطُّ. أردتُ أنْ أكونَ أُمًّا، أن تشعَّ عيناي ببهجة وحكمة سرِّيتين مثل عيني مومي. إلَّا أنَّ حديثها عن المعاناة أفزعني.

«حتّى سنُّها لا تقاربُ سنّكِ،» مالت إيا مارتا في مقعدها. «لأنَّهم يقدِّرونكِ يا يجيده، أهل زوجكِ يعرفون قيمتكِ. أخبروني أنَّهم يعلمون كم أنتِ زوجة صالحة في بيت زوجكِ.»

تنحنح بابا لولا: «يجيده، أنا شخصيًا أودّ أن أثني عليكِ، أقدِّر جهودكِ في سعيك لأنْ يخلِّف ابننا ولدًا وراءَه بعدما يموت، ولهذا نعرف أنَّكِ لن تري أنَّ هذه الزَّوجة الجديدة تنافسكِ. اسمها فنميلايو، ونحن نعلم، بل نحن واثقون من أنَّك ستتقبّلينها كأختٍ صغرى لكِ.»

«صديقتكِ ،» قالت إيا مارتا .

«بنتكِ ،» قال بابا لولا .

خبطَت إيا مارتا ظهر فنمي . «هيا ، انهضي وسلّمي على الـ إيال .»

ارتعدَت أوصالي عندما دعتني إيا مارتا إيال . طقطقت الكلمة في أذنيّ - إيال : زوجة الزوج الأولى . إنّها الحكم الّذي وصمني بكوني لست امرأةً كاملةً لأرضي زوجي .

جاءت فنمي لتجلسَ إلى جانبي على الأَريكة .

هزّ بابا لولا رأسه معترضًا . «انزلي على ركبتيك يا فنمي . لن يلتقي القطارُ بالأرضِ الّتي أمامه إلّا بعد انطلاقه عشرين سنة في رحلته . يجيده تسبقكِ بكلّ المراحل في هذه الدّار .» جثمَت فنمي ، ووضعَت يديها على ركبتَي ، وابتسمَت .

ألحّ الحكاكُ على يديّ لأصفعَها ، وأنزع الابتسامة عن وجهها .

التفتُّ لأنظرَ في عينَي أكين ، آملةً بطريقةٍ ما أنّه ليس طَرفًا في هذا الكمين . استقبلَتْ عيناه نظرتي بالتماسٍ صامتٍ ، انزلقَت ابتسامتِي المتيبّسة ، أحكمَ الغضبُ يديه المشتعلتين حولَ قلبي . كانَ هناك خبطٌ في رأسي ، بين عيني تمامًا .

«أكنتَ على علمٍ بهذا يا أكين؟» خاطبْتُه بالإنجليزية ، مانعةً الزّائريَن المُسنَين من فهمي بما أنّهما لا يُجيدان إلّا لغة اليوروبا .

لم ينطقْ أكين بكلمة ؛ حكّ قصبةَ أنفه بسبابَته .

نظرتُ في أنحاءِ الغرفةِ بحثًا عن شيءٍ أُركّزُ عليه . ستائرُ الدّانتيل البيضاء بزركشتها الزّرقاء ، الأريكةُ الرّماديّة ، البساط المماثل لها في اللون ، لطخةُ بقعة القهوة الّتي حاولتُ عبثًا إزالتها لأكثرَ من سنةٍ . بقعةٌ بعيدةٌ جدًا عن الوسط لأحجبها بالطّاولة ، بعيدةٌ جدًا عن الجوانب لأخفيها بالأرائِك . كانت فنمي تلبس ثوبًا من اللون البنيِّ

الفاتح، درجةُ لونِ بقعة القهوة نفسُها، ودرجةُ لون قميصي نفسُها. كانت يداها تطوّقان ساقيّ العاريتين تحت ركبتيَّ تمامًا. عجزتُ عن النَّظر إلى ما هو أبعد من يديها، ما هو أبعد من كُمَّي ثوبها الطَّويلين والمنفوخين. ما استطعتُ النَّظر إلى وجهها.

«عانقيها يا يجيده.»

لم أكنْ متأكّدةً مَنِ الّذي تكلّم. رأسي الحارُّ ما فتِئَ يزدادُ سخونةً، يقتربُ من درجةِ الغليان. أيُّ واحدٍ فيهم يمكن أن يكونَ مَن قال تلكَ الكلمات: إيا مارتا، بابا لولا، القدير... لا يهمّني.

التفتُّ نحو زوجي ثانيةً. «أكنتَ على عِلْم بهذا يا أكين؟ عرفتَ وجبُنتَ أن تخبرني. عرفتَ؟ أيُّها اللقيطُ اللعينُ. بعدَ كلِّ شيءٍ! أيُّها اللقيطُ الحقيرُ!»

تلقّفَ أكين يديَ قبل أنْ تهبطَ على خدِّه.

لم تكنْ صيحةَ استهجان إيا مارتا ما لجم كلماتي، بل طريقةَ تمسيدِ إبهامِ أكين الحنونة لراحتي. أشحتُ بنظري بعيدًا عن عينيه.

«ماذا تقول؟» طلبَ بابا لولا من الزَّوجة الجديدة أن تفسّرَ.

«يجيده، رجاءً،» ضغط أكين يدي.

«تقول إنّه لقيط،» فسّرَت فمني همسًا، كما لو أنَّ الكلمات أسخن وأثقل بكثيرٍ من أن تخرج من فمها.

صرخَت إيا مارتا وغطّت وجهها بيديها. لم يخدعني عرضُها المسرحي، عرفتُ أنّها، ضمنًا، تشعر بالشّماتة، كنت واثقةً من أنّها ستقضي أسابيعَ وهي تكرّر ما شاهدته لزوجات أبي الأخريات.

«يجب ألّا تشتمي زوجَك، هذا الطِّفل. مهما بدتْ لكِ الأشياء، ما زالَ زوجكِ. ماذا تريدين منه أن يفعلَ لكِ أكثر مما فعل؟ ألم يعثر على شقةٍ لفنمي لتقيمَ فيها من أجلك، في حين أنَّ لديه بيتًا بطابقين

هنا!؟» تلفّتت إيا مارتا تنظر في أنحاء غرفة الجلوس، وهي تفتحُ يديها لتشير إلى البيت الكبير في حال فاتتني ملاحظتها عن البيت. البيتُ الّذي أدفعُ نصفَ إيجاره شهريًا. «أنتِ، يجيده هذه، يجب أن تشعري بالامتنان تُجاه زوجكِ.»

سكتَت إيا مارتا، لكن فمها بقي مفتوحًا. وإذا اقترب المرءُ منها، فاح ذلك الفمُ ببخرٍ كريهٍ لا يُطاق، كرائحةِ البولِ النتن. اختار بابا لولا مقعدًا على مسافةٍ آمِنة منها.

أدركتُ أنّه يفترض بي أنْ أركع، وأحني رأسي مثل تلميذةِ مدرسةٍ تُعاقب، وأقولُ إنِّي آسفة على إهانة زوجي وأُمّه بنَفَس واحد. كانوا سيقبلون اعتذاري، وكان يمكنني الزّعم أنَّ الشّيطان، أو حالة الجو، أو أنَّ جدائلي الجديدة المشدودة كثيرًا هي ما جعل رأسي يفجُّ، وحرّضتني على إهانة زوجي أمامهم. بيد أنّني لم أستطعْ إرغامَ جسدي المنقبض، مثل يدٍ مصابةٍ بداءِ المفاصل، على الإتيان بحركاتٍ لم يشأ القيامَ بها. وهكذا، وللمرّة الأولى، تجاهلتُ استياءَ أنسبائي، ووقفتُ بينما توقّعوا منّي أنْ أنحني. شعرتُ وأنا أنهض منتصبةَ القامة أنّني أطول من المعتاد.

«سأُعِدُّ الغداء.» قلتُ، ممتنعةً عن سؤالهم ثانيةً ماذا يحبّون أن يأكلوا. الآن بعد أن عرّفوني مَن هي فنمي، صار من المقبول بالنِّسبة إلى بابا لولا وإيا مارتا أن ينالا وجبة طعام. لم أشعر أنّني على استعدادٍ لتحضير وجبةٍ خاصةٍ لكلِّ فردٍ منهم. لذا قدّمتُ لهم ما أردتُ تقديمه. أطعمتهمْ حساءَ فاصولياء، مزجت هذا الحساء الّذي مضت عليه ثلاثةُ أيامٍ، والّذي نويت رميَهُ في صندوقِ القمامةِ، بحساءٍ طهوتُه مؤخرًا. على الرّغم من أنّي لم أشكَّ في أنّهم سيلاحظون أنَّ المذاق سيِّئ إلى حدٍّ ما، راهنتُ على أنّهم سيستمرون

في الأكلِ بسبب شعور بابا لولا بالذّنب المتواري تحت قناعِ غضبه من سلوكي ، وعلى شماتةِ إيا مارتا الّتي حجبتها تحت ستار تظاهرها بالاستهجان ، ولأساعدهم على ابتلاعِ الطّعامِ ، ركعْتُ معتذرةً من الاثنين . ابتسمَتْ إيا مارتا وقالت إنّها لن تتوانى عن رفضِ تناولِ الطّعام لو أصررتُ على التّصرُّف مثل بنتِ الشوارع . اعتذرتُ ثانية ، وعانقتُ المرأةَ الصّفراءَ ؛ لأرجِّحَ كفّةَ الميزان . فاحت رائحتُها بما يشبه زيتَ جوزِ الهندِ والفانيليا ، وبينما راقبتهم يأكلون ، شربتُ من زجاجة ماء الشّعير . خاب أملي عندما رفض أكين أن يأكلَ أيَّ شيءٍ .

عندما تذمّروا معلنين أنّهم كانوا يفضّلون البطاطا المهروسة مع يخنة الخضار والسّمك المجفف ؛ تجاهلتُ نظرة أكين . في أيِّ يوم آخرَ كنتُ سأهرعُ إلى المطبخ لأهرسَ البطاطا ، أمّا في ذلك العصر ، فأردْتُ أن أقولَ لهم قومُوا واهرسُوا البطاطا بأنفسكم ، ما دمتم تريدون بطاطا مهروسة حقّا . ابتلعتُ الكلماتِ المتأججةِ في حنجرتي بجرعاتٍ من ماءِ الشّعير ، وأخبرتُهم أنّني لم أستطعْ هرس البطاطا ؛ لأنّني لويتُ يدي في اليوم السّابق .

«لكنّكِ لم تقولي ذلك ساعةَ وصلنا .» حكّت إيا مارتا ذقنها . «أنتِ بنفسكِ عرضتِ أن تقدمي لنا بطاطا مهروسة .»

«لا ريب في أنّها نسيَت الالتواء ، عانتْ أمس من ألم شديدٍ ، بل حتّى فكّرْتُ في اصطحابِها إلى المستشفى .» قال أكين ، داعمًا كذبتي الّتي كانت في غاية الوضوح .

جرفوا الفاصولياءَ إلى أفواههم مثلَ الأطفالِ الجِياعِ ، ونصحوني أنْ أفحصَ يدي في المستشفى . فنمي وحدها زمّت فمها من لقمةِ الفاصولياءِ الأولى ، ونظرتْ إليّ بعين الشّكّ . التقتْ عيوننا فابتسَمَتْ لي ابتسامةً واسعةً ذاتَ حدودٍ حمراء .

بعد أن أخليْتُ المائدة من الصُّحون الفارغة ، أعلن بابا لولا أنَّه لم يعرف ما المدّة الَّتي ستستغرقها الزِّيارة ، لذلك لم يرتّب أمور العودة مع سائق سيارة الأجرة الذي اقلّهم ليعود ويأخذهم ، وافترضَ – كما يفعل الأقاربُ غالبًا – أنَّ أكين سيتولّى مسؤوليَّةَ إعادتِهم إلى بيوتِهم .

سرعانَ ما حانَ الوقت ليقلَّ أكين الجميع . وبينما مشيتُ معهم إلى سيارتِه ، خشخش أكين مفاتيحه في جيبِ بنطلونه ، وسألَ إنْ كانوا جميعُهم موافقينَ على وجهةِ الطَّريق الَّتي ينوي سلوكها . أرادَ أن يُنزلَ بابا لولا في شارعِ «إلاجي» ، ثمَّ يُوصل إيا مارتا إلى «أيفي» . لاحظْتُ أنَّه لم يشرْ إلى مكان إقامة فنمي . وبعد أنْ قالت إيا مارتا إنَّ وجهة السَّير التي اقترحها أكين هي الخيار الأنسب ؛ فتح أكين أبواب السَّيارة ، وجلس على مقعد السَّائق .

خنقتُ رغبتي الملحَّة في شدِّ شعر فنمي المضفور بطريقةِ «الجهري» لأنَّها انزلقت إلى المقعد الأمامي إلى جانب زوجي ، ثم نحَّت الوسادة الصَّغيرة الَّتي أبقيها هناك دائمًا ، ورمتها على أرضية السَّيارة . كوَّرْتُ قبضتيَّ وأكين يبتعد بالسَّيارة بعد أن تركَني وحدي وسط سحابة الغبار الَّتي أثارها .

*

«ماذا أطعمتِهمْ؟» صاحَ أكين .

«يا عريسُ ، مرحبًا بكَ ،» قلتُ . كنتُ قد انتهيت توًّا من تناولِ عشائي . حملتُ الصُّحون ، واتجهْتُ إلى المطبخ .

«أتعرفين أنَّهم أصيبُوا كلُّهم بالإسهال؟ اضطررتُ إلى التَّوقّف قرب أجمة ليتغوّطوا . أجمـــــة!» قال ، وهو يلحق بي إلى المطبخ .

«ما الغريبُ جدًا في هذا؟ أيوجدُ لدى أقاربِكَ مراحيضُ في بيوتهم؟! أَلَا يتغوّطون في الأَجمات، وعلى تلال الرَّوث؟!» زعقتُ، وخبطْتُ الصُّحون في حوض الجلي المعدنيِّ. تبع صوت خبط الخزفيّات صمتٌ، تصدَّع أحدُ الصُّحون من منتصفه. مرّرتُ إصبعي على السَّطح المكسور، شعرتُ به يجرحني. تقطّر دمي ملطِّخًا المساحة الخشنة المتعرّجة.

«حاولي أنْ تستوعبي يا يجيده، تعلمين أنُني لن أسبّبَ لكِ الأذى.» قال.

«ما اللُّغة الَّتي تتحدث بها؟ الصِّينية أو لغة الهاوسا؟ أنا لا أفهمكَ. تكلّم بشيءٍ أفهمهُ يا سيد عريس.»

«كفّي عن مخاطبتي بهذا اللقب.»

«سألقّبكَ بما أشاء، أنت على الأقلّ ما زلتَ زوجي... ها! لكن لعلَّكَ ما عدتَ زوجي، هل فاتني هذا الخبر أيضًا؟ هل أفتحُ المذياع أم أنَّ الخبرَ في التلفزيون؟ في الصَّحيفة؟» رميتُ الصَّحن المكسور في صندوق القمامةِ البلاستيكيِّ المركون قرب حوض الجلي، واستدرتُ لأواجههُ.

كانت جبهتهُ تلمعُ بحبّات العرق الَّتي جرت على خدّيه وتجمَّعت عند ذقنه، وقدمهُ تخبط الأرضيَّة متناغمةً مع وقعِ ضربٍ عنيفٍ يقرع رأسَه، وعضلاتُ وجهه تماشتْ مع وقع الضَّرب نفسِه؛ إذ راحَ فكّه يتقلَّص ويسترخي. «دعوتِني لقيطًا أمامَ عمِّي... قلّلتِ من احترامي.»

فاجأني الغضب في صوتِه، أثارَ حفيظتي. تهيَّأ لي أنَّ جسمه المهتزّ عنى أنّه منفعلٌ؛ فهو عادةً ما دلَّ على ذلك. أمِلتُ أنَّ هذا عنى شعوره بالأسف... بالذَّنب... «غاضبٌ مع أنَّكَ أحضرْتَ زوجةً

أخرى إلى هذا البيت؟ متى تزوجتها؟ السَّنة الماضية؟ الشَّهر الماضي؟ متى نويتَ إخباري؟ ها؟ أنتَ يا . . .»

«لا تقوليها يا امرأة، لا تقولي تلك الكلمة . يلزمك قفلٌ على فمكِ .»

«لا بأس، ما دمتُ بلا قفل الآن، سأقولها أنت أيُّها اللعين الـ . . .»

غطَّت يدُه فمي . «حسنًا، أنا آسف، كنتُ في موقفٍ صعبٍ . تعرفين أنَّني لن أخونك يا يجيده، تعرفين أنَّني لا أستطيع، لا أستطيع خيانتكِ، أقسمُ لك .» ضحكَ، وخرجَ رنينُ ضحكتِه متكسرًا مثيرًا للشفقة .

أزحتُ يدَه بعيدًا عن وجهي . تمسَّك بيدي، وأخذ يفرك راحته براحتي . . . أردتُ أنْ أبكي .

«عندكَ زوجةٌ أخرى، دفعتَ لها مهرًا، وانبطحتَ أمام عائلتها . . . أعتقد أنَّكَ سبقَ أنْ خنتني .»

وضعَ راحتي على قلبهِ ؛ كان ينبضُ بسرعةٍ . «لم أخنكِ، ليس لديَّ زوجة جديدة . صدِّقيني، هذا من أجل الأفضل ؛ ستكفُّ أمِّي عن الضَّغط عليكِ بسبب الأطفال .» همسَ .

«هراءٌ وكلامٌ فارغٌ .» انتزعْتُ يدي، وخرجْتُ من المطبخ .

«إذا كان هذا يجعلكِ تشعرين بالتَّحسُّن ؛ اعلمي أنَّ فنمي لم تنجحْ في الوصولِ إلى الأجمةِ بسرعةٍ كافيةٍ، وقد لوَّثتْ ثوبها .»

لم أشعر بالتَّحسّن، ولن أشعر بالتَّحسن لوقتٍ طويلٍ جدًا . كنتُ أتفكك، أنحلُّ كما قد ينحلُّ وشاحٌ عُقِدَ بعجالة، فسقطَ على الأرض قبل أن يعي مالكه ما حدث .

3

كُوِّنَت يجيده في يومِ سبت ، عندما تسنَّى للقدير أنْ يحظى ببحبوحةٍ من الوقتِ ليسبكهاَ بلون أَبنوسيٍّ مثاليٍّ . لا مجالَ للشكِّ في هذا ؛ فالعملِ المنتهي دليلً حيٌّ على ذلك .

أوَّلُ مرةٍ شاهدتُها ، أردتُ أنْ ألمسَ ركبتها المحجوبةَ بالجينز ، وأخبرها هناك وفي تلك اللحظة : «اسمي أكين أجاي ، وأنا سأتزوجكِ .»

كانت رائعة بلا تكلُّف ، البنتُ الوحيدة في صفِّ المشاهدين الَّتي لم تجلس بطريقةٍ مترهلةٍ . أبقت ذقنَها مرفوعًا ، ولم تمِل جانبًا لتستندَ على أحد ذراعيِّ الكرسيِّ البرتقاليتين . جلستْ مستقيمةً ، مشدودةَ الكتفين ، ويداها متشابكتان أمام بطنِها العاريْ . لم أستطعْ أنْ أصدِّقَ أنَّني لم ألاحظها في طابور التَّذاكر في الأسفل .

اختلسَتْ نظرة إلى يسارها قبل انطفاءِ الأضواء بدقائق ؛ التقَت عيوننا . لم تُشحْ وجهها كما توقَّعتُ ، فاعتدلتُ في جلستي أمامَ نظرتها ، عاينتني من الأعلى إلى الأسفل ، أمعَنَت في تفحُّصي . لم يكفِنِي أنَّها ابتسمَت لي قبل أن تلتفتَ لتواجه شاشة السِّينما الكبيرة ؛ صبوتُ إلى المزيد .

بدتْ غافلةً عن تأثيرها ، لم يظهر عليها أنَّها وعَت كيف حدقْتُ فيها مسحورًا ، وأنا أفكِّرُ بالكلمات الَّتي قد تُقنعها لتخرجَ معي .

لسوءِ الحظِّ ، لم أنجحْ في مخاطبتها فورًا ، انطفأت الأضواء بمجرد أن توصَّلتُ إلى الكلمات الَّتي حاولت صياغتها ، هذا إلى جانب أنَّ

الفتاة الَّتي كنت أواعدُ في ذلك الحين كانت تجلس بيني وبين يجيده .

قطعتُ علاقتي بتلكَ الفتاة في الليلة نفسها . بعد الفيلم مباشرة ، فعلتُها ونحن واقفان في بهوِ صالة «أودودوا» في «أيفي» وطوفان الحشد الَّذي جاء لمشاهدة الفيلم يمرُّ بنا .

قلتُ لها : «رجاءً اسلكي طريقَكِ إلى بيت الطَّلبة وحدكِ . أراكِ غدًا .» شبكْتُ يدي معربًا عن أسفي ، مع أنَّني لم أشعر بالأسف ، ولن أشعر أبدًا به ، تركتُها واقفةً هناك ، وفمها شبه مفتوح .

وسّعتُ طريقي خلال الحشد . بحثتُ عن جمالٍ بجينزٍ أزرق ، وصندلٍ سميكِ النَّعل ، وفانيلةٍ بيضاء تُظهر السُّرَّة . وجدتُها . . . تزوجتُ يجيده قبل نهايةِ تلك السَّنة .

أحببتُ يجيده من اللحظة الأولى ، لا سبيلَ للشكِّ في ذلك ، لكن هناك أشياء حتَّى الحبّ لا يقدر على فعلها . قبل أن أتزوج ، اعتقدتُ أنَّ الحبَّ قادرٌ على تحقيق أيِّ شيءٍ ، ثمَّ ما لبثْتُ أنْ تعلَّمتُ أنَّه يعجزُ عن تحمُّل وزن أربع سنواتٍ بلا أطفال ، وما دامَ العبءُ ثقيلاً جدًّا ورابضًا زمنًا طويلًا ، يتقوّس الحبُّ ، يتصدَّع ، يقتربُ من الانكسار وأحيانًا ينكسر . إلّا أنه ولو أصبح ألف شظيةٍ حول قدمَي المرء ، لا يعني ذلك أنَّه لم يعدْ حبًا .

بعد أربعِ سنوات ، لا أحد اكترث بالحبِّ . أُمِّي لم تفعل ، تحدّثت عن مسؤوليَتي تُجاهها باعتباري ابنها البِكر ؛ ذكّرتني بالشُّهور التِّسعة حيثُ العالم الوحيد الَّذي عرفتُ كان في داخلها ، ركّزَت على معاناة الشُّهور الثَّلاثةِ الأَخيرة ، وكيف أنَّها لم تشعر بالرَّاحة في السَّرير ، واضطرَتْ إلى تمضيةِ لياليها في أريكةٍ ذاتِ وسائدَ .

سرعان ما بدأتْ مومي تأتي على ذكر جوان ؛ أخي غير الشَّقيق ، وأوَّل ابنٍ لأبي من زوجته الثَّانية . مضت سنواتٌ طوال منذ أن

استخدمته مومي كمثال . عندما كنتُ أصغر بكثيرٍ ، واصلتْ دومًا الحديث عنه : «جوان لا يأتي أبدًا إلى البيت بملابسَ قذرة ؛ فلماذا قميصك قذر؟ جوان لم يفقد أبدًا صندل المدرسة ، هذا ثالثُ زوجٍ من الصنادل تفقده في هذا الفصل ، جوان يعود دائمًا إلى البيت في الثالثة ؛ أين تذهب بعد المدرسة؟ كيف يصدف أن يعود جوان إلى البيت ومعه جوائز بينما أنت لا تفعل؟ أنت الابن البكر في هذه العائلة ، أتدركُ ما يعني ذلك؟ أتدركُ ما يعني ذلك مطلقًا؟ أتريد أن يحتلَّ مكانك؟»

كفَّت عن ذكر جوان عندما قرَّرَ أنْ يتعلّمَ مهنةً بعد المدرسة الثّانوية ؛ لأنَّ أمَّه لم تستطع تحمُّل نفقات الجامعة . أُخمِّنُ أنَّ مومي رأت أنَّ فتًى يتدرب ليصبح نجَّارًا لا يمكن أن يرقى إلى مستوى أطفالها الملتحقين بالجامعة . لسنوات ، كفَّت عن ذكر جوان ، وبدا أنَّها فقدت اهتمامها بحياته إلى أن أرادت منِّي أنْ أتزوجَ امرأةً ثانية ، حينها أخبرتني ، كما لو أنني لا أعرف ، أنَّ جوان أصبحَ لديه أربعة أطفال ، وكلُّهم صبية . هذه المرَّة لم تتوقَّف عند جوان ، ولكن ذكَّرتني أنَّ جميع إخوتي غير الأشقاء لديهم أطفال الآن .

بعدَ أنْ مضت سنتان على زواجي من يجيده ، بدأتْ أمِّي تظهر في مكتبي ، في أوَّل يومِ اثنين من كلِّ شهر . ولا تأتي وحدها ، بل تحضر معها دائمًا امرأة ما . زوجةٌ ثانيةٌ محتملةٌ . لم تفوِّت يوم اثنين واحد من أوَّل أيِّ شهر ، ولا حتَّى وهي مريضة . أجرينا اتفاقًا ؛ طالما أنَّني أسمحُ لها بجلب النِّساء إلى مكتبي ، لن تحرجَ مطلقًا زوجتي بالظُّهور في بيتنا مصطحبةً واحدة من المرشّحات للزواج ؛ ولن تشيرَ أبدًا إلى جهودها تلك أمامَ يجيده .

عندما هدَّدَتني أمِّي بأنَّها ستبدأ في زيارة زوجتي أسبوعيًا ،

مصطحبةً امرأةً جديدةً إذا لم أختر واحدة خلال شهر؛ اضطررتُ إلى اتخاذِ قرارٍ. لم يغبْ عنّي أنَّ أمِّي ليست امرأة تطلقُ تهديدات فارغة. لم يغب عنّي أيضًا أن يجيده لن تتحمَّل ذلك النَّوع من الضَّغط؛ فهذا سيحطمها حتمًا. وهكذا، مِن بين حبلِ الفتيات اللاتي استعرضتهنَّ أمِّي في مكتبي شهريًا، فنمي هي الوحيدة الَّتي لم تصرَّ على الانتقال لتعيشَ معي ومع يجيده. كانت فنمي الاختيار البديهي، لأنَّها لم تطالبني بالكثير. ليس في البداية على أي حال.

توسمتُ فيها حلًا وسطًا سهلًا، رضيَتْ بشقةٍ منفصلةٍ تبعدُ أميالًا عنِّي أنا ويجيده. لم تطلبْ أكثرَ من عطلةِ نهايةِ أسبوعٍ في الشهرِ، ومصروفِ جيبٍ مقبولٍ. وافقَتْ على ألَّا تكونَ أبدًا مَن ترافقني إلى الحفلات والمناسبات العامَّة.

لم أرَ فنمي لشهورٍ بعد موافقتي على الاقتران بها، أخبرتُها أنَّ لدي الكثير مما يشغلني في العمل، ولن أقدر على رؤيتِها لفترة. لا بُدَّ من أنَّ أحدًا باعها نصيحة «الزَّوجةُ الصَّبورةُ تكسب قلبَ زوجها في النِّهاية». لم تجادلني؛ اكتفت بالانتظار إلى أن وصلتُ إلى تقبّلِ حقيقةِ أنَّها أصبحت الآن جزءًا من حياتي.

علاقتي مع يجيده جرت بوتيرةٍ أشدّ إلحاحًا، قضيتُ الشَّهر الأوَّل بعد لقائي بها، وأنا أقود السَّيارة يوميًا لساعتين كي أكون معها. أغادرُ المكتب في الخامسة، وأصرف حوالي ثلاثين دقيقة وأنا أقود إلى «أيفي»، ويستغرقُ الأمرُ ربع ساعةٍ أخرى لأعبرَ البلدة إلى بواباتِ الجامعة. عادةً، أدخل «كلية 101» في قاعة «موريمي» بعد ساعةٍ من مغادرتي «إليسا».

فعلتُ ذلك يوميًا إلى أنْ جاءَ مساءُ يوم خرجَتْ فيه يجيده إلى الرِّواق، وأغلقت الباب خلفها بدلًا من أن تُدخلني. طلبَتْ منِّي

ألّا أعودَ أبدًا، قالت إنَّها لا تريد رؤيتي مجدّدًا، لكنّني لم أتراجع. داومتُ على الوقوف عند كلية «101» يوميًا طيلة أحد عشر يومًا، أبتسمُ لزميلاتِها في السَّكن، وأحاولُ إقناعهن ليسمحنَ لي بالدُّخول.

في اليوم الثّاني عشر، فتحَتْ الباب، وخرجَتْ لتقفَ معي في الرُّدهة. وقفنا جنبًا إلى جنب، وأنا أتوسّل إليها لتعلِمَني ما الخطأ الّذي ارتكبتُ، ومزيجٌ من روائحِ المطبخِ الصّغيرِ والمراحيض تهبُّ في اتجاهنا.

تبيّنَ أنَّ الفتاة الّتي كنت أخرجُ معها سابقًا قبل أن أقابل يجيده قصدتْ غرفة يجيده لتهدِّدها، ادَّعت الفتاة بأنّنا أقمنا زفافًا تقليديًا.

«أنا لا أقبل بتعدُّد الزَّوجات.» قالت يجيده في ذلك المساء عندما بيّنت لي ما خطبها.

أيُّ فتاةٍ أخرى كانت ستتحجج بأسلوبٍ ما ملتوٍ لتقولَ لي إنَّها تريد أن تبقى الزَّوجة الوحيدة، لكن ليس يجيده. يجيده تصرّفت بطريقةٍ مباشرةٍ وصريحةٍ.

«ولا أنا.» قلتُ.

«انظر يا أكين، لننسَ الأمر، لننسَ هذا... نحن... هذا...»

«لستُ متزوِّجًا، هيًا، انظري إلي. إذا شئتِ يمكن أن نذهب إلى مهجعِ تلكَ الفتاة الآن وسأواجهها، أطلب منها أن ترينا صورَ الزَّفاف.»

«اسمها بيسادي.»

لم تقل يجيده شيئًا لفترة من الوقت، اتكأت على الباب تراقب النَّاس يروحون ويجيئون في الرُّواق.

لمستُ كتفها، ولم تبتعد. «كنتُ سخيفة إذًا.» قالت.

«تدينين لي باعتذار.» أجبت من غير أن أعنيَ ذلك، فعلاقتنا لم تتجاوز بعد نقطة: لا يهمُّ من المصيب ومن المخطئ، وما زلنا لم نصل

إلى الموضع الَّذي يفتعلُ فيه مَن عليه الاعتذار شجارًا آخر .

«آسفة ، لكنَّكَ تعرف أنَّ لدى النَّاس مختلف أنواع الـ

آسفة .» غمغمَت ومالَتْ نحوي .

«لا بأس .» افترَّ ثغري عن ابتسامة واسعة ، وإبهامها يرسم دوائر غير مرئيَّة على طول ذراعي .

«حسنًا يا أكين ، يمكنكَ الاعتراف لي بكلِّ أسرارك الآن . أسرارٌ قذرة أو نظيفة ، ربَّما عن امرأة لديها أطفالك في مكان ما . . .»

كانت هناك أشياء من الممكن أنْ أطلعَها عليها ، بل وجب أن أطلعَها عليها . ابتسمتُ : «عندي بضعة جوارب وألبسة داخلية قذرة ، فماذا عنكِ؟ أيُّ ملابس داخليَّة قذرة؟»

هزَّت رأسها نفيًا .

أخيرًا ، نطقتُ بالكلماتِ الَّتي ما برحَتْ ترقص على لساني منذ البداية ، أو نطقتُ بنسخة تشبهها . قلت لها : «يجيده ماكيند . . . سأتزوجك .»

4

لفترةٍ ، رفضتُ الإقرار بحقيقةِ أنّني أصبحت الزّوجة الأولى ، أصبحت «إيالى» . إيا مارتا أو أمّ مارتا هي أولى زوجاتِ أبي ، وفي طفولتي اعتقدتُ أنّها أتعسُ زوجةٍ في العائلة ، ورأيي لمْ يتغيرْ عندما غدوتُ أكبرَ سنًا . في جنازة أبي وقفَتْ إزاءَ القبرِ المحفورِ حديثًا ، وقد ضيَّقت عينيها الضّيقتين أكثر ، وأمطرتْ لعناتها على جميع النِّساء اللاتي اتخذهنَّ أبي زوجاتٍ بعد اقترانه بها . وبدأت كالعادة بأمِّي الميتة منذ زمنٍ بعيد ، باعتبارها ثاني امرأة اقترن بها ، الزّوجة الّتي جعلتْ إيا مارتا زوجةً أولى وسط مَن لسنَ نظيراتٍ لها .

رفضتُ التّفكيرَ في نفسي بصفتي الزّوجة الأولى .

كان من السّهل التّظاهر بأنَّ فنمي ليست موجودة أصلًا ، بقيتُ أستيقظ صباحًا ، وزوجي مستلقيًا على ظهره إلى جانبي في السّرير . ساقاه ممدودتان ومنفرجتان ، ووسادة على وجههِ ليمنعَ تسرُّبَ الضّوء إليه من مصباحي الجانبي . أقرصُ عنقه إلى أن ينهض ويقصد الحمّام ، يردُّ على تحيتي بإيماءة رأسٍ أو تلويحٍ باليد ، فهو لا يكون متماسكًا في الصّباح ، ويعجز عن ضمّ الكلمات إلى بعضها قبل فنجان قهوةٍ وحمّامٍ باردٍ .

بعد أسبوعين من مجيء فنمي إلى بيتنا أوّل مرة ، رنّ جرسُ هاتفنا قبل منتصفِ الليل بقليل . وبينما أنا أعتدلُ في السّرير أصبح أكين في وسط الغرفة . سحبْتُ خيط المصباح مرتين ، فشعّت لمباتِه الأربعة ،

غامرةً الغرفة بالضَّوء . في هذه الآونة كان زوجي قد رفع سماعة الهاتف ، وظهر عليه العبوس وهو يستمع للشخص الَّذي في الطَّرف الآخر من الخطِّ .

بعد أنْ أعادَ السَّماعة إلى حامل الهاتف ، جاء وجلس قربي على السَّرير : «إنَّه عليو ، رئيس عمليات المكتب الرَّئيس في لاغوس . اتصلَ ليعلمني أنَّنا يجب ألّا نفتحَ المصرف غدًا للزبائن .» تنهَّد ، «هناك انقلاب .»

«يا إلهي!» هتفتُ .

جلسْنا صامتَين فترة ، تساءلتُ إن كان قد قُتل أحدً ، وهل سيعمُّ العنف والفوضى خلال الأشهر التَّالية ، فأنا - على الرَّغم من أنَّني كنتُ بعمرٍ صغيرٍ لأتذكَّرَ الأحداث السَّابقة - عرفتُ أنَّ الانقلابات العسكرية سنة ١٩٦٦ دفعت البلاد في النِّهاية إلى حربٍ أهلية . هدّأتُ نفسي بالتَّفكير في التَّوتر الَّذي حدث بعد الانقلاب الأخير ، فالانقلاب الَّذي جعل الجنرال بوهاري رئيسًا للقوات العسكريَّة قبل عشرين شهرًا فقط ، خمد في غضون أيام ، لأنَّ البلاد آنذاك اتخذت قرارها بأنَّها سئمتْ من الحكومة المدنية الفاسدة الَّتي حلَّ محلها بوهاري وزملاؤه .

«لكن هل من المؤكَّدِ أنَّ مُدبِّري الانقلاب نجحوا؟»

«يبدو هذا ، يقول عليو إنَّهم اعتقلوا بوهاري .»

«عسى أنْ لا يقتلَ هؤلاء أحدًا .» سحبتُ خيط مصباح السَّرير الجانبيِّ مرَّةً لأطفئ ثلاثَ لمباتٍ .

«يا لهذه البلادا» تنهَّد أكين وهو يقف . «سأنزلُ إلى الأسفل ، وأتفقّدُ الأبواب ثانيةً .»

«ومَن المسؤولُ الآن إذًا؟» استلقيتُ على السَّرير مع أنَّه لم يبدُ لي أنَّني سأتمكن من العودة إلى النَّوم .

«لم يقل شيئًا عن ذلك، لا بدَّ من أن نعرف في الصَّباح.»

لم نعرف شيئًا في الصَّباح، في السَّادسة صباحًا بُثَّ إرسالٌ إذاعيٌّ من قبل ضابطٍ في الجيش أدانَ الحكومة السَّابقة، ولم يذكر شيئًا عن الحكومة الجديدة. غادرَ أكين إلى المكتب بعد الإرسالِ، حتَّى يصل إلى العمل قبل اندلاعِ الاحتجاجاتِ، أمَّا أنا فبقيتُ في البيتِ، متيقّنة من أنَّ مُصفّفاتِ الشعر المتدرباتِ لن يأتينَ إلى صالوني بعد سماعِ الأخبار في ذلك الصَّباح. أبقيت المذياع دائرًا، وحاولتُ الاتصال بكلٍّ من أعرف في «لاغوس» للتَّأكّد من أنَّهم بخير، إلّا أنَّني لم أنجح في الاتصال بأحدٍ بسببِ انقطاعِ خطوطِ الهاتف. لا ريبَ في أنَّني غفوتُ بعد الاستماع إلى أخبارِ الظَّهيرة، وعندما استيقظتُ رأيتُ أنَّ أكين قد عاد إلى البيت، وهو من أعلمني أنَّ إبراهيم بابانجيدا أصبحَ الحاكمَ العسكريَّ للبلاد.

الأمر الأكثر استثناءً بخصوصِ الأسابيعِ القليلة التَّالية كان طريقة إشارة بابانجيدا إلى نفسه، وإشارة الآخرينَ إليه، ليس باعتباره الحاكم العسكري بل رئيس البلاد، كأنَّ الانقلاب اعتُبرَ استفتاءً. إجمالًا بدا أنَّ الأوضاع استمرّت كالمعتاد، وكحالِ البلاد كلّها، عدتُ أنا وزوجي إلى روتيننا المعتاد.

في أغلب أيامِ العمل الأسبوعيِّ، تناولتُ أنا وأكين وجبة الفطور معًا، والّتي تتألّف عادة من بيضٍ مسلوقٍ، وخبزٍ محمصٍ، وكثيرٍ من القهوة. أحببنا قهوتنا بالطَّريقة نفسِها، بفنجانين حمراوين تماثل حمرتهما الأزهار الصَّغيرة على مفارشِ الصُّحون، بلا حليب، وبمكعبين من السّكر لكلِّ فنجان. وفي تلك الفترات ناقشنا خططنا لليوم مُسبقًا. قد نتحدّث عن ضرورة إحضارِ شخصٍ ليصلحَ تسريبَ السّقف في الحمام، وعن الرِّجال الّذين عيَّنهم بابانجيدا في مجلس

الوزراء الوطني ، أو عن رغبتنا في اغتيالِ كلبِ الجيران الَّذي لا يكفُّ عن النُّباح طوال الليل ، وهل الزُّبدة الجديدة الَّتي نجربها مدهنة كثيرًا . لم نأتِ قطّ على ذكر فنمي ؛ بل حتّى لم نُشرْ إلى اسمها بالخطأ . بعد وجبة الفطور ، نحمل الصُّحون إلى المطبخ ، ونتركها في الحوضِ لتُنظَّفَ لاحقًا ، ثم نغسلُ أيدينا ، نتبادل قبلة ونعودُ إلى غرفة الجلوس . هناكَ ، يلتقط أكين سترته ، يقذفها على كتفه ، ويغادر إلى العمل ، أمَّا أنا فأصعد إلى الطَّابق العلويِّ لأغتسلَ ثمَّ أذهب إلى صالوني ، وعلى هذا المنوال مضينًا ، الأيامُ تنزلق إلى أسابيعَ ، والأسابيعُ إلى شهر ، كما لو أنَّنا ما زلنا نحن الاثنين فقط مرتبطين بالزواج .

ثمَّ ذات يوم ، بعد أن غادر أكين إلى العمل ، عدت إلى الدَّور العلويِّ لأستحمَ ، واكتشفتُ أن قسمًا من السَّقف قد انهار . كانت الدُّنيا تمطرُ منذ الصَّباح ، ولا ريب في أنَّ ضغط ماء المطر المتجمِّع دفعَ أخيرًا معدن السِّيليكات الذي أصبح مشبعًا بالماء ، وخرق المربَّع الرَّاشح من منتصفه ، فاندفع الماء منه إلى حوض الاستحمام . حاولتُ العثور على طريقةٍ ما لأغتسل في ذلك الحوض ؛ لأنَّني ما استعملتُ قطُّ أيَّ حماماتٍ أخرى في البيت منذ أنْ تزوجت ، لكنَّ المطرَ لم يتوقَّف ، والأسبستوس المهترئ يقع فوق الحوض مباشرةً ، ولذا لم أستطعْ أن أجدَ بقعةً ملائمةً في أيِّ زاويةٍ منه من غير أن ينصبَّ عليَّ ماءُ المطر ، أو من غير أن أتلقَّى ضربةً من قطعِ الخشبِ وشظايا المعدن الَّتي راحتْ تتساقط في الحوض مع الماء .

بعد أنْ اتصلتُ بمكتبِ أكين ، وتركتُ له رسالةً عن السَّقف مع سكرتيرته ، اضطررتُ – ولأوَّل مرّة على الإطلاق – أن أستخدم حمام الضُّيوف في الأسفل عند الرَّدهة . وهناك ، في المساحة غير المألوفة ، فكَّرت في احتمال أنّ الأمر قد ينتهي بي إلى أخذ عدّة حمامات في

ذلك الدُّش الصَّغير الضَّيق ، إذا قرَّرت فنمي أن تبدأ في القدوم إلى هنا ، وأصرَّت على قضاء لياليها في غرفة النَّوم الرَّئيسة . شطفْتُ عن جسمي رغوة الصَّابون ، وعدتُ إلى غرفة النَّوم - غرفتي أنا - لأرتدي ثيابي من أجل العمل . عندما تفقدّتُ الحمام قبل نزولي ، رأيتُ أنَّ الأضرار قد ازدادت سوءًا ، والماء ما زالَ يتدفَّق إلى الحوضِ مباشرةً .

حينما فتحتُ مظلتي ، وأسرعتُ إلى السَّيارة ، أصبح انهمارُ المطر غزيرًا ؛ وبذلت الرِّيح العاتية جهدها لتصارعَ المظلَّة وتختطفها منِّي . حذائي غدا مشبَعًا بالماء لحظة دخلتُ السَّيارة ، فخلعته وانتعلتُ الخفَّ الَّذي أستعمله أثناء قيادة السَّيارة . عندما أدرتُ المفتاحَ لم يستجب المحرّك ؛ لا شيء سوى تكتكة لا طائل منها . حاولت مرارًا وتكرارًا من دون أيِّ حظّ .

لم يسبقْ لي قطُّ أنْ واجهتُ أيَّ مشكلة مع خنفسائي الزَّرقاء المخلصة منذ أن أهدانيها أكين بعد زواجنا . درجَ على أخذها للصيانة بانتظامٍ ، وتفحّصَ الزَّيت وأيِّ شيءٍ آخرَ أسبوعيًا . لم يتوقّف تساقط المطر ، ولم أجد أنْ ثمةَ جدوى في الذَّهاب إلى صالوني مشيًا ، على الرَّغم من أنَّه لا يبعد كثيرًا عن بيتنا . كانت الرِّيح في تلك الآونة قد انتزعَت عدّة أغصان من الأشجار في فناء بيت جارنا الأماميِّ ، وبالتأكيد لن تتوانى عن تحطيم مظلتي خلال دقائق إذا مشيتُ ، لذا ، جلست في السَّيارة أراقب المزيد من الأغصان تقاوم الرِّيح قبل أنْ تتكسر وتسقط أرضًا ، وهي بعدُ نضرة وخضراء .

في لحظاتٍ كتلك تقتحم فنمي أفكاري ، اللحظات الَّتي لا علاقة لها بروتيني . وفكرة أنَّني أنا أيضًا أصبحتُ واحدة من نساءٍ سيُعتبرن أكبر سنًا من أن يرافقن أزواجهنَّ إلى الحفلات سرعان ما ترفرف في ذهني ، لكن حتَّى في تلك اللحظات كنتُ أفلحُ في اصطياد هذه

الأفكارِ، وإبقائها محبوسة في زاوية رأسي، في مكان يمنعها من فرد أجنحتها والسّيطرة على حياتي.

في ذلك الصّباح أخرجتُ دفتر ملاحظاتٍ من حقيبتي وبدأت أكتب قائمةَ المستحضرات الجديدة الّتي احتاج إليها في صالوني، وضعتُ ميزانيةً لمخططي التّوسعي بافتتاح مزيدٍ من الصّالونات. لم أجد أيَّ مغزى في تركيز أفكاري على فنمي، وأكين أكّد لي أنّها لن تشكل لنا أزمة، وإلى الآن لم يحدث ما يثبت العكس. مع ذلك، لم أخبر أحدًا من الأصدقاء عن فنمي. كلّما حادثتُ صوفيا أو شيمدي عبر الهاتف، جرى الحوار عن عملي، عن أطفالهما وعن ترقيةِ أكين في العمل. كانت شيمدي أمًا عزباء، وصوفيا زوجةً ثالثةً. لم يبدُ لي أنّهما يمكن أن تعطياني نصيحة مفيدة بخصوص وضعي.

سقفٌ انهارَ، وسيارةٌ لا تتحرّك - لو أنَّ يومَ إيا مارتا بدأ هكذا، لعادت إلى غرفتها، وقضت يومها وراء أبوابٍ مقفلة، مغلقة النّوافذ أيضًا لأنَّ الكون يحاول إطلاعها على شيءٍ ما. كان الكون يحاول دائمًا أن يخبر تلك المرأة شيئًا. أنا لستُ إيا مارتا، وبالتّالي، ما كاد المطر يتحوّلُ إلى رذاذٍ، أدرتُ المفتاح في محرّك السّيارة مرّة أخيرة، ثم خرجْتُ منها بخفَيّ ويممتُ مقرّ عملي وحقيبتي ملقاةٌ على كتفي، المظلة بيدٍ، وحذائي المبلل باليد الأخرى.

*

لطالما عبق صالوني بدفءِ نساءٍ عديدات. نساء يسترخين على الكراسي الوثيرة، ويستسلمن لرحمة المشط الخشبي وتحكّمه برؤوسهن، ولقبّعاتِ مجففاتِ الشّعر، ليدَيّ وأيدي الفتيات اللاتي

أدربهن. نساءٌ يقرأنَ بصمت كتابًا، نساءٌ يخاطبنني بعبارةِ «أختي العزيزة»، نساءٌ يروين طرائفَ بأصواتٍ عاليةٍ تضحكني لأيام. كنتُ أحبّ ذلك المكان؛ الأمشاط، مجعّدات الشَّعر والمرايا المنتشرة على الجدران كلِّها.

بدأتُ أكسبُ المال من تصفيف الشَّعر خلال سنتي الأولى في جامعة «أيفي». ومثل معظم طالبات السَّنة التَّحضيرية، أقمت في قاعة «موزمبيق». وكلَّ مساء في الأسبوع الأوَّل من انتقالي إلى مسكن الطالبات، تنقلتُ من غرفة إلى غرفة، وأنا أخبرُ الفتيات بأنَّني أستطيعُ ضفر شعرهنَّ بنصف السِّعر الَّذي يدفعنَه لمصفّفات الشَّعر المؤهلَات. لم أمتلك آنذاك سوى مشطٍ خشبيٍّ صغير، وخلال إقامتي في الجامعة الشَّيءُ الوحيدُ الآخرُ الَّذي استثمرتُ المال فيه كان كرسيًا بلاستيكيًا لتجلس عليه زبوناتي، وذلك الكرسيُّ هو أوَّل ما حزمتُ من أغراضي عندما انتقلتُ إلى قاعة «موريمي» في سنتي الثَّانية. لم أكسب مالًا وافرًا لأشتري مجفّف شعر، لكن في سنتي الثَّالثة بدأتُ أكسبُ مالًا كافيًا لدعمي. وكلما قرّرت إيا مارتا حجب مخصصي الشَّهري الَّذي يرسله أبي عن طريقها، لم أتضور جوعًا.

انتقلتُ إلى «إليسا» بعد الزِّفاف، ومع أنَّني داومت على قيادة السَّيارة إلى «أيفي» لأحضر الدُّروس أسبوعيًا، بدا استمراري في تصفيف الشَّعر كالسَّابق مستحيلًا. لفترةٍ، ما عدتُ أكسب أيَّ مال، أنا طبعًا لم أكن بحاجة إلى المال، إذ بمعزلٍ عن مصاريف التَّدبير المنزلي، درج أكين على تخصيصِ مبلغ كريمٍ لي، إلَّا أنَّني افتقدتُ تصفيفَ الشَّعر، ولم تسعدني فكرةُ أنَّ فيَّ حال امتناع أكين عن إعطائي المال لسببٍ ما، لن أكون قادرة ولا حتَّى على تحمُّل ثمن علبة لبان.

المرأة الوحيدة الّتي ضفرتُ لها شعرها خلال الشُّهور الأولى القليلة من زواجي هي أرينولا شقيقة أكين، وغالبًا ما عرضتْ أن تدفع لي أجري، لكنَّني رفضتُ مالها. لم تكنْ التَّسريحات المعقَّدة تستهويها، وطلبت منِّي دائمًا أن أضفرَ شعرها بطريقة الـ«السوكو» الكلاسيكيَّة، وقد أسأمني بعد فترةٍ ضَفر خصلاتها بخطوط مستقيمة تنتهي عند منتصفِ رأسها، فأقنعتُها أنْ تسمحَ لي بصرفِ عشرِ ساعاتٍ وأنا أجدل شعرها إلى ألف ضفيرة في منتهى الصِّغر. وخلال أسبوع، راحت زميلات أرينولا في كلية التَّربية يتوسّلنَ إليها لتدلّهن على مصفّفة شعرها.

في أوّل الأمر تولّيتُ تهافت النساء تحت شجرة لوز في فناء بيتنا الخلفي، ثمَّ سرعان ما عثرَ لي أكين على مكان قال إنَّه سيكون مثاليًا. تردّدت في موضوعِ افتتاحِ صالونٍ فعليٍّ للشعر؛ لأنَّني أيقنتُ أنَّني لن أستطيع أن أعملَ فيه إلَّا أثناء عطلِ نهاية الأسبوع إلى أنْ أحصل على شهادتي. أقنعني أكين بإلقاء نظرة على المكان الَّذي عثرَ عليه، وحالما دخلتُ تلك الغرفة، رأيت أنَّها مثاليَّة حقًا. حاولتُ التَّكتم على حماستي بإخباره أنَّه ليس من المنطقي تبذيرُ المال على مكان سيُغلق خمسةَ أيّام في الأسبوع، إلَّا أنّه استشفَّ ما في سريرتي، وبعد ساعاتٍ قليلةٍ تصافحْنا مع المالك في غرفة جلوسِهِ، بعدما فاوضناه على الإيجار.

كنتُ ما زلتُ أشغلُ تلك المساحة من الصَّالون عندما تزوَّج فنمي، وفي ذلك الصَّباح مع أنَّني وصلتُ إليه متأخّرة عن المعتاد بسبب المطر ومشكلة سيارتي، تبيَّن لي أنَّني أوّل الواصلات. عندما فتحت الأبواب لم ألمح ولا واحدة من المتدرّبات، مع أنَّهنَّ يأتين قبلي عادة ليفتحن المحل استعدادًا لليوم. وعندما أضأتُ المصابيح عاد انهمارُ

المطر إلى الازدياد حتّى بدا وقعه على السّطح كما لو أنَّ مئات الحوافر تخبطه ، وهذا عنى ، أنّه قبل أن يخفَّ المطر مجدّدًا ، تبقى فرصة الفتيات ضئيلة في اجتياز الطريق عبر المدينة والقدوم إلى الصالون .

شغّلتُ المذياع الّذي أعطانيه أبي عندما ارتدتُ الجامعة . ومع أنّه تكسّر من عدّة أماكن ، أصلحتُه بالشّريط اللاصق . عبثتُ بمفتاح القنوات إلى أنْ عثرتُ على محطةٍ تبثُّ موسيقى لم أميّزها ، ثم بدأتُ أُحضِّر الشّامبو والمراهم وهلام التّصفيف ومكاوي التّجعيد ، وأوعية مستحضرات التّمليس وقوارير رذاذ الشعر .

لم أعبأ بتفحُّص نفسي في المرآة لأعرف هل أفسدَ المطر جدائلي على الرّغم من المظلّة ، ولو نظرتُ فيها لاضطررتُ إلى التّدقيق في قسماتِ وجهي : في عيني الصغيرتين ، وأنفي الكبير ، والأشياء الّتي يمكن ألّا تكونَ متناسقةً كشفتي أو كتراجعِ ذقني . كلُّ تلك الأشياء المختلفة الّتي قد تجعل أيَّ رجل - وأكين علىٰ وجه الخصوص - يجدُ فنمي أكثر جاذبية . لم يكن لديَّ وقتٌ لأنغمس في رثاء الذّات ، فانكفأتُ على العمل لأنَّ تولّي أمرِ الأدوات ركّز أفكاري على الشّعر .

بعد توقّف المطر ، تقاطرت الفتيات واحدةً تلوَ أخرى ، آخرهن وصلت قبل دخول الزّبونة الأولى تمامًا . حملتُ مشطًا خشبيًا وفرقتُ شعرَ المرأة من منتصف رأسها ، غمستُ إصبعين بالمرهم اللزج وبدأتُ يومي . كان شعرها غزيرًا وسميكًا ، وخصلاته تماوجت بنعومةٍ بينما رحت أجدلُها بصفوفٍ صغيرةٍ جدًا تجمّعت عند نقرتها . عندما انتهيتُ منها ، وجدت أربع سيِّدات ينتظرنَ دورهنَ . انتقلتُ من رأسٍ إلى رأسٍ ، أفرق الشّعر ، أجدل الخصلات بأشكالٍ مختلفة ، أقصُّ الأطرافَ ، وأوزع النّصائح على الفتيات المتدرّبات . كان ذلك نعمة .

انزلق الوقت ، وما لبث أن حلَّ الظُّهر ، وعندما أخذت استراحة الغداء

كان رسغاي يؤلماني . جميع الزّبونات تقريبًا أردنَ جدلَ شعرهنَّ وضفره في ذلك الصَّباح ، وبضعُ نسوة غيرهنَّ يرغبنَ في غسل شعرهنَّ مع تصفيفٍ بسيط ، كنّ في طريقهن إلينا .

في ذلك العصر اخترتُ وجبةَ أرزٍ مطبوخة بأوراق الـ «إيرن» ومضافٌ إليها يخنة مطهوة بزيت النخيل . أعرفُ امرأة في ذلك الشَّارع تعدّها بطريقةٍ جيِّدة جدًا إلى درجةِ أنَّني بعد الاستمتاع بالسَّمك المدخَّن ، وجلد البقر في اليخنة ، اضطرُّ دائمًا إلى كبح تشوُّقي الملّح لألعق الأوراق . كان ذلك النَّوع من الطَّعامِ الّذي يستدعي منِّي لحظة هدوءٍ بعد أن يفرغ الصَّحن ، ويستحثّ فيّ حالةً من الرِّضا الّذي يجعلني أحدِّق في الفراغ بينما الصَّالون من حولي يئزُّ . في الخارج ، كانت السَّماء ما زالت مكفهرة ومتوعّدة ، مع أنَّ المطر انقطع أخيرًا . لكنْ الهواء البارد ما فتِئَ ينجرفُ إلى الداخل بتياراتٍ متناوبةٍ ، ويصارعُ مجففاتِ الشَّعر ليتلاعبَ بحرارةِ الصَّالون .

حسبتُها إحدى الزَّبونات عندما دخلَت . وقفَتْ في المدخل لحظةً ، والسَّماء القاتمة منتشرة وراءَها مثل طالعٍ سيِّئ . نظرَتْ من حولها بوجهٍ عابسٍ إلى أنْ لمحتْني ، ابتسمَت عندئذٍ ، وأقبلت لتجثمَ إلى جانبي . كانتْ جميلة جدًا ، لديها ذلك الوجه الّذي يتمِّم أيَّ تصفيفةِ شعرٍ ، وجهٌ يجعل النِّساء الأخريات يلاحقنها بأعينهن ، وهي تمرُّ في السُّوق واللهفة تجتاحهنَّ ، وجهٌ يحرِّض النِّساء للاستفسار منها عمَّن تصفّف لها شعرها .

«صباح الخير ، يا أُمّنا ،» قالت فنمي .

كلماتها وخزتني ، أنا لستُ أمَّها ، أنا لستُ أُمَّ أيِّ أحد ، ما زال النَّاس ينادونني يجيده ، أنا لست «إيا» هذا و«إيا» ذاك ، ما زلتُ يجيده فقط . عقدَت الفكرة لساني واستحثتني لأسحبَ لسانها من فمها .

قبل سنوات، لا شيء كان سيمنعني من لكمها وخلع أسنانها. عُرِفتُ وأنا طالبة في مدرسة «أيفي» الثَّانوية، بلقب «الإرهابيَّة يجيده»، إذ ما فتئتُ أنخرطُ في عراكٍ ما، ما بين يوم وآخر. في تلكَ الأيَّام، درجنا على انتظارِ انتهاءِ الدَّوام المدرسي قبلَ أن نبدأ العراكَ. نغادر المنطقة المجاورة لمجمَّع المدرسة، ونعثر على دربٍ لا يطرقه المعلِّمون في طريقهم إلى بيوتهم. وربحتُ دائمًا، ولا مرَّة، ولا مرَّة واحدة خسرتُ. فقدتُ عدة أزرار، كسرتُ سنًا، نزفَ أنفي بضع مرات، لكن ما خسرتُ قطُّ، وما دخلتْ حبة رمل واحدة في فمي مطلقًا.

كلَّما وصلتُ إلى البيت متأخِّرةً ومدمَّاة بعد عراكٍ جديدٍ، توبِّخني زوجات أبي بأصواتٍ عالية، وتتوعَّدن بمعاقبتي على سلوكي المعيب. في الليل تهمسن، والدُّثر البالية ملفوفة حول أثدائهن المنكمشة، بالتَّعليمات لأطفالهنَّ كي لا يصبحوا مثلي، فأطفالهنَّ في نهاية المطاف لديهم أمَّهات، أمَّهاتٌ على قيد الحياة بآباط مشعرانية، يشتمنَ ويطبخنَ، وعندهنَّ أشغال يتولَّين إدارتها. فقط الأطفال الَّذين بلا أُمّ، مثلي، يمكن أن يسيئوا التَّصرف هكذا. ولم يقتصر الأمر على أنَّني كنتُ بلا أمّ، لكن الأمَّ الَّتي حصلتُ عليها في يوم ما، الأمّ الَّتي ماتت بعد ثوانٍ من دفعي خارج رحمها إلى الدُّنيا، كانت امرأة بلا نسب! ومَن يُخصِبُ امرأةً بلا نسب؟ لا أحد سوى رجلٍ غبيٍّ يصدقُ أنَّه... حسنًا، أنَّه زوجها، إلَّا أنَّ هذا ليس لبَّ الموضوع؛ لبُّ الموضوع هو أنَّه ما دام المولود بلا نسبٍ مميز، يمكن أن يكون سليلَ أيِّ شيء، بما في ذلك الكلاب والسَّاحرات، أو قبائل دخيلة فاسدة الدِّماء. أطفالُ الزَّوجة الثَّالثة كانوا بلا شكٍّ من ذوي الدَّم الفاسد بما أنَّ الجنون ظهر كثيرًا في عائلتها، لكنَّ ذاك على الأقلّ عُرف أنَّه دمٌ فاسدٌ، أمَّا دمي الفاسد (المحتمل) فمجهول الأصل وهذا أسوأ، كما ثبت من طريقة

جلبي الخزي لأبي بتعاركي مع الآخرين ككلاب الشّوارع .
محادثات الغرف المهموسة الّتي خصّت بها الزّوجات أطفالهنّ كانت في النّهاية تصلني بالتّفصيل عن طريق إخوتي غير الأشقاء . الكلماتُ لم تزعجني ؛ أدركتُ أنّها لعبة تلعبها الزّوجات ، في محاولة منهنّ ليثبتن أيّ امرأة منهن أنجبت سهمًا متفوقًا من الأطفال ، ما أزعجني التّهديداتُ الّتي لم تُنفَّذ حتّى عندما أصبحَت معاركي حدثًا يوميًا ، ما أزعجني السّياط الّتي لم تلمسني قطّ ، الأعمال الرّتيبة الإضافيّة التي لم توكل لي ، وجبات العشاء الّتي لم تُمنع عنّي ، كلُّ ذلك ذكّرني دائمًا أنّ ولا واحدة منهنّ تكترث لأمري حقًّا .
«أمّنا؟» قالت فنمي ، وهي ما زالت جاثيةً على ركبتيها .
ابتلعتُ ذكرياتي مثلَ حبّة دواءٍ مُرّة وكبيرةِ الحجم . كانت فنمي قد وضعَت يديها على حجري ، طلاء أظفارها مثالي ، الطّلاء بحمرة نبات الخطمي ، بلون الفنجانين المتماثلين اللذين شربتُ بهما أنا وأكين القهوة في ذلك الصباح .
«أمّنا؟»

ما عدتُ أبدًا أضع طلاء الأظفار ، درجتُ على ذلك في أيام الجامعة ، أهي الأظفار ما جعلتها جذّابة في عينيه؟ بماذا شعر وهي تحكُّ صدرَه بتلك الأظفار الجميلة؟ هل نفرت حلمتاه؟ هل أنّ؟ رغبتُ . . . لا . . . بل احتجتُ إلى أن أعرف فورًا ، وبالتّفصيل : ماذا أخذَت منه؟ ما كان لي دائمًا ما الّذي ستمتلكه ، ولم أمتلكه قطّ؟ طفله؟
«أمّنا؟»
«مَن تدعين أُمّك؟ يُستحسن أن تنهضي الآن ،» قلتُ .
على الرّغم من وجودِ كرسيٍّ شاغرٍ إلى جانبي ، اختارت أن تجلس على ذراع كرسيي .

«ما أتى بكِ إلى هنا؟ من دلّكِ على هذا المكان؟» همستُ لأنَّ الثَّرثرة في الخلف بين الزّبونات والعاملات توقّفت، وإحداهنَّ أطفأت المذياع، والسُّكون عمَّ الصَّالون.

«فكّرتُ فقط أنَّني يجب أن آتي وأحييكِ.»

«في هذا الوقت من اليوم؟ هل أنتِ عاطلة عن العمل؟» قصدتُ بسؤالي الإهانة، بيد أنّها اعتبرته سؤالاً.

«لا . . . أنا لا أعمل؛ لأنَّ زوجنا يعتني بي جيدًا.» علا صوتها وهي تقول «زوجنا»، ومن الواضح أنَّ جميع من في الصَّالون سمعها. صرَّت الكراسي بينما تململَت الزّبونات، ورجعن بظهورهنَّ إلى الوراء قدر ما أمكنهن، في محاولة منهنَّ للتنصّت على الحوار.

«ماذا؟»

«زوجنا رجلٌ حنونٌ جدًا، وهو يعتني بي جيّدًا، نحمد الرَّب لأنَّه يملك مالًا يكفينا كلّنا.» ابتسمَت من فوق رأسي.

شذرتُ انعكاسَ صورتِها في المرآة المواجهة لنا. «مالٌ كافٍ لأيِّ شيء؟»

«لنا، يا أمَّنا. أليس لهذا يعمل الرَّجل؟ لزوجاته وأطفاله.»

«بعضنا عنده أشغال،» قلت مبقيةً بحزم قبضتَيّ المكورتين إلى جانبيّ. «عليكِ أن تغادري حتَّى أتابعَ عملي.»

ابتسمَت للمرآة. «سأزوركِ بعد ظهر الغد يا سيدتي، لعلّك حينها تكونين أقلَّ انشغالًا.»

هل توقّعَت منِّي أن أبادلها الابتسام؟ «فنمي، لا تريني ساقي المكنسة هاتين في هذا المكان ثانيةً مطلقًا.»

«لا ضرورة لكلِّ هذا يا أُمَّنا؛ يجب أن نصبحَ صديقتين، من أجل الأطفال الَّذين سننجبهم على الأقل.» عادت وجثمَت. «أعرفُ أنَّ

النَّاس يقولون إنِّك عاقر ، لكنْ لا شيء هناك لا يستطيع الرَّب صنعه ، أعرف أنَّني بمجرد أن أحمل ، سينفتح رحمكِ أنتِ كذلك . إذا قلتِ إنِّي يجبُ ألّا آتي إلى هنا ، لن آتي ، لكنِّي أودّ أن تعلَمي أنَّ هذه المرارة التي لديك ربّما هي إحدى الأمور الّتي تسبّب لكِ العقم . . .أوه ، وداعًا يا سيدتي .»

كانت تبتسم عندما وقفَت واستدارت لتغادر .

نهضتُ وقبضتُ على ثوبها من الخلف : «أنتِ! يا هذه التَّعيسة . . . أنتِ يا هذه الـ \إغبري الشِّريرة ، من الّتي تنعتينها بالعقم؟»

لم أكنْ مستعدةً للمجابهة ، حتّى إهانتي لها ليست في محلِّها . لم تبدُ فنمي مثل الجنية الأسطورية «إغبري» ، لم تكن قصيرة ، لم تحملْ حصيرة أو تبكي بلا انقطاع . في الحقيقة ، عندما التفتَت لتواجهني ، التفتَت مبتسمةً . طوقتني الزّبونات والعاملات قبل أن تهبط صفعتي الأولى على خدِّها .

«اتركيها وشأنها ،» قالت النِّساء . «اتركيها تذهب .» خلّصنَ ثوب فنمي من يدي ، ودفعنني إلى أنْ عدتُ إلى مقعدي . «يا أختنا العزيزة ، هدِّئي من روعك رجاءً ، خذي الأمور برويَّة .»

5

اشتريتُ فناجينَ جديدة .

«أتعرفينَ لماذا لا أحبُّ الفناجين البيضاء؟» قال أكين ونحن نتناول الفطور .

«نوِّرني رجاءًا» أجبتُ .

«يمكنكِ دائمًا أن تري بقع القهوة بوضوح .»

«حقًّا؟»

جذب ربطة عنقه وقطَّب جبينه . «تبدين غاضبة ، أهناكَ خطبٌ ما؟»

دهنْتُ شريحةَ الخبز بمزيدٍ من الزُّبدة ، حرَّكت قهوتي ، وأحكمت إطباق فكّي ، هيأتُ نفسي لأبقي فمي مغلقًا بخصوص سبب انزعاجي ، إلى أن يسألني أكين عن السَّبب خمس مرَّات على الأقلّ ، إلّا أنَّه لم يعطني فرصة ، ولا حتَّى لأعبس .

«لا أحبُّ هذه الفناجين البيضاء .» رفعَ إصبعًا وتمهَّل ليشربَ بعض الماء . «أين الفناجين القديمة؟»

«كسرْتُها .»

شكَّل فمه كلمة «أوه» لم تُنطَق ، وتناول قضمةً أخرى من الخبز المحمَّص . فهمتُ أنَّه افترض أنَّني أوقعتُ الفناجين بالخطأ ، وأنا أهمُّ بوضعها جانبًا . لم يكن هناك سببٌ بالنِّسبة إليه ليخطر له أنَّني قد قذفتُ كلَّ فنجان بحمرةِ نباتِ الخطمي نحو حائط المطبخ ، وساعة

صوت الوقواق في غرفة الجلوس تدقُّ معلنةً منتصف الليل . لا شيء أبدًا يستدعي منه تخيّل أنّني كنستُ الشّظايا وجمعتُها في المجرفة ، ثمّ وضعتُها في هاونٍ صغير وطحنتُها إلى أن تصبَّب العرقُ من مسامي كلّها ، وأنا أتساءلُ أتراني قد جننتُ؟

«جاء مدققو الحسابات الدّاخليين من مقرِ الشّركة الرّئيس إلى المكتب أمس ، كما ترين ، وقد شُغلنا بهم ، لذا نسيتُ إرسالَ شخصٍ لمعاينة السّقف ، اليوم ســ . . .»

«جاءت زوجتكَ إلى صالوني أمس .»

«فنمي؟»

«مَن غيرها؟» قلْتُ وأنا أميل نحوه . «أم لديكَ زوجة أخرى لا علم لي بها؟» هذه فكرة راودتني ولم أستطع زحزحتها من رأسي منذ أن غادرت فنمي صالوني في اليومِ السّابق ، احتمالُ وجود زوجات أخريات في «إليسا» ، أو في أيِّ مدينة أخرى ، نساءٌ أخريات يمكن أن يحبَّهن ، نساءٌ أخريات يقلّلن نصيبي منه .

حجبَ أكين نصفَ وجهه بيد . «يجيده ، بيّنتُ لكِ اتفاقي مع فنمي ، يجب ألّا تسمحي لها بمضايقتكِ .»

«زعَمَتْ أنك تعتني بها جيّدًا .» لم تحمل كلماتي الحدّة التي أردتُ تضمينها فيها ، لأنّني لم أجد أيَّ أثر للغضب والازدراء اللذين سلّطتهما على فنمي في اليوم السّابق . أردتُ أن أسلّط عليه غضبي ، ولذا واصلتُ الكلام محاولة بكلماتي أن أتجاوز ما أشعر به حقًا إلى السّخط الّذي يُفترض أنّني أشعر به . «ما معنى ذلك؟ فسِّر لي ما معنى أنّك تعتني بها جيّدًا .»

«حبيبتي . . .»

«توقّف ، توقّف عندك ، لا تداهنّي بالدلال ثانية هذا الصّباح .»

لكنّني أردتُ أن يدعوني حبيبتي مرّة أخرى، أنا فقط، ولا أحد غيري، أردتُ أن يمدّ يده عبر الطّاولة، يمسك يدي ويخبرني أنّنا على ما يرام، وأنا حينذاك لم أكن قد كففتُ بعد عن الاعتقاد بأنّه يعرف ما عليه فعله، وما عليه قوله، لمجرد أنّه أكين.

«يجيده...»

«أين كنتَ ليلة أمس؟ انتظرتُ عودتكَ إلى ما بعد منتصف الليل بوقت طويل. أين ذهبْتَ؟»

«إلى نادي الرِّياضة.»

«آها؟ نادي الرِّياضة؟ لا ريبَ في أنَّكَ تظنّني حمقاء، متى يغلق نادي الرِّياضة أبوابه؟ أخبرني، متى؟»

تنهَّد ورنا إلى ساعته. «أتريدين الشُّروع في مراقبتي؟»

«قلتَ لي لن يحدث شيء بينكَ وبين تلك البنت.»

انتزعَ سترته ووقف. «ينبغي أن أذهب إلى العمل.»

«أتخدعني؟» لحقته إلى الباب، وأنا أحاول تصيّدَ الكلمات لأعلِمه أنّني لم أبغِ حقًّا التّشاجر معه، لأطلعه على فزعي من أن يتركني، وبالتّالي أعود من جديد وحيدة في الدُّنيا. «أكين، سيُضللكَ الرّب، صدِّقني، سيضللكَ الرّب كما تضللني.»

أغلقَ الباب، ووقفتُ أراقبه من خلال الألواحِ الزُّجاجيَّة. لم يكن هناك شيء صائبٌ في تصرّفاته: بدلًا من أن يحمل حقيبته بيده، تأبّطها بذراعه اليسرى، فمال معها جسمُه قليلًا، وبدا كما لو أنّه يكاد يتهاوى. لم يقذف سترته على كتفه، بل حملها بيده اليمنى وطرف أحد كمّيها يلامس الأرض، وينزلق على درج الشُّرفة وخلال العشب، بينما مضى إلى البيجو السّوداء.

استدرتُ بعيدًا حينما رجع بالسّيارة إلى الوراء. فنجان قهوته

لم يُمسّ، لم ينقص ولا قطرة واحدة. جلستُ على كرسيه، أكلتُ شريحتِي من الخبز وشريحته، وشربتُ قهوته، ثم رتّبتُ طاولة الطّعام، وأخذتُ الصّحون المتسخة إلى المطبخ. غسلتُ كلّ شيءٍ وتأكّدتُ جيدًا من عدم وجودِ لطخةِ قهوةٍ متبقيةٍ في الفنجانين.

لم أجد رغبة في نفسي للذهاب إلى العمل، إذ لم أشعر بأنّني مستعدة لمجابهةٍ أخرى مع فنمي. بدا لي أنّها لن تتوقّف عن الظّهور في الصّالون لمجرد أنّني طلبتُ منها ألّا تفعل. لم يغبْ عنّي أنَّ النِّساء اللاتي مثل فنمي - نساء اخترن أن يكنّ ثاني أو ثالث أو سابع زوجة - لا يتراجعنَ بسهولةٍ أبدًا. راقبتهنّ يصلنَ إلى بيت أبي ثم ينطلقنَ فيه، كلُّ أولئك الأمّهات المختلفات اللاتي لسن أمّهاتي، جئن دائمًا باستراتيجية يخفينها تحت دُثرهن، لم يكنَّ قطُّ غبيات أو قنوعات كما ظهرن في البداية، ودائمًا، إيا مارتا - وإيا مارتا فقط - هي الّتي تؤخذ على حين غرّة، يعتريها الذُّهول، وتبقى بلا استراتيجية تخصُّها أو خطّة ما.

سرعان ما أصبح من الواضح لي مدى حمقي لأصدِّق للحظةٍ واحدةٍ أنَّ أكين يسيطر على فنمي، لذلك قرّرتُ أن آخذ يوم إجازة لأمعن التّفكير في الأمور. توقّفتُ عند الصّالون لدقائقَ كي أعطي تعليماتي لديبي، أكبر فتاة من المتدرّبات، ثمَّ أخذت سيارة أجرة إلى «أودو إيرو» لأحضِرَ سيلاس، الميكانيكي الّذي يصلح خنفسائي عادة.

دهش سيلاس لرؤيتي أقصد محلّه وحدي، وسألني عن أكين. طوال طريق العودة إلى البيت استمرّ يخبرني بطرق مختلفة أنّه يفضل مناقشة التّصليحات مع أكين قبل أن يقوم بعملِ أيِّ شيء.

طبختُ بينما شُغل سيلاس بتصليح الخنفساء، وعرضتُ عليه

الغداء بعدما انتهى. غسل يديه في الخارج وتناول حساء البطاطا بسرعة. راقبتُه وهو يأكل، دردشتُ معه بينما راح يحدِّق بي وينخر أحيانًا، إنَّما في الغالب اكتفى بالتَّحديق وفي عينيه نظرة تساؤل كما لو أنَّه لا يدري ما يمكن أن يقوله جوابًا عن ثرثرتي اللانهائيَّة. عندما وقف ليغادر، عددتُ المبلغ الَّذي طلبه وناولته الأوراق النقديَّة، ثمَّ تبعته إلى سيارته وأنا أواصل الثَّرثرة إلى أن غادر.

جلستُ في الشُّرفة، وصحتُ مُحيِّيةً الجيران الَّذين مرُّوا أمامي، إلى أن جاءتْ ديبي لتعطيني المبلغ الَّذي جناه الصَّالون. دعوتُها إلى الدَّاخل، وعرضتُ عليها تناولَ بعض الطَّعام، لكنَّها رفضَتْ، وقالت إنَّها ليست جائعة. لذا أصررتُ على أن تشرب قنينة «مالتينا». بعد أن غادرت إلى بيتها، ما عاد لديَّ شيءٌ أفعله؛ السَّيارة أُصْلِحَتْ، الصُّحون غُسلت، والعشاء جاهز، مع أنَّني تأكَّدت في ذلك الوقت من أنَّ أكين لن يعود إلى البيت قبل منتصف الليل. وهكذا، ما عادَ في وسعي تأجيل التَّفكير في فنمي أكثر مما فعلتُ.

فكَّرتُ في عدةِ احتمالاتٍ، مِن ضربها إلى أن تصبح عجينة عندما تظهر مرّة ثانية في الصَّالون، إلى دعوتِها للانتقال لتقيمَ معنا حتَّى تكون قريبة بما يكفي لأبقي عيني عليها طوال الوقت. لم أستغرق مدة طويلة لأدرك أن لا علاقة كبيرة لها بالحلِّ الجوهري. أنا ببساطة لا بدّ من أن أحبل، بأسرع ما يمكن، وقبل أن تحبل فنمي. تلك كانت الطَّريقة الوحيدة الَّتي أضمن بها بقائي في حياة أكين.

 *

اعتقدتُ دومًا أنَّني كنَّة مومي المفضّلة. وأنا طفلةٌ كان متوقّعًا منّي

أن أدعو زوجات أبي مومي ، بل حتّى أبي شجّعني لأفعل ذلك ، بيد أنّني رفضتُ ، تمسّكتُ بدعوتهن أمّ هذا أو أمّ تلك فقط . وحينما لا يكون أبي حاضرًا ، تصفعني بعض نسائه لمجرّد رفضي تشريفهنّ بلقب أُمِّي . أنا لم أرفض بسبب العناد أو لمحاولة تحدّيهن كما استنتجَ عددٌ منهن . كانت أمّي قد أصبحت هوسي ، عقيدتي ، وفكرة الإشارة إلى أيِّ امرأة أخرى بلقبِ أمِّي أو مومي ، بدت تدنيسًا لها ، بدت خيانة للمرأة الّتي ضحّت بحياتها من أجلي لأعيش .

في إحدى السّنوات ، احتفلت الكنيسة الأنغليكانية الّتي تقصدها عائلتي بأحَد الأمومة مع قدّاسٍ خاصٍ . بعد أن ألقى القسُّ موعظته ، استدعى الحاضرين الّذين تحت سن الثّامنة عشر ليأتوا إلى مقدمة الكنيسة ؛ لأنّه أراد منّا أن نشرّف أمهاتنا بأغنية . لا بدَّ من أنّني كنتُ آنذاك في الثّانية عشرة من العمر ، إلّا أنّني لم أنهض إلّا بعد أن وكزني حاجب في ظهري . أنشدنا أغنية يعرفها الجميع ، أغنية مسهبة مُقتبسة من حكمة شائعة ، أفلحتُ في ترتيل السّطر الأوّل «الأمُّ ذهب ، الأمُّ كنزٌ من الذّهب لا يشتريه المال» قبل أن أعضَّ لساني لأخنق دموعي . تلك الكلمات تردّد صداها في داخلي أكثر من أي موعظة دينيّة سمعتُها في حياتي ، آنئذٍ أيقنتُ أنَّ أمِّي لا يمكن تعويضها بالمال ، ولا بزوجة أبٍ أو أيِّ أحدٍ آخر ، وكنتُ واثقة من أنّني لن أدعو أيَّ امرأة أخرى «مومي» .

على الرّغم من ذلك ، كلّما طوّقتني أمّ أكين واحتضنتني بجسمها البدين ، غنّى قلبي مومي ، وعندما دعوتُها بذلك اللقب المبجل ، لم يتشبّث بحنجرتي رافضًا الانطلاق ، كما جرت العادة كلّما حاولت زوجات أبي صفعي لتسمعنها منِّي ، وهي بدورها ارتقت إلى مستوى اللقب ، تساندني في حال بلغتها أي قضية بيني وبين أكين ، مؤكّدة

لي أنَّها ليست إلَّا مسألةَ وقتٍ قبلَ أنْ أُنجبَ طفلًا لابنها ، مصرَّة بأنَّ معجزتي ستكون بانتظاري حالما أستدير تُجاه الزَّاوية الصَّحيحة .

عندما أخبرتني إحدى زبوناتي الحوامل -السَّيِّدة عديلو- عن جبل الانتصار المذهل الَّذي يُفغر الأفواه ، ذهبتُ إلى مومي في اليوم نفسه ؛ لأناقش الموضوع معها . احتجتُ إليها لتثبتَ لي صحة المعلومات ؛ كانت صندوق كنزٍ من المعرفة بخصوص هذه الأمور . وحتَّى إذا فاتها أن تعرف شيئًا عن مكان تتحقّق فيه المعجزات ، كانت عادة تعرف مَن عليها أن تسأل ، وحالما تتحرّى صحةَ الأقاويل ، تبدي استعدادها دائمًا لترافقني إلى آخر نقطة في الأرض ؛ كي ننشد حلًّا جديدًا .

مرَّ عليّ وقتٌ سابقٌ كنت خلاله سأتجاهل كلمات السَّيِّدة عديلو . وقتٌ نبذتُ فيه فكرة الإيمان بوجود أنبياءٍ يسكنون الجبال ، أو كهنةٍ يتعبّدون قرب الأنهار . ذاك كان قبل أن أقوم بعدةِ فحوصاتٍ في المستشفى ، وكلُّ فحصٍ منها أكَّدَ أنْ لا عارض هناك يمنعني من الحمل . تمنيْتُ في مرحلةٍ ما أن يجد الأطباء علّةً ما في جسدي ، أيّ شيءٍ يفسر لماذا ما زالت عادتي الشَّهرية تأتي بانتظام على مدى سنوات بعد زواجي . تمنَّيت أن يعثروا على ما يمكن أنْ يعالجوه أو يستأصلوه . لم يعثروا على شيء من هذا . أكين أيضًا أجرى فحوصاتٍ ، وعاد ليقولَ إنَّ الأطباء لم يجدوا أيَّ علَّةٍ فيه تحول دون الإنجاب . حينها كففتُ عن استبعاد اقتراحات حماتي ، توقّفتُ عن التَّفكير بأنَّ إناثًا مثلها غير متحضّراتٍ ومجنوناتٍ إلى حدٍّ ما . انفتحْتُ على البدائل ، إذ ما دمتُ لا أحصل على ما أريد في أحدِ الأمكنة ، ما الخطأ في أنْ أبحث في مكان آخر؟

عاش أهل زوجي في «أيسو» ، قطاعٌ قديمٌ من المدينة ما زال يحتوي على بضعة بيوت من الطِّين . كان بيتهم بناءً من القرميد ، يضمُّ فناءً

أماميًا يطوقه جزئيًا سورٌ واطئٌ من الأسمنت . عندما وصلت إلى الدّار ، رأيتُ مومي جالسةً على مقعدٍ صغيرٍ في الفناء الأماميِّ تقشّر الفول السّوداني ، وتضعه في صينيةٍ صدئةٍ مستقرَّةٍ على حجرها . رفعَتْ رأسها ، وأنا أتقدَّم منها ، ثمَّ عادت ، وأرخت بصرها . ازدردتُ ريقي وتباطأتْ خطواتي ، أدركتُ أن هناك شيئًا غير صائب .

رحَّبَت بي مومي دائمًا بصياحها : يجيده يا زوجتنا . كلماتها حارَّة كالعناق الّذي يتبعها عادة .

«مساء الخير مومي ،» قلت ، وركبتاي تصطكان وهما تلامسان الأرضيّة الخراسانيّة .

«أنتِ حبلى الآن؟» سألتني من غير أن ترفع عينيها عن صينية الفول السّودانيِّ .

حككتُ رأسي .

«أأنتِ عاقر وصمّاء أيضًا؟ قلتُ هل أنتِ حبلى؟ الجواب إمّا نعم أنا حبلى ، أو لا ، أنا لم أحبل ولا في أيِّ يومٍ من حياتي .»

«لا أدري .» نهضتُ وتراجعتُ القهقرى إلى أنْ أصبحتْ مومي بعيدةً عن قبضتِي المكورة .

«لماذا لا تسمحين لابني أن ينعمَ بالأطفال؟» خبطَت صينية الفول السّوداني على الأرض ، ووقفَت .

«أنا لا أصنع الأطفال ، الرَّبُّ يفعل .»

تقدّمَت نحوي ، وتكلّمت عندما أصبحت أصابع قدميها تلامس مقدمة حذائي .

«أَسبقَ لكِ أنْ رأيتِ الرَّبَّ في غرفة ولادة يمنحُ الحياة لطفل؟ أخبريني يا يجيده ، أَسبقَ لك أنْ رأيتِ الرَّبَّ في عنبر ولادة؟ النِّساءُ يصنعنَ الأطفال ، وإذا لم يكن في وسعك أن تفعلي فأنتِ مجرّدُ

رجل ، لا أحد يمكنه أن يدعوكِ امرأة .» قبضَت على رسغيّ ، وتابعت همسًا . «هذه الحياة ليست صعبة يا يجيده . ما دمتِ غير قادرة على إنجاب الأطفال اسمحي لابني أن ينجبهم من فنمي . أترين ، نحن لا نطلبُ منكِ أن تقومي ، وتخلي موقعكِ في حياته ، نحن فقط نقولُ إنَّ عليك أن تتزحزحي قليلاً ؛ لتفسحي المجال لأحدٍ آخر كي يجلس .»

«أنا لا أمنعه يا مومي ،» قلت . «لقد تقبّلتها ، بل هي الآن تقضي عطل نهاية الأسبوع في بيتنا .»

وضعَت يديها على خصرها البدين وضحكَت . «أنا امرأةٌ أيضًا يا يجيده . أتظنّين أنّني ولدت ليلةَ أمس؟ أخبرينِي ، لماذا لم يلمس أكين فنمي قطُّ؟ مضى على زواجه منها أكثر من شهرين . أخبريني لماذا لم ينزع عنها دثارها مرة واحدة ، أخبريني يا يجيده .»

خنقتُ ابتسامة . «ليس من شأني ما يفعله أكين بزوجته .»

رفعَت مومي بلوزتي ، ووضعَت راحة مجعدة على بطني .

«مسطّح مثل وجه الحائط ،» قالت . «حظيتِ بابني بين ساقيك لشهرين ، وما زال بطنكِ مسطحًا! ضمّي فخذيكِ في وجههِ ، أتوسّل إليكِ . نعرف كلُّنا ما شعورهُ تُجاهك . إذا لم تطرديه لن يلمس فنمي ، إذا لم تفعلي سيموت وحيدًا بلا ذريّة . أتوسّل إليك ، لا تفسدي حياتي . هو ابني البكر يا يجيده ، أتوسّل إليك باسم الرَّب .»

أغمضتُ عيني ، لكنَّ الدُّموع أبت إلَّا أنْ تشقَّ طريقها عنوة من بين جفنَي .

تنهَّدَت مومي . «لطالما كنتُ طيبةً معكِ . أتوسّل إليك باسم الرَّب يا يجيده ارحميني ، ارحميني .» عانقتني عندئذٍ ، جذبتني إلى ذراعيها ، وهمسَت بكلماتِ تأسية . لم يكن في عناقها أي دفء . كلماتها قبعَت في بطني ، حيثُ يجبُ أن يتكوّن جنين ، باردة وقاسية .

6

أعاقَ الخوفُ كاحلَيَ وأنا أتسلقُ جبلَ الانتصارِ المذهل . الرَّجلُ ذو اللحيةِ الكثَّةِ الَّذي تبعني لم يخفِّف من اضطرابي . كان مرافقي ، أُرسِل من قمّة الجبل حيثُ المؤمنين الآخرين يرتلون كلماتٍ حملتها الرِّيح إلينا ، وحملتها بعيدًا عنّا مجدّدًا . استطعتُ لمح مئةٍ منهم ، يلتحفون بعباءاتٍ خضراءَ ، ويعتمرون قلانيس كبيرةً متماثلةً .

«لا توقّف ،» نهرَني مرافقي .

لا بدَّ من أنّه لاحظ تلكؤَ خطواتي . كان الجبل شديدَ الانحدار وأجرد ، لا أشجارَ فيه لتؤمِّن ظلًا مؤقتًا من الشَّمس . وأنا ظمأى ، وحنجرتي جافة ، ولا يكاد يكون هناك لعابٌ في فمي ، ولا أملَ لي في أيِّ غوثٍ مؤقّت . أُمِرتُ أنْ آتي صائمةً ؛ لا طعامَ ولا ماءَ . وكما أعلمني المرافق عندما قابلني عند سفح التَّل ، لو توقّفت لأرتاح ونحن نصعد ، سيتحتم علَيَّ أن أعودَ أدراجي إلى البيتِ من دون صلوات ، ومن غير الاجتماع بالكاهنِ الأعلى .

أكَّدتْ لي السَّيدة عديلو أنَّ النَّبي جوشيا - زعيم هذه المجموعة - هو في الحقيقة صانعُ معجزاتٍ . بطنُها المنتفخُ بدا دليلاً مقنعًا . احتجتُ إلى معجزة بسرعة ، الطَّريقة الوحيدة الَّتي يمكنني بها إنقاذ نفسي من تعدُّد الزَّوجات هي أن أحبلَ قبل فنمي ؛ وبالتَّالي قد يتخلّى أكين عن تلكَ الفتاة . لكن وأنا أسحب المعزة الصَّغيرة صعودًا إلى قمّة الجبل ، المعجزة الوحيدة الَّتي أردتها حقًا اقتصرت على

تدفّق الماء من صخرةٍ ما كي أروي عطشي . طريقة تحديق مرافقي بصدري شوشتني . كنت أرتجف ، ليس من الإرهاق فقط ، بل أيضًا من الهواجس المنذرة بالشُّؤم . كلَّما التقَتْ عيناي بعينيه المستطلعتين بوقاحة ، أردت أن أهرع نزولًا إلى سيارتي . على الرَّغم من ذلك اندفعتُ نحو القمّة . ما زالتْ فنمي تقيم في شقّتها في المدينة ، لكنّني لم أحتج إلى نبيٍّ ليخبرني أنَّها قد تنتقل إلى بيتي حالما تحبل .

«أيمكن أن تساعدني بالعنزة؟» سألتُ المرافق ، متمنيةً لو أنَّ النَّبي أرسلَ امرأةً لجلبي .

«لا ،» أجاب ولوّح براحته أمام وجهي . ولحظةَ هممتُ بصفعها بعيدًا عنِّي . قوّس يده ، ودحرج قطرات العرق عن وجنتَيّ .

دعم خصري ، لتثبيتي على الأرجح ، فحاولت تسريع خطواتي المرتجفة ، لكن العنزة حرنَت . جذبتها وجذبتها إلى أن كشط الحبل يديّ . ما كنتُ لأمانع أنْ أسحبَها وهي ملقاةٌ على جانبها ، لكنَّ التَّعليمات نصَّت على جلب عنزة بيضاء لا جروحَ فيها ، أو شوائبَ أو بقعةً من لونٍ آخر .

«إنَّها العنزة ؛ أنا لم أتوقّف لأرتاح .» فزعتُ أن يعيدني أدراجي .

«أنا أرى ذلك .»

بعد فترة ، بدأت العنزة تتحرّك . وسرعان ما وصلنا إلى قمّة الجبل ، حيثُ تربَّع المؤمنون هناك في حلقة واسعة وعيونهم مطبقة .

«ادخلي الحلقة ،» قال مرافقي ، ثمَّ جلس مع الآخرين ، وأغمض عينيه .

في مركز الحلقة وقف رجل ؛ لحيته الَّتي يفوق طولها طول لحيةِ المرافق تخفي معظم وجهه . قلنسوته أضخم من قلانس الآخرين ، وبدلًا من أن يقف بظهرٍ منحنٍ ، بدا أنَّ ظهره بُطِّن بشيء صلب جعله

يقف بقامة منتصبة .

«أفسحوا المجال لأختنا ،» قال .

نهضَ المُريدانِ اللذانِ أمامي ، وتقدَّما نحو الحلقة من غير أن يفتحَا عيونهما . جذبتُ العنزة إلى داخل الحلقة ، ومضيتُ لأقف قربِ الرَّجل صاحب القلنسوة الكبيرة . نظرتُ من حولِي إلى الوجوه كلِّها ، ولاحظتُ أنَّ الجميع ملتحون ، الرِّجالُ كلُّهم . تذكَّرتُ نظرات المرافق الخليعة ، وشعرتُ بالدُّوار ، ثمَّ ، كما لو أنَّ هناك إشارةً ما ، بدأ الرِّجالُ يئنون ويرتعشون كأنَّهم تلقَوا تحفيزًا من شيءٍ غير مرئيٍّ . فكَّرتُ في أكين ، وكم كان يمكن أن يتميَّز أطفالنا بالجمال .

«ستُرزقين بطفل ،» زعق الرَّجل الَّذي إلى جانبي ، وتوقَّف الأنين . فتح عينيه . «انظري إلى طفلك ،» قال وهو يشيرُ إلى العنزة . نقلتُ عينَي من العنزة إلى عينَي الرَّجل الرَّاقصتين . فكَّرت في الفرار من هذا المخلوق المجنون ، إلَّا أنَّني تخيَّلتهم يطاردونني كلُّهم ، مخبولين وسائلي اللعاب كالكلاب المسعورة ، والعباءات الخضراء تخفق في الرِّيح . تخيَّلت نفسي أتدحرج على الجبل الحادِّ ، وأنزلق نحو حتفي .

«تعتقدين أنَّني مجنون؟ النَّبي جوشيا مجنون؟» قبضَ على مؤخرِ رأسي ، وأطلق ضحكة مقوقئة قصيرة . «لا يمكنكِ أنْ تهربي منَّا قبل أن ننتهي ، ساعتها ستصبحين حبلى بطفل .»

حرّكتُ رأسي إذعانًا إلى أن أفلته .

استأنف المُريدون الأنين . مالَ الرَّجل نحو العنزة ، وأزالَ الحبل عن رقبتها ، ثمَّ قمَّطها بقطعة قماشٍ خضراءَ ، بحيث ما عاد يظهر منها إلَّا وجهها . دفعها نحوي . «طفلك .»

أخذتُ الحزمة .

«ضمِّي الحزمة إليكِ وارقصي ،» أمرني .

توقَّف الأنين ، وبدأ الرِّجال يغنُّون . ورحت أدبُّ بخطوات متثاقلة ، وأنا أضمُّ الحزمة إلى صدري ، وأعاني من وزنها الثَّقيل . تحوَّل الغناء إلى نشيدٍ سريع وتسارعت خطواتي . غنَّيتُ معهم .

رقصْنَا إلى أنْ غدت حنجرتي في منتهى الجفاف ، وبالكاد أستطيع الابتلاع . وكلَّما طرفتُ بعيني ، رأيتُ ومضاتٍ من الضَّوء والألوان ، مثل شظايا من قوس قزح . واصلتُ الرَّقص إلى أن شعرتُ أنَّني غدوتُ على ضفاف تجربة روحيَّة . ثمَّ ، تحت الشَّمس المتوهجة ، بدتْ العنزة كمولودٍ جديدٍ وصدقّتُ . غنّينا ورقصنا حتَّى أثقلَ الوجع كاحلي ، وتقتُ إلى السُّقوط على ركبتي . ولا شكّ في أنَّ ساعاتٍ قد مرَّت قبلَ أنْ يتكلّمَ النَّبي جوشيا .

«أطعمي المولود .» قال . وبدا كما لو أنَّ صوته جهاز تحكمٌ عن بعد ، إذ سرعانَ ما همدَت حيوية الرِّجال المتحلّقين . هذه المرّة عندما تكلَّم ، توقّف الغناء . نظرتُ إلى يده ، متوقّعة منه أن يناولني حفنةَ حشيش .

شدَّ واجهة بلوزتي . «أرضعي المولود .» بعد أن همس تلك الكلمات ، كان من البديهي بالنِّسبة لي أن أمدَّ يدي وراء ظهري ، وأحلَّ حمالة صدري الحريريَّة ذات اللونِ العاجيِّ ، أن أرفع بلوزتي ، وأدفع حمَّالة الصدر إلى الأعلى ، وأنْ أجلسَ على الأرض ، وأمدَّ ساقيَّ ، أن أعصر ثديي ، وألقم الفم المفتوح بين ذراعي حلمتي .

لم أُفكّر في أكين ، وكيف قد يقول إنَّني في طريقي إلى الخبل . لم تخطر مومي على بالي ، مومي الَّتي لن تتوانى عن تذكيري بأنَّني ما دمت بلا طفل سأبقى مزعزعة القدمين في بيتِ ابنها .

ولا فنمي . . . لم أفكّر فيها ، فنمي الَّتي قد تكون حبلى الآن . نظرتُ إلى الحزمة بين ذراعي ، ورأيتُ وجهَ طفلي الصَّغير . تنشقتُ

عبير بودرة الأطفال المنعش ، وصدَّقتُ .

عندما نحّى النَّبي جوشيا الحزمة من بينِ ذراعَي ، شعرتا بالفراغ .

«اذهبي ،» قال . «حتى لو لم يقربكِ رجلٌ هذا الشهر ، ستحبلين .»

ضممتُ كلماته إليّ . ملأتْ تلك الكلمات الفراغ بين ذراعَيّ وطمأنتني . ابتسمتُ وأنا أنزل من الجبلِ وحدي ، وما زلتُ أشعر بالبلل على صدري ، وقلبي يدوِّي بتصديقٍ مستميتٍ .

7

أخبرتني يجيده أنَّها حبلى في يوم أحد، أيقظتني حوالي السَّابعة صباحًا لتقولَ إنَّ معجزةً قد حدثَت في اليوم السَّابق. حدثَت، من بين كلِّ الأماكن الأخرى، في جبلٍ. معجزةٌ في جبل.

رجوتُها أن تطفئ مصباحها الجانبي، الضَّوء يؤذي عينَي في الصَّباح.

كانت آنذاك ما زالتْ تحتفظ بحسِّ الفكاهة، وما بين حينٍ وآخر لم تترفعْ عن تطبيقِ مزحةٍ عمليَّةٍ. ظننتُ أنَّها تنوي الإتيان بشيءٍ مرحٍ، تستعدُّ لشيءٍ مرحٍ. ولعلِّي بالغت في التَّكهن حين تهيَّأ لي أنَّها تطيق المزاح بما له علاقة بحبلها.

اعتدلتُ في السَّرير بعد أن أطفأتْ المصباح. انتظرتُها لتفرغَ ما في جعبتها كي أنزلق ثانية تحت الأغطية. لكنَّها وقفت قرب السَّرير تبتسم. لم يعجبني ذلك، اعتبرتُ أنَّها تنتهك سياسة يوم الأحد الخاصَّة بي، فقد سننتُ ليوم الرَّاحة قانونًا صارمًا. لا سبيل مطلقًا إلى أن أفتح عينَي طواعية قبل الظهر، وهي تعرف ذلك.

«سأحضر لكَ فنجان قهوة.» فتحَت السَّتائر قليلاً، كي تسمح لشريحة من أشعة الشَّمس بالدُّخول.

نهضتُ عندما غادرَتْ الغرفة، ذهبتُ إلى الحمام، فتحتُ الماء البارد، ووضعتُ رأسي تحت الدُّش لدقيقتين. عدتُ إلى الغرفة بلا منشفة، تركت الماءَ يتقطَّر على صدري وظهري، تركتُه يبلل حزام

لباسي الدَّاخلي قليلاً .

عندما دخلتُ الغرفة وجدتُ أنَّها قد سبقتني إليها . رأيتها تجلس في السَّرير وقدماها متشابكتان عند كاحليها . لاحظتُ عندئذٍ أنها لا ترتدي قميصَ نومها ، بل تلبس بنطلونًا قصيرًا وفانيلة زرقاء . بدَت كما لو أنَّها استيقظَت منذ بعض الوقت .

لمحتُ إلى جانبها صينية ، صينية عامرة بصحون بطاطا مقلية ، ووعاء حساء سمك وفنجاني قهوة . المرأة الَّتي يمكن أن تقضي الأسابيع وهي تتذمّر إذا تناولتُ شطيرة في الفراش ، أحضرَت وعاء حساء إلى الغرفة . كان يجب أن أدرك لحظتها أنَّ هناكَ خطبًا ما .

جلستُ على السَّرير ، تناولتُ رشفة قهوة . «متى استيقظتِ؟» سألتُها .

«أكين ، أعتقدُ أنَّها ستكون بنتًا .»

ما توقعتُ في يوم أن تواجهني يجيده بقولها إنها تعتقد أنَّها حبلَت في جبل . لم أدرِ ما يمكن أنْ أقولَه لها . تناولت فطوري وراقبتها بإمعان ، استمعتُ إلى كلامها . وحينما اختفَت آخر قطعة بطاطا مقلية ، اتضحَ لي أنَّها لم تظنّ أنَّها حبلَت في ذلك الجبل اللعين ، بل هي مقتنعة بذلك .

وضعتُ الصِّينية على طاولة السَّرير الجانبيَّة ، ضممتُ يجيده إلي . «اسمعي ،» قلت . «تحتاجين إلى الرَّاحة . خذي قسطًا آخر من النَّوم .»

«أنتَ لا تصدّقني .»

«لم أقل ذلك .»

تلوّت متملّصة من بين ذراعي . «ولم تقلْ أيضًا أنَّك تصدّقني ، اكتفيتَ بالأكل طوال الوقت . أنتَ حتَّى لست متحمسًا أو مسرورًا . ولم تهنئني بعد مع أنَّك شربتَ قهوتك ، ما يعني أنَّك لا تصدقني .»

أرادتني أن أهنئَها ، أهنئها لأنّها أصبحت حبلى وهي على قمّة جبل .

«أكين؟» قبضَت على يدي ، غارزة أظفارها في راحتي . «أتصدّقني؟ أخبرني ، أتصدّقني؟»

«أمورٌ كهذهِ لا تحدث . عليكِ أنْ تكفّي عن ارتيادِ تلكَ الأماكنِ مع مومي . سبقَ أنْ قلتُ لكِ ذلك . أولئك النّاس كذّابون . رجال مخادعون تمامًا .»

أفلتَت يدي . «لم تذهب أُمّك معي .»

«ماذا؟ أصبحتِ الآن تذهبين إلى أولئك المحتالين وحدكِ؟»

«ينبغي أن تصدّق .» عبسَت ، هزّت رأسها . «أحيانًا أرثي لحالكَ .»

«مـــاذا؟»

«أنتَ لا تؤمن بأيِّ شيء .»

«ما كلُّ هذا؟ ألأنّني لا أصدق أنّ رجلًا بعباءةٍ خضراءَ لوّح بصولجانٍ وجعلكِ حبلى؟»

تنهّدت . «هو لم يستعمل أيَّ صولجان . أنا احتضنتُ . . . أوه لا عليك ، سيبدو لكَ ذلك مستهجنًا .»

«أنا مِن الآن أعتقد أنّه مستهجن . ماذا احتضنتِ؟ يا إلهي . لا أصدّق أنّنا نُجري هذا الحوار .»

«لا يهمّ .» ابتسمَت وهي تضع يدًا على بطنها . «أتدري؟ سأذهب وأُقوم بإجراء فحوصات في المستشفى عمّا قريب ، وحينذاك ستصدِّق أنتَ أيضًا أنَّ شيئًا مميَّزًا حصل في ذلك الجبل . أكاد أكون متيقّنة من أنّني حبلى .»

«يا إلهي!» شعرتُ كما لو أنني أحاور شخصًا غريبًا . «يجيده اسمحي لي أنْ أوضِّح هذا . أنتِ لمْ تحبلي في ذلك الجبل . إن لم

تكوني حبلى عندما تسلقتِه، لن تكوني حبلى بعدما نزلتِ.» وضعتُ يدًا على ركبتها. «أتفهمينني؟»

«أكين، بعد تسعة شهور ستتأكّد من أنّهم ليسوا محتالين.» داعبَت ذقني بيدها، قبّلت أنفي. «سترى. الآن علينا أنْ نخوض في موضوع آخر.»

قبلةُ الأنف فتحت عينَي، فتحَت عيني على حقيقةِ أنّني يجب أنْ أفعلَ شيئًا قبل أنْ تفقد عقلها. في لحظةٍ ما في ذلك الأحد قرّرتُ أنَّ الوقت قد حان لأجعلها تحبل. وأقضي بذلك على الزيارات المجنونة كلّها للكهنة والأنبياء بشكل نهائيّ. لكنْ أوّلًا عليّ أن أنتظر حتّى تكون جاهزة.

«قد أذهب إلى لاغوس في عطلة نهاية الأسبوع القادمة،» قلتُ.

«ماذا ستفعل في لاغوس؟»

«أحتاج إلى رؤية دوتون بخصوص بعض الاستثمارات.»

«دوتون واستثمارات؟ عليك التزام جانب الحذر مع أخيك؛ أحيانًا أفكّر أنْ لا شيء يأتي منه سوى المتاعب.»

كانت مخطئة بما يتعلّق بحبلها، لكنّها محقّة بشأن دوتون.

8

كان يجب أن تأتي عادتي الشّهرية بعد أسبوع من زيارتي إلى الجبل ، لكنني لم أحِض . وعند نهاية الشّهر أصبح ثدياي حساسين جدًا ، بحيث صار ارتداء حمالة الصّدر يثيرني . هذا عدا عن انتظام القيء يوميًا في السّابعة صباحًا ، كانتظام السّاعة .

كنتُ متأكدةً من أنّني حبلى ، ولاحظتُ أنَّ جسدي يخبرني بتطورات لن تلبث أن تثبتها الفحوص . عرفتُ أنَّ الفحوص ينبغي أنْ تُجرى قبل أيٍّ شكلٍ من أشكالِ الاحتفال الحقيقيِّ ، ومع ذلك غمرني الفرح وأنا أفكر كم سيغدو كلُّ شيءٍ رائعًا حالما يؤكّد الأطباء حملي . لم أعلِم أكين بما راح يطرأ على جسمي من تغيّرات ؛ لأنّني لم أشأ أن يقوّض آمالي . في هذه الآونة لم نعد نتحاورُ كثيرًا ، ودرج على قضاء معظم أمسياته في الشّقة الّتي استأجرها لفنمي . أمّا أنا فصرفتُ بعض أمسياتي في تفحُّص معدتي من زوايا مختلفة أمام مرآة الحمام .

«ماذا تفعلين؟ «سألني أكين بعد بضعة أسابيع من حملي . لم ألمحه وهو يدخل الحمام .

«كيف حال زوجتكَ؟» قلت وأنا أرخي بلوزتي .

تقدَّم أكين ورفع البلوزة . «ما خطبكِ؟»

عدتُ وأرخيتُ البلوزة . «لماذا يجب أن يكونَ هناك خطبٌ ما فيَّ؟»

«أنا قلقٌ فقط . لماذا كنتِ . . .»

«أخبرتكَ . . . أنا حبلى .»

تراجع أكين كما لو أنَّني صوَّبت لكمةً لفكّه . حملق بي كأنّه نبتَ لي قرن على قصبة أنفي ، ثمَّ ضحك . كانت ضحكةً مقتضبةً ستبقى تطاردني في نومي .

«أكنتِ تمارسين الجنس . . .» ماتت الضِّحكة وتحوَّلت إلى غرغرة في حنجرته . « . . .مع رجلٍ آخر؟»

«أنا لا أفهم ما تقوله .»

اهتزَّت تفاحة آدم في عنقه بجنون ، مهددةً بالانفجار عبر جلده ونفثِ الدَّم فوق بلاط أرضيَّة الحمام الأبيض .

«كلانا نعرف أنَّه من المستحيل أن تحبلي ، بل حتَّى أنا لم ألمسكِ منذ شهور ، إلّا إذا . . . . إذا . . .» بقي فمه مفتوحًا ، إنَّما لا كلمات انبثقَت منه .

خرجتُ من الحمَّام ، اندفعتُ إلى الأسفل وخارج البيت قبل أن يتسنى له اللحاق بي . احتجتُ إلى هواء الليل النقيِّ لأصفِّي رأسي ، وإلى القمر في السَّماء ليعزِّز إيماني . لم يَردَّ أكين عندما حيّيته في الصَّباح التَّالي . ارتعشَت يده وهو يحرك السُّكر في قهوته .

«سأبدأ اليوم في حضور تدريباتِ ما قبلَ الولادة ،» قلتُ .

كان قدحُ القهوة في منتصف الطَّريق إلى شفتيه . سقط على الطَّاولة ، وغمر المفرش الأبيض بالسَّائل الأسمر .

«كيف تجرأتِ على خيانتي يا يجيده؟»

«لا أدري عن أيِّ شيءٍ تتحدّث ،» قلتُ ، وقضمتُ قطعةً من الخبز المحمَّص .

ضحك . «هذا إذًا حبل لا تشوبه شائبة؟ وماذا يجب أن ندعو الطِّفل؟ إبليس الصَّغير؟ متى سيظهر لي شيطان ليبلغني ذلك في الحلم؟»

رميتُ شريحةَ الخبزِ نحو الصَّحن . «تستطيع الآن أنْ تتكلّم؟ لديكَ القدرة على إفلات الكلام من بينِ شفتيك؟ من تزوّج امرأةً أخرى؟ في هذا البيت ، من تزوَّج امرأة أخرى؟ أخبرني الآن! أيُّ خائن لعين فعل ذلك؟»

تتبّع لطخة القهوة السّمراء بإبهامه . «ناقشنا ذلك ، سوّينا المسألة .»

كنتُ غاضبة جدًا إلى درجة أنّني عجزت عن التّنفس . وقفتُ وانحنيتُ عبر الطّاولة لأضعَ وجهي قبالة وجهه . «حسنًا الآن ، شيءٌ آخر قد سوِّي . أريد طفلًا ، وبما أنّك أكثر انشغالًا في بيت الزّوجة الجديدة من أن تجعلني أحبل ، يمكنني أن أحصل على طفل من أي رجلٍ أريد .»

نهض وقبض على ذراعيَّ فوق المرفقين ، والعروق في جبينه تنبض . «لا يمكنكِ ،» نعقَ .

ضحكتُ . «بلى ، أستطيع فعل أي شيء أريده .»

عقصَت أظفاره ذراعَي من فوق كمّي بلوزتي . «لا يمكنكِ يا يجيده .»

هززتُ رأسي . «بل يمكنني ، يمكنني ، يمكنني .»

دفعني هنا وهناك إلى أن راح رأسي يتذبذب وأسناني تهتزّ ، ثم أفلتني فجأةً . سقطتُ على كرسيٍّ ، وتشبّثتُ بالطّاولة لأتوازن .

تناول صحنًا من الطّاولة ورفعه عاليًا . للحظة مرعبة واحدة تخيّلتُه يحطِّم الخزفيات الملساء على رأسي ، لكنّه قذفه عبر الغرفة ، ثمّ سحب مفرش طاولة الطّعام ، فتحطّمت الصُّحون والأقداح والأطباق والدّوارق الفارغة على الأرضيّة . لم يكن زوجي رجلًا عنيفًا ، والرّجل الّذي رفع كرسيًا وراح يخبطه بطاولة الطّعام إلى أن تكسّر كان شخصًا لا أعرفه .

*

فاحت مستشفى نقابة ويزلي برائحة المواد المطهِّرة . وجعلتني رائحة المنظّفات الكيماويّة الّتي لا بدَّ منها أهرع خارج صفٍّ تدريبات ما قبل الولادة مرّتين لأتقيأ . ما تخيلتُ في يومٍ أنَّ القيءَ يمكن أن يسعدني . إذ على الرّغم منه انفرجَت شفتاي عن ابتسامة بشوشة للفوضى الّتي أودعتُها في مجرى التّصريف ، وأردتُ أنْ أنادي المارّة ؛ ليأتوا وينظروا إلى القيء . ما شعرتُ به من عدم قدرتي على إبقاء الطّعام في معدتي ، الحساسيَّة الزَّائدة لمجرّد لمسي ، والانزعاج العام ، كانت كلها مناسكُ العبور إلى الأمومة ، طقوسُ التّرفيع إلى مرتبةٍ لطالما تقتُ إلى بلوغها . أصبحتُ امرأة أخيرًا .

شرحَت لنا الممرضة ما يجري في أجسامنا ، علّمتنا أغنية عن الرّضاعة من الثّدي ، وناقشَت موضوع الحمية الغذائيّة والتّمارين .

جاءتني الممرضة بعد أن صرفَت الحاضرات . «مبارك يا سيدتي! ما أحوال جسمك؟»

«أشكركِ سيدتي ، تعلمين كيف يكون الجسم الآن ،» كركرتُ . «أستمرُّ في تقيؤ كلّ شيءٍ آكله ، ولا أستطيع أكل الكثير . منذ الأسبوع الماضي ، لم أتناول سوى الأناناس والفاصولياء ، تخيَّلي التّركيبة يا أختي ؛ أناناس مع فاصولياء مطهوّة بزيت النّخيل! أحاولُ وأحاولُ أن آكلَ شيئًا آخر بلا فائدة . لا شيء غير ذلك يبقى في جوفي .»

«إيه ، هكذا هو الوضع . في الحقيقة مع جنيني الأخير ما أكلت سوى دقيق الـ إيبا ، لا حساء ولا خضار إلى جانبه . لا شيء ، فقط ماء وإيبا ، تخيّلي هذا . إذا حاولتُ تناول شيء آخر ، يخرج مباشرة من أنفي .»

ضحكنا .

«وهناك النَّوم أيضًا ، لا أتمكن إلّا من النَّوم على جانب واحد فقط ،» قلتُ . «أستيقظ دائمًا كلَّما اضطررتُ إلى التَّقلّب .»

حدَّقَت الممرضة في معدتي . «بطنكِ ليس بعد على تلك الدَّرجة من الضَّخامة ،» ثمَّ عبسَت . «لا ينبغي أن تعاني من مشاكلَ نومٍ في هذه المرحلة . أتمنَّى ألّا يكون هناك شيءٌ . . .»

«لا شيء غير صائب بي . . . كلُّ شيءٍ يجري بشكلٍ طبيعي .»

«أوه ، منذ متى يحدث هذا؟ أعني المضايقة؟ منذ متى؟»

«عمَّتي الممرضة ، لماذا تزعجين نفسك؟ قلتُ كلّ شيء على ما يرام ؛ من المحتمل أنَّني أنا السَّبب .»

«آها . أراك تدعينني عمَّتك الممرضة . ألا تعرفينني؟ أنا أصففُ شعري في صالونكِ الآن ، مرَّة كل أسبوعين .»

«أوه . نعم ، نعم ،» قلت ، وأنا أحاولُ عبثًا تذكّر وجهها .

«تتذكّرين الآن؟» سألتني .

ابتسمتُ ، وأومأتُ برأسي إيجابًا . «طبعًا ،» قلتُ وأنا ما زلتُ عاجزةً عن تمييزها .

«مبارك يا أختي . أولئك الرِّجال لا يفهمون ، لكن نحمد الله لأنَّه جلب الخزي لكلِّ أعدائك . النَّاسُ دائمًا يلقون اللوم على المرأة ، وأحيانًا تكون المشكلة في الرَّجل .» عانقتني بقوَّة كما لو أنَّنا عضوتا فريقٍ في مباراةٍ خفيَّةٍ ، وأنَّني سجَّلت توًا هدفًا ضدَّ الفريق المنافس .

*

عندما عدت من المستشفى وجدتُ فنمي تنتظر خارج صالوني . سبق أن أمليتُ على العاملات عندي أوامر صارمة بعدم السَّماح لها

بالدُّخول بعد زيارتها السَّابقة تلك . لكنْ في ذلك العصر ، سررتُ لرؤيتها . يومها كنتُ سأسرُّ برؤية جميع زوجاتِ أبي مصطفَّات خارج الصَّالون . درسُ تدريباتِ ما قبل الولادة ملأني بحبٍّ غير مشروطٍ لجميع المخلوقات الحيَّة .

«ادخلي يا عزيزتي!» قلتُ .

عندما قدّمتُ لها زجاجة كوكا ، لم تشرب منها إلَّا بعد أن أخذتُ رشفةً لأطمئنها أنَّها ليست مسمَّمة .

«جئتُ لأستعطفكِ .» قالت ،

بيد أنَّ فكّيها المشدودين أخبراني أنَّها تسعى إلى شجار وليس إلى استعطاف .

«زوجنا خاصمني هذا الصَّباح بسببكِ . قال إنَّه سيمتنع عن زيارتي من أجلك . رجاءً ، اسمحي له أن يزورني ؛ لأنني بذلتُ جهدي معكِ . رضيت بالبقاء في الخارج مع أنَّ مكاني في الدَّاخل ، أوه رجاءً .»

قالت ما قالته بنبرةِ صوتٍ واطئةٍ بما يكفي لتعطي الانطباعَ أنَّها لم تشأ أن تُسمِعَ أحدًا كلماتها ، وفي الوقت نفسه عاليةٍ بما يكفي لتسمعها العاملات والزَّبونات اللاتي التزمْنَ الصَّمت على غير العادة ليسمعنها . أدركتُ حينذاك أنَّها امرأةٌ خطرةٌ تلك الفنمي ، هي من صنف نساء قد يصفن امرأةً ما بأنَّها ساحرةٌ شمطاءُ ، ليحرضْنَها على ضربهنَّ حتى الموت ؛ وبالتَّالي تنتهي في السِّجن .

كنتُ في مزاجٍ سمح ، بل شعرتُ بالاستعداد للتخلّي عن كلِّ شيءٍ في صالوني في ذلك العصر . أنا حبلى أخيرًا ، حضرتُ اجتماعًا لتدريباتِ ما قبل الولادة ، وفي وحدة التَّدريب تلك عاملني النَّاس باهتمام ، طلبوا منِّي أنْ آكل الفاكهةَ ، أن أرتاحَ وأمارس التَّمارين . لا

شيء آخر يهمّ ما عدا ذلك . أكرمني الرَّب ، وما عاد عندي سببٌ لأدَّخر زوجي لنفسي . على أي حال ، ما الزَّوج بالمقارنة مع طفلٍ سيكون لي وحدي؟ يمكن أن يحصل الرَّجل على عدّة زوجات أو عشيقات ؛ أمَّا الطِّفل فليس لديه إلَّا أُمٌّ واحدة فقط .

«سأفاتِحه في الأمر ، سترينه قبل أن ينقضي هذا الأسبوع .» قلتُ .

فغرَتْ فنمي فمها بما لاحَ ، كما افترضتُ ، أنَّه دهشة . جاءت لتتشاجرَ معي ، لتتسلحَ بقصةٍ يمكنها أن تشاركَ بها الآخرين مرارًا وتكرارًا ؛ كي تثبتَ أنَّني شريرة ، وها هي ستغادر من دون هذه الذَّخيرة . أخفَتْ خيبةَ أملها ، وقفَت وودّعتني . وبينما هي تخطو خارج الصَّالون قلت : «يا عزيزتي كوني ضمن أوَّل مَن يسمعون الخبر . بدأت أرتاد صفَّ تدريباتِ ما قبل الولادة اليوم ، لقد أكرمني الرَّب .»

استدارت بسرعة وحملقَت بي . لمحتُ في عينيها إدراكًا بأني بتُّ أشكّل تهديدًا لها بدل أن تكون هي كذلك . وضعَت يدها على جبهتها ، عاجزة عن التَّظاهر بالبهجة وانصرفَت .

جنَّ جنونُ العاملات عندي ، عانقنني ، ضحكن وأنشدن أغاني الثَّناء ، بل حتَّى انضمّت الزَّبونات إليهنَّ . كنتُ معجزةً ، تبرئةً للنساء الطَّيبات مثلي في كلِّ مكان . بقيتُ جالسة ، مع أنَّني ، بالتَّأكيد ، غدوتُ أكثرَ طولًا ، مؤكَّدٌ أنَّني لو وقفتُ لاخترقَ رأسي السَّقف .

سافر خبرُ حملي بعيدًا ، كما تعمَّدتُ تمامًا ، رافقَت فنمي حماتي إلى بيتي في ذلك المساء . بدا واضحًا أنَّها كانت متحمّسة لتأخذَ دورَ الزَّوجة الطَّيبة الأصغر سنًا الآن ، بما أنَّ أوتادي في حياة أكين قد ازدادت متانة . وجدتهما تنتظران في الشُّرفة الأماميَّة عندما وصلتُ إلى البيت .

ابتسمتُ ، ارتميتُ في أحضان مومي ، وأومأتُ برأسي إيجابًا لمَّا

سألتني مرّة تلو مرّة : «أصحيحٌ؟ أصحيحٌ؟»

أسفرَت فنمي عن ابتسامةٍ واسعةٍ جدًا إلى درجة أنَّ خديَّ آلماني من مجرد النَّظر إليها .

«يجبُ أن تمنحينا توأمًا ؛ صبيّان سمينان . . . صبيّان سمينان . هذا ما ستمنحينا إيّاه .» قالت مومي ، وهي تستقرُ في مقعدٍ وثيرٍ حالما دخلنا .

«في وضعي الحالي أنا جاهزة لمنحكِ ستة صبيان دفعة واحدة ،» قلتُ .

«لنبدأ بالأسهل ؛ صبيّان في البداية ، امنحيني الصَّبيين أوَّلًا ، بعد ذلك سأتركُكِ تمارسين أيَّ سحرٍ تريدين ممارسته .»

«ماذا تحبّان أن تأكلا؟» سألتهما .

هزَّت مومي رأسها . «ليس اليوم ، الخبر أكثر من كافٍ ليسكتَ جوعي عدة أيام . ثمّ ، أنا لا أريدكِ أنْ تتحرّكي هنا وهناك بلا سبب مطلقًا . تأكّدي من أنْ تنالي راحةً جيدةً جدًا ، لا تنحني لتكنسي أو تحملي شيئًا ثقيلًا . والطَّعام أيضًا ، رجاءً لا تهرسي البطاطا أبدًا . ربّما ينبغي أن تجلبي واحدةً من الفتيات اللاتي يساعدْنَ في شؤونِ البيتِ ، لتعينكِ في هذه الفترة .»

«لا أحتاجُ إلى مساعدةٍ في البيت حقًا ،» قلتُ . «أعتقد أنَّني أستطيع تدبرَ . . .»

«يمكن أن آتي وأساعدكِ .» قاطعتني فنمي .

«مــاذا؟» هتفتُ .

«لا ضرورة لإنفاقِ مالكِ من أجل المساعدة في البيت . ماذا لو جئتُ وعشتُ هنا لأتولّى هذا؟» ابتسمَتْ . «يجب أن تبقي مرتاحة جيّدًا خلال هذه الفترة .»

«نعم صحيح،» تدخّلت مومي. «في الحقيقة يبدو لي أنَّ هذا ما عليكِ فعله.»

«فقط إذا لم يكن لديكِ مانعٌ يا أُمَّنا.» مالت فنمي نحوي. «ألديكِ مانعٌ؟»

رأيتُ أنَّني قد خُدعت ثانيةً. لسببٍ ما، كنت ما زلتُ على تلك الدَّرجة من الغباء ليتهيأَ لي أنَّهما قد دخلتا إلى غرفة جلوس بيتي بلا جدول أعمالٍ جاهزٍ. نعم، الحملُ جعلني سمحةً لأرفّهَ عن فنمي في صالوني، لكنَّني لم أكن مستعدة لأسمحَ لها بالانتقال إلى بيتي. القدرُ الجيِّدُ الَّذي أملكه من الفطنةِ جعلني أدركُ أنَّها إذا انتقلَت إلى هنا تحت غطاءِ مساعدتي لن تغادر ثانيةً أبدًا.

لم يسعفني التَّفكير بأيِّ أسلوبٍ مقنع يمكّنني من قول لا لفنمي. وفي جميع الأحوال لم أفطن إلى تبريرٍ ما، لا يجعلِ مومي تعتقد أنَّني أتعامل بقلةِ احترامٍ معها. فأنا على الرَّغم من كلِّ شيءٍ، أردتُ أن تحبّني عائلةُ أكين. لم أشأ أنْ يعيشَ طفلي تحتَ رايةِ السُّخط على أُمِّه كما جرى معي. في حال متُّ، أردتُ استمرار الحبِّ لأحضّ النَّاس الذين يبقون بعدي على رعاية طفلي. أنا على وشك أن أصبحَ أُمًّا، أسهمي ارتفعَت، وعليَّ أن أتصرّفَ بهدوء ولطفٍ أو على الأقل أظهرُ كذلك. مصيرُ طفلي غيرِ المولودِ بعدُ مرهونٌ بسلوكي.

وهكذا ابتسمتُ بينما أنا أغلي في داخلي وقلتُ سأسألُ أكين. ابتسمَت مومي ابتسامةَ رضًا، وابتسمَت فنمي مترقبةً انتصارها. شعرتُ أنَّ ابتسامتي متشنجةٌ، ولم أطقْ صبرًا لترحلا حتّى أزيلها عن وجهي. كنّا بابتساماتنا المثاليّة نحن الثّلاثة، سنشكّلُ صورةً ولا أجمل.

9

بدأ ذلك بصورِ الموجات فوق الصّوتية. زعمَت الماكينات أنَّ ما من جنين في رحمي.

الطّبيبة أوتشيه هي أوّل من أجرى المسح. كانت ذات عينين صغيرتين تسبحان في بركةٍ من الدُّموع الرّاكدة العصبيّة على السّقوط. لمع البريق في عينيها وهي تُطلعني على الخبر.

«سيدة أجاي، لا جنين هناك.»

«سمعتكِ في المرّة الأولى والمرّة الثّانية أيضًا،» قلتُ. لكنّها واصلت النّظر إليّ بعينيها الوامضتَين، كأنّها توقّعت منّي أنْ أفعلَ شيئًا... أبكي؟ أصرخ؟ أقفز على طاولتها، وأبدأ في الرّقص؟

مالت إلى الأمام في مقعدها. «منذ متى وأنتِ حبلى؟»

«ظننتكِ قلتِ أنْ لا طفلَ هناك.»

ندَتْ عن الطّبيبة أوتشيه ابتسامةٌ حذرةٌ. سبقَ أن رأيتُ هذه الابتسامة من قبل، على وجه أبي.

هي ابتسامةٌ صغيرةٌ أوحتْ أنَّ فمهُ يتهيّأ للانفجار بصرخةٍ ثاقبةٍ طلبًا للنجدة في أيِّ لحظة. كانت ابتسامةً مميزةً خصَّ بها زوجته الثّالثة، تلك الّتي ارتادت الشوق مرّةً عاريةً. الزّوجة الّتي خاطبَتْ دائمًا أناسًا لا أحد غيرها يراهم.

«أيمكن أنْ أحصلَ على النّتائج؟» قلتُ.

«أرغب في مناقشة هذا الحمل معكِ.»

بدا واضحًا أنَّها تعتقد بأنَّني بدأتُ أفقدُ عقلي .

«هل سبقَ أنْ سمعتِ عن صالونِ اللمسةِ المثاليَّةِ؟» سألْتُها .

أومأتْ برأسِها إيجابًا .

«أتعرفين مصرفَ العاصمةِ؟»

«نعم ، أملكُ حسابًا فيه .»

«أنا صاحبةُ صالونِ اللمسة المثاليَّةِ ، وزوجي مديرُ مصرف العاصمة . حصلتُ على شهادتي العليا من جامعة أيفي . أنا لست تلك المرأة المجنونة من الشّارع . لماذا تناقشين موضوع الحمل معي ما دمتِ قد قلتِ الآن أن لا جنينَ هناك؟»

وضعَت الطَّبيبة أوتشيه راحتها على جبهتها . «سيدتِي ، مَعذرة إذا بدا لكِ أنني أتصرّفُ باستعلاءٍ . أنا فقط قلقة على صحتكِ ، على سلامةِ صحتكِ العقليَّةِ .»

قالت صحتكِ العقليّةّ بصوتٍ خافتٍ ، كما لو أنَّها خشيَت سماع كلماتها الخاصّة . فتساءَلتُ في سرِّي عن حالتها العقليَّة هي .

«يا حضرة الطَّبيبة أنا بخيرٍ . أعطِني النَّتائج فقط . لديكِ الكثيرُ من المرضى ينتظرون .»

ناولَتني النَّتائج . «هذا يحدث ، هذا النَّوع من . . . الحمل . لنساءٍ لا يمكنهنَّ . . . نساءٌ لم ينجبْنَ . هذا يحدث ؛ أعراضُ الحمل ظاهرةٌ ، ولكن لا جنين هناك . اتفقنا على أنَّكِ لستِ حبلى ، صح؟ ربما يمكنكِ رؤيةَ طبيبٍ نسائيٍّ مجدّدًا بخصوص هذه القضيَّة؟ أرى في ملفّك أنَّك قمْتِ بعددٍ من الفحوص من قبل ، لكن لعلَّكِ تستطيعين القيام بمزيدٍ منها؟»

«سأفكّرِ في الموضوع .»

خرجتُ إلى الرِّواق وإحدى يديَّ على بطني المنتفخ قليلًا ، من

غير أن يستفزَني لا أكين المرتاب ولا الطّبيبة . شعرتُ أنّني مثل بالون ، بالونٍ منتفخٍ بالأملِ وبطفلٍ معجزةٍ . كنتُ مستعدةً للتحليقِ فوقَ عنابر مستشفى نقابة ويزلي .

*

ضحكَ أكين لما أخبرته أنَّ فنمي تريد القدوم لتبقى معنا خلال فترة حملي . كنّا نستعدُّ للنوم ؛ أنا بقميص نومي الأبيض ، أمّا هو فما زال ينزع ملابسَ العمل .

«تلك المرأة؟ أيُّ حمل على أي حال؟ هل أكّدوه في المستشفى؟»

شدَّ حزامه بعنف ؛ فارتطم بالسّرير كأنّه سوط .

«الطّبيبة الّتي قصدتُها لا تدري ما هي فاعلة ، تحتاج إلى نظّارات . هذا ما أخبركَ به ، قالت إنّها لا ترى أيَّ جنينٍ ، إيه ، أتصدق؟ الجنين الّذي بدأَ يركل .»

«يركـــــل؟»

«نعم صحيح ، الآن بالضبط . أتهزّ رأسك استنكارًا؟ لا بأس داوم على هزِّه إلى أن يسقط عن رقبتكَ ، سترى .» صعدتُ إلى السّرير . «عندما أحتضن طفلي بين ذراعي ستخجلونَ من أنفسكم ، كلكم أنتمُ يا مَن تعتقدون أنّني لستُ قادرة على الإنجاب . حتّى تلك الطّبيبة الغبيّة ستجد نفسها في موقفٍ محرجٍ .»

«أنتِ تعلمين أنّكِ تبدين مجنونةً ، أليس كذلك؟»

«ماذا تقول؟» هززتُ بطني وانتظرتُه أن يعلّق .

تعرّى محتفظًا بلباسه الدّاخلي ، واستلقى إلى جانبي . «عتّمي مصباحك يا يجيده رجاءً .»

«ماذا عنيتَ بما قلته الآن؟»

انبطح على معدته، وأدارَ وجههُ بعيدًا عنِّي.

«يا سيد أكينيل؟ أنا، أنا أبدو مجنونة؟!»

«أنتِ لستِ حبلى، وفنمي لن تأتي لتقيمَ هنا. أيمكن أن أنامَ الآن؟» قال وجذبَ الغطاءَ فوق رأسه.

زحفَت كلماته عبر الغرفة، وتشبَّثتْ عنوةً بجسدي كما قد يفعل جيشٌ من النَّمل، ثمَّ لسعتني بلا سابق إنذارٍ في ساعاتِ الصَّباح المبكرةِ عندما نهضتُ لأتبوَّل، ربَّما للمرة العاشرةِ خلال تلك الليلةِ. وبينما جلستُ في السَّرير ورشفتُ الماء من القنينة شبه الفارغة الَّتي احتفظتُ بها على طاولة السَّرير الجانبيَّة، تردّدَتْ كلماته ثانية في رأسي، قادحة زناد التَّساؤلات.

مضى على حملي أربعة شهور، وبطني يزداد انتفاخًا مع مرورِ كلِّ يومٍ، مع ذلك اختار زوجي أنْ يصدِّق طبيبة غير مؤهلة. داومَ على إخباري بأنَّني أبدو مجنونة. أكانَ أعمى؟ أمَا استطاعَ رؤيةَ بطني؟ أمَا استطاعَ رؤية وجهي المتورِّم؟ حتَّى الغرباء لاحظوا هذا. أينما ذهبتُ حيَّاني النَّاس بقولهم: نأمل أن نسمع صوت الأم وصوت الوليد عندما تضعين حملك. تمنَّى لي الغرباء الخير، صلُّوا من أجل نجاتي ونجاة طفلي. نزل النَّاس من سيارات الأجرة المكتظة ليتسنى لي ركوبها، ما عدتُ أضطر في المصرف إلى الوقوف في الطَّابور، كان النَّاس يطلبون منِّي أن أتقدم إلى أوَّله. أظَنَّ أكين أنَّني امرأة مجنونة أستوقِف النَّاس في الطَّريق، وأخبرهم أنَّني حبلى؟ منذ أن تزوجنا، ما سبق قطُّ أنْ أخبرتُه أنَّني حبلى، فلماذا يجدُ صعوبةً في تصديقي الآن؟

استلقيتُ في السَّرير وشبكتُ يدي على بطني. أحسستُ بضغطٍ في رأسي، بداياتُ صداع. إلى جانبي كان أكين يتقلَّب، تمطَّط في

نومه . رنوتُ إلى ذقنه غير الملتحي ، وثبّتُّ يدي لأمنعها من تمسيدِ ذقنه . عندما فتح عينيه وجدني أحدِّق فيه .

فرك عينيه بظاهرِ يديه . «ألَمْ تنامي؟»

«لماذا تكرهني كثيرًا؟»

حكَّ رقبته . «بدأتِ من جديد! خذي قسطًا كافيًا من النَّوم يا يجيده .»

«إذا أجريتُ فحصًا وأظهر أنَّني حبلى ، أستصدق؟» حاولتُ أن أقرأَ وجهه في ضوء الفجر الباهت ، لم أستطع .

«يجيده ، تحتاجين إلى أن تنامي أكثر . ما زالَ الوقتُ مبكرًا جدًا على هذا .»

*

حوَّلتُ الغرفة الإضافيّة المجاورة للمطبخ إلى غرفة لهوِ أطفال . خلقتُ مكانًا خاصًا يمكنني أن أقضي فيه وقتًا مع طفلي . مساحة لنا نحن الاثنان فقط . لم تكن غرفة اللهو شيئًا خطّطتُ له مسبقًا ؛ جعلتها كذلك لأن أكين ما عاد يخاطبني . كفّ عن زيارة فنمي في المساء . وصار يزرع نفسه في غرفة الجلوس ، يشاهد أخبار المساء ، يطالع الصُّحف ، وفي الغالب لا يوجّه لي أي كلام ، حتّى لو جلستُ إلى جانبه . يردُّ على الأسئلة بالنَّخر ، ويستقبلُ الإهانات بالصَّمت .

تخلَّيت عن محاولة إثارة أكين أو إقناعه بالكلام ، ولازمتُ الغرفة الإضافيّة بدلًا من غرفة الجلوس . رتَّبت الألعاب الَّتي اشتريتها للطفل على أرضيَّة الغرفة . وضعت فيها مقعدًا وثيرًا ، واشتريتُ صحفي الخاصَّة ليكونَ لديَّ ما أطالعه وأنا أنتظر رنينَ مؤقِّت المطبخ . في تلك

الغرفة، وأنا محاطة بدمى الدِّببة والخشخيشات ذات الألوان الزَّاهية، قرأت عن ضبّاط الجيش الَّذين اتُّهموا بالتَّخطيط للانقلاب. جذبتني سيرة رجلين منهم: المقدَّم كريستيان أوشي، المرشّح للدكتوراه في جامعة جورج تاون في الولايات المتحدة، قبل أن يُستدعى إلى مقرِّ القيادة. وما فتئتُ أتساءل عن المنحى الَّذي كان يمكن أن تأخذه حياته لو أنَّه لم يُستدعَ وتُركَ ليكملَ أطروحته، ربما حينها قد يقرأ عن الأحداث في أسفلِ الزَّاوية اليمنى لصحيفةٍ أمريكيَّةٍ ما. تساءلتُ أيضًا، ما إذا داهمه وهو يستقلُّ الطَّائرة عائدًا إلى «لاغوس» حزنٌ طفيف ما انفكّ يتجاهله إلى أن طغَت عليه حماسة وجودهِ في وطنه.

ثمَّ هناكَ الرَّجلُ الَّذي خلبَ مصيرُه لبَّ البلاد: اللواء الوزير مامين فاتسا، والشَّاعر الحائز على الجوائز، وصديق رئيس الدَّولة المقرّبِ. كان فاتسا وبابانجيدا رفاق طفولة وزملاء في المدرسة المتوسطة؛ قُلِّدا رتبة في الجيش في اليوم نفسه، ووجّها معًا الكتائب المتجاورة في الحرب الأهلية، بل أيضًا كان بابانجيدا الأشبين في زفاف فاتسا.

صرفتُ مزيدًا من الوقت في غرفة اللهو أكثر من أيِّ مكانٍ آخر في البيت خلال تلك الفترة، لكن يوم قرأتُ أن فاتسا وأوشي وأحد عشر رجلًا آخر حُكموا بالإعدام، جلستُ مع أكين في غرفة الجلوس، وحاولتُ أن أناقشَ معه الأحداث، إلَّا أنَّه استمرَّ يديرُ دفَّةَ الحديث نحو بطني المنتفخ، وهكذا تراجعتُ إلى غرفة اللهو ولم أعبأ بسؤاله إنْ كان اجتماع وُليه سوينكا وتشينوا أتشيبي و ج. ب. كلارك مع بابانجيدا سيساعد. التماس الكُتَّاب الرحمة للمحكومين بالإعدام بدا لي منطقيًا؛ ففي النِّهاية لم تكن محاولة الانقلاب أصوليَّة: فالرِّجال حوكموا على نواياهم. في اليوم التَّالي بكيتُ لمَّا علمتُ أنَّ عشرةَ ضباطٍ ومن ضمنهم فاتسا وأوشي قد أُعدموا. زعم فاتسا حتَّى نهاية

المحاكمة أنّه بريءٌ ، لكن ستمرُّ سنواتٌ قبل أن يشكِّك ضباطٌ آخرون في الدَّليل الَّذي استُعملَ لإدانته . آنذاك ، كانت علاقة «نيجيريا» بـ بابانجيدا ما زالتْ في مرحلةِ شهرِ العسل ، ومثل معظم العرائس لم تتكلَّف في تلك الفترة عناء طرح أسئلةٍ تسبر الأغوار .

لم أقصد غرفة الجلوس عندما أعلن وزير الدِّفاع أحكام الإعدام ، لكنَّني سمعتُ . سمعتُه وأنا في غرفة اللهو لأنَّ أكين رفع الصَّوت . أردتُ الذَّهاب إليه ، لا لنتكلّم ، فقط لأكون قربَه ، وأشعرُ به يضغط ذراعي . بيدَ أنَّني خشيتُ أن يبدأَ في التَّحديق ببطني صامتًا ، وعلى وجهه تعبيرُ رجلٍ ينظرُ إلى قيء .

أخيرًا ذاب صمت أكين الجليدي ، وتحوَّل إلى كلماتٍ نُطقَتْ برفقٍ . بل حتَّى جاءَ إلى غرفة اللهو بضعَ مرات . كلماتُه استولَت على مساحةٍ كبيرةٍ في الغرفة حتَّى بتُّ أجدُ صعوبةً في التَّنفس . منذ أن أعلمتُه أنَّني حبلى ، ختم فمه عن أيِّ شيءٍ يتعلّق بالطِّفل ، لكن حينما يزورني في غرفة اللهو لا يرغب في التَّحدّث عن شيءٍ سواه . أراد مناقشة مشاعري ، فقط غلّف مواعظَه بأسئلةٍ سرعان ما صرتُ أمتنعُ عن الرّد عليها . سألَني عدَّة مرات إذا كنت أظنُّ أنَّ طفلي سينقذ العالم ، سألَني إذا أبصرْتُ رؤًى عن الطِّفل ، طلبَ منِّي وصفَ الملائكة الَّتي رأيتُ ، حتَّى بعد أنْ أخبرتُه بأنَّني لمْ أرَ قطُّ أيَّ ملاكٍ في حياتي . في إحدى الليالي ، سألَنِي إذا كنْتُ أعتقد أنَّ الطِّفل سيمتلك قوًى خارقة . عند ذاك قرَّرتُ أنَّني قد اكتفيتُ . ذهبتُ إلى صالوني في الصَّباح التَّالي ، وأعلمتُ الفتياتِ العاملاتِ في الصَّالون أنَّني لن أعودَ قبل اليوم التَّالي ، ثمَّ قدتُ سيارتي إلى المستشفى التَّعليمي في «أيفي» .

لم تكن هناك كهرباء في المستشفى عندما وصلتُ . بعد أنْ حجزْتُ

موعدًا ، أعلمني الممرض أنَّ المولِّد لن يُشغَّل قبل الثَّانية بعد الظُّهر ، ونظرًا لوجود مرضى قبلي ، قد لا أرى الطَّبيب قبل الثَّالثة . وبما أنَّ الوقت لم يتجاوز الحادية عشرة صباحًا ، فكَّرتُ في الذَّهاب إلى السُّوقِ لشراء بعض المستحضرات لصالوني . ابتعتُ موادَ التَّثبيت المعتادة ، والشَّامبو الذي أستعمله في الصَّالون ، ثمَّ توقَّفتُ عند متجر هدايا لشراءِ مزهريةٍ خشبيَّةٍ ستبدو لطيفة في غرفةِ اللهو .

وأنا في طريقِ خروجِي من السُّوق شعرت بيدٍ تمسك رسغي . التفتُّ ووجدتُ نفسي وجهًا لوجه مع إيا تونده ، زوجة أبي الرَّابعة الَّتي لم أرها منذ دفنِ أبِي .

«يجيده ، أهذهِ أنتِ؟ رأيتكِ وقلتُ لنفسي لا ، لا يمكن أن تكونَ هذه يجيده ، يجيده لن تقصد السُّوق من غير أن تزورَ كشكي . أهكذا يجري العالمِ اليوم؟ في وسع البُنيَّة أن تأتي إلى السُّوق من غير أن تعرج على كشك أُمِّها؟» قالت إيا تونده .

«مساء الخيرِ يا إيا تونده .» لم أستطع مقاومة تذكيرها بأنَّها أُمُّ تونده ، وليسَت أُمِّي . «ما أخبارُ السُّوق؟»

«نحن نسأل الرَّب من أجل يوم سوقٍ طيِّب . وفي الوقت نفسه نشكره لأنَّنا لا نتضورُ جوعًا .»

خلال الشُّهور الأولى المعدودة بعدَ أن تزوَّجها أبي ، باعتْ إيا تونده الفاكهة في سقيفةٍ صغيرةٍ خلفَ بيتنا . عندما حبلت ، نقلها أبي إلى كشكٍ سبق أنْ أقامَه في السُّوق من أجل إيا مارتا ، وطلب منهما أن تتشاركا فيه ، لأنَّ المرأة الحبلى يجب أن تحصلَ على الفيء وعلى مساحة لتديرَ أشغالها . وعد إيا مارتا ببناء كشكٍ جديدٍ لها في موضعٍ آخر من السُّوق . لا أدري كيف فعلت إيا تونده ذلك ، لكن مع نهايةَ السَّنة سيطرَت على الكشك ، وأصبحت إيا مارتا تبيع سلعها في

السَّقيفة الخشبيَّة خلف بيتنا . لم يبنِ أبي مطلقًا كشكًا آخر لإيا مارتا .

«بلِّغي سلامي لجميع أهل البيت .» قلتُ . «يجب أن أمضي في طريقي .»

«انتظري ، انتظري ، أريدُ أن أشاركَكِ فرحتَكِ . أرى أنَّك الآن اثنان في واحد؟ أنتِ حبلى!»

«أحمد الرَّب .»

«أوه ، أمُّكِ ليستْ نائمة في السَّماء ، بل هي تصلي لكِ . حتَّى على الرَّغم من أنَّها بلا نسب ، أو على الأقلّ لم نعرف لها نسبًا ، واضح الآن أنَّها أُمٌّ صالحة .» لم تستطع تركي أذهب من غير أن توجِّهَ لي طعنتها . كانت أُمِّي ، وفقًا لرواية أبي ، تابعةً لقبيلة «فولانية» من البدوِ الرُّحل ، وعندما حبلَت منه رفضت الرَّحيل مع عشيرتها . مع ذلك ستذهب زوجاتُ أبي إلى قبورهن ، وهنَّ يلمزنها بقولهن إنَّها امرأة مجهولة النَّسب .

«أنا حقًا يجب أن أذهب .»

«لا تنسي زيارتنا أحيانًا ، حاولي أن ترينا وجهك ما بين فترة وأخرى ، ففي النِّهاية ما زال البيت بيت أبيك .»

كلَّما تزوَّج أبي امرأةً جديدةً ، كان يقول لأطفاله إنَّ مغزى العائلة هو الحصول على أشخاص يسعون إلى البحث عنكَ إذا اختُطِفتَ ، ثمَّ يضيف أنَّه يبذل ما في طاقته لبناء جيش ، تحسّبًا لتعرُّض أحدنا للاختطاف . كانت طرفة رديئة ، وأنا وحدي فقط ضحكتُ عليها ، اعتدتُ أن أضحك على طرفه كلِّها ، أظن أنه آمن بأسطورة عائلته الكبيرة المتناغمة هذه . لا ريب في أنَّه فكَّر أنني سأداوم على زيارة زوجاته بعد موته .

«إلى اللقاء يا إيا تونده .»

«أوه ، مع السَّلامة . بلغي زوجَك تحيَّاتي .»

فجأةً شعرْتُ أنَّ الأكياس البلاستيكية الَّتي أحملها أصبحت أثقل ، وامتننتُ كثيرًا لقاطع التَّذاكر عندما أخذ الأكياس منِّي وأنا أصعد إلى الحافلة ، إذ تركتُ سيارتي أمامَ المستشفى لأتجنَّبَ تحميل محركها القديم جهدًا غير ضروري . صددتُ أفكاري عن طفولتي الموحشة ، مسَّدتُ بطني من فوق ملابسي وواسيتُ نفسي . إذ لا سبب يدفعني لأخاف من شيءٍ ، حتَّى لو انتهت فنمي بأخذ أكين منِّي ، فأنا لن ألبث أنْ أحصلَ على مخلوقٍ لي وحدي ، على عائلة تخصّني .

وصلتُ في الوقت المحدّد لموعدي .

بعد الفحص بالأشعة ، تنحنحَ الطبيب جُنيد . «كم مضى على حملكِ؟»

«حوالي ستَّة شهور الآن .»

«متى قمتِ بآخر فحص؟» كتبَ شيئًا في الملفِّ المفتوح أمامه .

«منذ ثلاثة شهور ، ذاك كان قبل ثلاثة شهور . التقيتُ بتلك الطَّبيبة الشَّابة ، ولعلَّها بسبب صغر سنها أخطأت في التَّشخيص . . . نقصُ خبرة .»

توقّف عن الكتابة ونظر إلي . «أمم ، تظنّين أنَّها أخطأت؟»

«لذلك أنا هنا لأؤكِّدَ حملي . قالت أن لا جنين هناك .» ربتُّ بطني البارز . «يمكنكَ أن ترى بنفسكَ ، وأنا واثقة من أن هذا ليس مرض نقص بروتين .»

ضحكتُ ، أمَّا الطبيب جُنيد فلم يضحك .

«أرأيتِ أيَّ اختصاصيين بالخصوبة؟ أرأيتِ أيًا من أولئك قبل أن . . . أمم . . . قبل أن أصبحتِ تعتقدين أنَّكِ حبلى؟ أقمتِ بأيٍّ

فحوص؟»

«نعم، طبعًا. رأيتُ شخصًا في إليسا. أجريتُ الفحوص كلها، والفحوص بيّنت أنّني على ما يرام.»

«وزوجكِ، هل رأى اختصاصيًا؟»

«نعم، فعل.»

ذهبت أنا وأكين معًا إلى المستشفى مرّة. أجاب أكين عن معظم أسئلة الطّبيب. عندما سُئل عن حياتنا الجنسية، وضع أكين يده في يدي قبل أن يجيب، ومسّد إبهامي وهو يقول إنّ حياتنا الجنسية طبيعية، طبيعية قطعًا.

أغلق الطبيب جُنيد الملف الّذي انكبّ يكتب فيه ومال إلى الأمام. «إذًا، هل خضع زوجكِ للفحوص؟ أقام بأي نوعٍ من الفحوص و...؟»

«نعم، خضع للفحوص،» قلت. «اسمع يا دكتور، ماذا عن طفلي؟»

«سيدتي،» نقر بأصابعه على مكتبه. «لا طفلَ هناك.»

صفّقتُ ثلاث مرات وضحكتُ. «دكتور، أأنت أعمى؟ لا أريد إهانتكَ، لكن ألا ترى؟»

«رجاءً، اسمحي لي أن أشرح. هذه الأمور تحدث أحيانًا، تظنّ النّساء أنهنّ حبالى، لكنهنّ لسنَ كذلك.»

«اسمَع ما تقوله. أنا لا أظن أنّني حبلى، أنا أعرف أنّني حبلى. لم أرَ عادتي الشّهرية منذ ستة شهور. انظر إلى بطني، بل أيضًا شعرت بالجنين يركل! أنا لا أظن أنّني حبلى، أنا حبلى يا دكتور، أنا حبلى، ألا ترى؟ أنا حبلى.»

«سيدتي، هدّئي من روعكِ رجاءً.»

«أنا خارجة . لا أعرف حتّى هل العيب في الآلات الّتي تعمل عليها ، أم هو في دماغكَ .»

صفقتُ الباب خلفي وأنا أغادر الغرفة .

*

عندما اقترب الحمل من الشّهر الحادي عشر ، قرّرتُ زيارة جبل الانتصار المذهل ثانيةً . يوم ذهبتُ إلى هناك كان أكين في لاغوس لحضور اجتماع ، وسافر مع زملائه في سيارة المصرف الرسميَّة . لذا قدتُ سيارته إلى فسحة الأرض المستوية عند سفح الجبل . لمّا وصلتُ شاهدتُ سيارةً واحدةً في المكان . سيارةُ فولفو رُكِنت تحت ظلِّ شجرة لوز . ميَّزت فيها رقم لوحة سيارة السَّيدة عديلو .

كان كلُّ ما يحيط بي ساكنًا وهادئًا وأنا أتسلقُ الجبل . استغرقتُ ساعتين لأصلَ إلى القمّة ، لأنّني تريَّثت من وقتٍ لآخرَ ، أجلس على الصُّخور وأشرب الماء من الزُّجاجة الّتي جلبتها معي . كانت الشّمسُ عديمةَ الرَّحمة . انحدرَت حبّات العرقِ على طولِ ظهري نزولًا إلى شُقِّ ردفيَّ . رحتُ أسحبُ ياقة ثوبي من الأمام والخلف ليرطب شيءٌ من الهواء جسمي .

عندما وصلتُ إلى القمّة ، لم ألمحْ مخلوقًا حيًا واحدًا على مرمى بصري . تجوّلت في المنطقة إلى أنْ وجدت لوحًا خشبيًا خربش عليه شخصٌ ما : (النابي جوشيا موسافو . رجا عودون الشهير القادم لوعجيزاتيكم) . من سوء حظِّ النَّبي جوشيا ، فكّرت بيني وبين نفسي وأنا أربّتُ لفيفة أوراق النيرة الماليَّة في جيبي . أردت أنْ أهبه بعضَ المال . لم يطلب أيَّ مال لمَّا جئتُ أوّل مرّة ، وبدا لي أنَّ منحه هدية لن

يضرَّ. فرغَت زجاجة الماء الَّتي معي، وكنتُ عطشى وأشعر بالدُّوار. من خوفي أن أنهار وأنا في طريقي إلى النُّزول، مضيتُ أجول في القمّة، آملة في العثور على زجاجةِ ماءٍ منسيَّةٍ، ولساني يلهج بالدعاء كي لا أصاب بالكوليرا من أيِّ شيءٍ أجده. حينها رأيتُ سقيفة، سقيفة مصنوعة من أربعة أعمدة خشبيَّة، مرتبة لتشكِّل مربّعًا، ورؤوس الأعمدة مغطاة بسعف النَّخيل.

في السَّقيفة كان النَّبي جوشيا والسَّيدة عديلو يمارسان الجنس. رأيتُ وجهها؛ عيناها مغمضتان بما بدا أنَّه نشوة. قلنسوة النَّبي المميزة على وشك أنْ تسقطَ، عباءته مكوّمة حول خصره، كاشفة عن ردفيه المتدافعتين، ساقاه العاريتان في غاية الهزال.

*

غادرتُ قبل أن يراني أحدهما، وقضيت الشَّهرين التَّاليين في البيت، أنتظرُ قدومَ الطِّفل. ما عدتُ أذهب إلى الصَّالون، وتركتُ أكين يتعامل مع رئيسةِ المتدرّبات كلَّما جاءت لتعطينا الحساب في المساء. لم أطبخ الطَّعام، ولا قمت بالأعمال المنزليَّة. تولّى أكين أمر شراء الوجبات من «بوكاس» في البلدة، وجلس معي في غرفة اللهو ليتأكَّد من أنَّني سآكل شيئًا، كذلك أحضرَ لي صحفًا لم أطالعها. في صباحٍ ما أخبرته بأنَّني أوفِّرُ طاقتي كي أقوى على الدَّفع عندما يستعد الطِّفل للظهور. لم يقل لي أن لا طفل هناك، أو يسألني لماذا لم أفعل هذا عندما بلغ الحمل تسعة شهور. اكتفى بتقبيلِ ذقني قبلَ أن يغادر إلى العمل، وعندما عاد في ذلك المساء، أخبرني أنَّني إذا أردت أن أكون قويَّة عندما أنجب الطِّفل، أحتاج إلى النَّشاط. لم يشر إلى أيِّ أطباءٍ نفسيين، ولم يَظهر عليه ما يشير إلى أنَّه يمزحُ أو يلاطفُ شخصًا

مجنونًا . حادثني كما أردته أن يفعل طوال هذه الفترة ، مثل أبٍ يتوقّع مولودًا . أخذتُ بنصيحته وعدتُ إلى العمل في اليوم التّالي .

*

في عصرِ يومِ سبتٍ فتحتُ باب بيتي ، ووجدتُ فنمي في الخارج ، حولها عدّة صناديق وحقائب . سيارة الأجرة الّتي أنزلتها انطلقَت مثيرة سحابةَ غبار وهي تبتعد .

«تحرّكي واتركيني أمرّ .» قالت .

وقفتُ عند الباب مثل حارس وهي تتسلّل داخلة . راقبتُها تجرُّ حقائبها واحدة تلو أخرى ، مسبّبة بها الفوضى في غرفة الجلوس . كانت تلبس الرِّداء الشّعبي «بوبو» بلون أزرقٍ داكنٍ ، مكمّلة إيّاه بوشاحٍ يماثله لونًا ، ربطتهُ مثل الشريطة حول شعرها المضفور . بشرتها الزّاهيةُ أشرقت في ضوء الشّمس الّذي تدفّق نحو الدّاخل عبر الباب المفتوح .

«أين غرفتي؟» قالت بعد أن انتهَت من سحب حقائبها .

«في هذا البيت؟ أتحلمين؟»

«أنتِ ، يا هذه المرأة ، راعيتكِ كثيرًا ، فلا تتحفيني بمزيد من هرائكِ . هذا بيت زوجي أيضًا ، فلماذا تُبقيني خارجه؟» نزعَت وشاحها ولفّتهُ حول خصرها . «لماذا؟ أيتها المرأة الشّريرة ، طلبتُ منكِ أن تتزحزحي قليلًا حتى يتسنى لنا أن نجلس معًا . إن لم تلزمي الحذر ، سأدفعكِ خارج مقعدكِ كليًا .»

«كما ترين ، لستُ أنا مَن تزوّجكِ . زوجكِ المزعوم ليس هنا . عندما يعود يمكنكِ أن تطرحي عليه أسئلتكِ الغبية .» أشرتُ إلى الباب . «اخرجي الآن من بيتي .»

«أتعرفين شيئًا؟ أنا لا أرى سوى فمكِ يتحرّك ، ولا أستطيع سماع كلمةٍ واحدة . انظري ، هناكَ شيءٌ واحد قادرٌ على إخراجي من هذا البيت . شيءٌ واحدا»

«قلتُ ، اخرجي من هنا!» صحتُ وأنا أصفعُ فخذي مع كلِّ كلمةٍ .

«الشّيءُ الوحيد الّذي سيدفعني لأتركَكِ بسلام هو أن ترفعي بلوزتكِ وتريني بطنكِ . حملُكِ هذا مضى عليه ما يزيد عن سنة . أريني ماذا يوجد هناك ، لأنّنا سمعنا أقاويل في جميع أنحاء البلدة أنّك تحملين قرعة تحت ثيابكِ . نعم ، لقد كُشفَ أمركِ .» ضحكَت . «لكن يمكنكِ أن تثبتي كذب الأقاويل ، أثبتي للناس الشّريرين أنّهم مخطئون . أريني بطنكِ وسأتركُكِ بسلام . أقسم بالله .»

ضممتُ ذقني بإحدى يدي ، ولففتُ الأخرى حول معدتي المنفوخة .

«ألن تتكلّمي؟»

ماذا يمكن أن أقولَ؟ أنَّ حملي حقيقيٌّ؟ ما زلتُ لم أرَ عادتي الشّهرية ، ولو نحيتُ دثاري ورفعت بلوزتي لا قرعة ستسقط على الأرضيَّة ، ولا وسادة ستخرُّ على قدميَّ . كانت سترى بطني المشدود المنتفخ وشقوق الجلد المتشابكة على جسمي . كان يمكن أن أقولَ إنَّ حملي ليس حقيقيًا ، وإن فحصًا بالأشعة تلو فحص بيَّنَ أن ليس هناك شيءٌ ، على الرَّغم من أنَّ ركلات الجنين توقظني في الليل ، وأنَّ العاملات في صالوني يعتقدن أنّني مجنونة ، وآخر طبيبٍ رأيته أحالني إلى اختصاصيٍّ نفسيٍّ .

عجزتُ عن قولِ أيٍّ من هذه الأشياء ؛ ولم يتبق هناك إلا شيءٌ واحدٌ يُقال . الشّيءُ الّذي لم تتوقّع أن تسمعه منّي . أغلقتُ الباب والتفتُّ نحوها . «اتبعيني ، سأريكِ غرفتكِ .»

قدتُها إلى غرفة اللهو .

أنا لم أكن غبيّة ، أدركتُ أنّها مسألة وقتٍ قبل أن تظهرَ مومي لتتأكّدَ من أنَّ فنمي أصبحَت تقيم في البيت . إذا تشاجرتُ مع فنمي ، ستسوءُ الأمورُ ، وقد تطلب منّي مومي الرحيلَ . ومع أن أكين لا يكفُّ عن البوح بمدى حبِّه لي ، ما عدتُ أصدّقه . لكن ، أردتُ أن أصدِّقَه . كنتُ بلا أب ، بلا أمٍّ ، وبلا أشقاءَ . أكين هو الشّخص الوحيد في العالم الّذي قد يلاحظ حقًّا إذا اختفيتُ .

هذه الأيّام أقولُ لنفسي إنَّ هذا هو السّبب في تساهلي لأتكيّف مع كلِّ مستوًى جديدٍ من المذلَّةِ ، كي يبقى لديَّ شخصٌ يمكن أنْ يبحثَ عنّي إذا اختفيتُ .

الفصل الثّاني

IO

إليسا كانون الأول 2008

أحفرُ قبرَ أَبي ، أبذلُ جهدًا يفوقُ طاقتي ؛ لأنَّ زوج أختي بالغَ في تقدير قدراته عندما وعد أن يتولَّى المهمة . باعتباري ابن أبي البكر ، يُفترض بي أن أجرفَ أوَّل وآخر كومة رملٍ خارج القبر من أجل الوصاية ، ويفترضُ أنْ يتعهَّد صهري إنجازَ الباقي ، أو يدفع مالًا لشخص ما كي يُنجزَ العمل . وظننتُ أنَّ هنري سيستأجر عمَّالًا ، بما أنَّ هذا ما يفعله معظم النَّاس هذه الأيام .

يجيده ، لا بدَّ من أنَّكِ تتذكرين كيف أخبرتكِ منذ سنوات مضتْ أنَّ هذا التقليد سينقرضُ قريبًا ، كان ذلك عندما مات أبوكِ . حينما قامت عائلتكِ بترتيبات الجنازة ، قلتِ لهم إنَّني يجبُ أن أشاركَ في حفر القبر ، على الرَّغم من أننا لم نكن متزوجَين بعد . طبعًا ، ما كانت زوجات أبيكِ لتسمح بهذا . بكيتِ يومها إلى أن صار بياض عينيك ورديًا . حاولتُ تهدئتكِ ، أخبرتكِ أنَّ ذلك لا يهمُّ حقًا ؛ لأنَّ الجميع لن يلبثوا بعد سنوات قليلة أن يستأجروا العمَّال ليحفروا القبور . لستُ متأكِّدًا من أنَّكِ سمعتني آنذاك أو باليتِ . بقيتِ تبكينَ إلى أنْ غفوتِ في تلك الليلة .

لم أستطع البوح لكِ آنذاك بأنَّني تنفَّستُ الصعداء لأنَّني لم اضطر إلى حفرِ قبر أبيك . حينها كنتُ أؤمنُ بالأشباح ، وأفزعُ من المقابر .

مع ذلك، لو سمحَتْ لي زوجات أبيكِ بالحفر، لفعلتُ لأسعدكِ. يجبُ أنْ تعلمي هذا، بغضِّ النَّظر عمَّا يجول في ذهنكِ عنِّي السَّاعة، الأشياء الَّتي لن أفعلها لأسعدكِ معدودة. أنا الآن واثق من أنْ لا أشباح هناك، إذ لو كان لها وجودٌ، فهي حتمًا ستطاردني. وها أنا هنا، بعمق قدمين من الأرض تقريبًا، أساعدُ هنري ليُنجزَ العمل قبل حلول وقتِ مغادرتنا لنُحيي طقوسَ السَّهر على جثة الميت قبل دفنها.

هنري يفعل هذا ليثبتَ شيئًا لأهلي. على مدى ثلاث سنوات، أصرَّ أهلي على عدم تزويج ابنتهم الوحيدة من هنري لأنَّه ليس من اليوروبا. تشبَّثوا بقرارهم إلى أن قضت أختي على حججهم بالحبل من هنري. عندئذٍ، اضطرَّ الأشخاص الَّذين أقسموا بأنَّهم يفضّلون الموت على تزويجه ابنتهم إلى استدعاء هنري ليحدِّد يوم الزَّفاف؛ كي يأخذَ هذا الزفاف مجراه قبل أن يبدأ الحملُ بالظُّهور على ابنتهم. هنري الآن يتكلَّم لغة اليوروبا بطلاقة، يعرف عن تقاليدنا أكثر مما أعرف. وها نحن هنا، نكدحُ بصمتٍ تحتَ الشَّمس الحارقة، لأنَّ هنري ما زالَ يحاول أن يثبتَ لأهلي أنَّه جدير بابنتهم. واضح الآن، من أنفاسه الثقيلة، أنَّه قد وسّعَ الحقيقة إلى درجة التداعي عندما زعم أنَّه قادرٌ على القيام بهذا العمل «كما ينبغي أنْ يُنجز».

الشَّمسُ في غاية السُّخونة، أشعر كما لو أنَّ هناك فرنًا على ظهري. ذراعاي تتألمان كلَّما رفعتُ المجرفة، ومع ذلك أتابع الحفر. أفكِّر في دوتون وأنا أجرف، أفتقدهُ للمرَّة الأولى خلال هذه السَّنوات كلِّها. لو كان هنا، لكسر هذا الصَّمت، واكتشفَ طريقةً ما ليجعلني أنا وهنري نضحك. اتَّصل بي صباحَ اليوم حوالي السَّابعة. لم يعرِّف عن نفسه، لم يضطر. بمجرد أن قال: «صباح الخير»، ميَّزتُ صوته. قال إنَّه يتَّصلُ من فندقِ المطار، تسلَّم الرِّسالة الَّتي بعثتها له عن ترتيبات الجنازة،

وسيغادر «لاغوس» بحلول الظُّهر ليصلَ إلى «إليسا» في الوقت المناسب لحضور مراسم السَّهر على الميت . إنَّها محادثتنا الأولى بعد ما يزيد عن عقد ، ودامت أقلَّ من دقيقة واحدة . عندما أنهيتُ الاتصال ، لم أشعر بأيِّ غضبٍ توقّعت أن يجتاحني ، بدلًا من ذلك تملّكتني رغبة مفاجئة في أنْ ألازمَ السَّرير ، وأقضي اليوم نائمًا . اتصالُ دوتون جعلني أسأل نفسي إن كنتِ ستُقدِّرين دعوتي لكِ ، وإنْ كنتِ ستحضرين احتفال السَّهر ، وتوافقين على الجلوس إلى جانبي ؛ لتنشدي معي التَّراتيل .

هذه الأرض تزداد صلابة كلَّما تعمَّقنا في الحفر . إنَّها لا تبدو كالقبر ، بل مجرّد حفرة مستطيلة في الأرض . أتنحنح . «أعتقد أنَّ علينا استدعاءَ أحدٍ لينهي هذا .»

يبتسمُ هنري ، وينهار على جدار القبر . بدا كما لو أنَّه انتظرَ منِّي طوال اليوم سماع ذلك . يعبس . «أرينولا . . .»

أترقَّب بقية جملته ، لكنَّه لا يقول شيئًا . أمعنُ النَّظر في جبينه المقطَّب ، أحاولُ فهمَ ما يعنيه صمته . «لا تريد منِّي أنْ أخبرها أنَّنا تخلَّينا عن هذا؟»

«تأثرَت كثيرًا لمَّا أعلمتُها أنَّني سأحفرُ القبر .»

«حسنًا ، سنقولُ لها أنَّك حفرتَ القبر .» إنَّها الحقيقة . . . مبالغٌ فيها ، لكنَّها صحيحة . إضافة إلى أنَّه ما يمكن أن يتبقى من الحبِّ من دون أن نوسّع الحقيقة إلى ما بعد حدودها ، من دون هذه النُّسخ المميزة من أنفسنا الّتي نُظهرها باعتبارها النُّسخ الوحيدة الّتي لها وجود؟

*

تخبرني تيمي أنَّ مومي رفضَت النُّزول لحضور مراسم السَّهر على

الميت . وبينما أتساءل لماذا ، يخطر لي أنَّ أمي قد تكون حزينة على موت أبي . وأكادُ أضحك . أعرف وأنا أصعد الدَّرج ، درجتين كلَّ مرة ، أنَّ السَّبب شيء آخر . لا أعتقد أنَّهما كانا في يوم متيَّمين ببعضهما . مع ذلك تحمَّل أحدهما الآخر إلى أن غادرتُ أنا وشقيقي وشقيقتي البيت . عندئذ ما عادت أمِّي تهتِّم بإظهار التَّسامح ، وأطلقت عنان استيائها وغضبها المكتومَين طويلًا . ولم يقاوم أبي ، فالرَّجل المسكين تضاءلت طاقته بعد تعامله مع زوجاته الأربع الأصغر سنًّا . الآن وقد مات ، أتوقَّع أن تشعر مومي بشيءٍ من الحزن ، ممتزجًا ربَّما بقدر من الانتصار ؛ فقد صمدَت أكثر ممَّا صمد . أنعطفُ يسارًا عند وصولي ، وأيَمِّمُ غرفة جلوس مومي . بابُ غرفة نومها مفتوح على مصراعيه . وهي جالسة في سريرها ، ترتدي لباسًا أبيضَ كالأرامل الأخريات . ذراعاها مطويتان على صدرها .

«مومي ، تقول تيمي إنَّك لا تريدين أن تنزلي . لماذا؟»

تتنهَّد . «أكينيـــــل!»

عندما تدعوني أمِّي باسمي الكامل ، أدرك أنَّ هذا ليس بشيرَ خيرٍ أبدًا . أجتازُ الغرفة ، أجلس على مقعدٍ مريح ، أنتظرها أن تتابع .

«إذا ارتحلَت كذبةٌ ما عشرين سنة ، بل حتَّى مئة سنة ، لا تستغرق الحقيقة إلا يومًا . . .» ترفع يدها اليمنى ، تشير بسبابتها إلى السَّقف . «لا تستغرقُ الحقيقة إلّا يومًا واحدًا لتفضح الكذبة ، والحقيقة تطاردكَ اليوم يا أكين . . . اليوم هو اليوم الَّذي أعرف فيه أنَّك كذَّبتَ عليَّ بخصوص دوتون . . . ألمْ تخبرني أنَّه اتَّصل بكَ صباحًا؟ قلت إنَّه سيكون هنا بحلول هذا الوقت . فأين هو؟ أكينيـــــل ، أين ابني؟»

أمدُّ يدي إلى جيب بنطلوني ، أخرج هاتفي ، أطلب الرَّقم الَّذي اتَّصل منه دوتون في الصَّباح ، أضع الهاتف قرب أذني .

الرَّقم المطلوب لا يمكن الوصول إليه حاليًا. حاول لاحقًا رجاءً.

«أترين؟ لقد حاولتُ الاتصال به اللحظة يا أمِّي. لا يمكن الوصول إلى الرَّقم.»

«ما عاد في وسعكَ أن تستمرَّ في خداعي. أتظنُّ أنَّني سأنهار إذا أطلعتَني على الحقيقة؟ حتَّى لو كانت الحقيقة ستقتلني، هل أنا صغيرة جدًّا على الموت؟»

«مومي، عليكِ أن تُصدِّقيني.» تعبتُ من محاولة إقناعها بأنَّني لا أكذب عليها، لم أرغبْ إلَّا في أن يظهر دوتون اليوم ويضع حدًّا لهواجسها.

«على الرَّغم من أنَّ ما قد يقتلني هو أنْ أعرف أنَّكَ أنتَ ودوتون لم تسويًا ذلك الخلاف بينكما، وأنَّ دوتون ذهب إلى قبره من غير أن يسامحكَ،» تنهَّدَت مومي. «وأنَّه كان يمكنني أن أخاطبكما بلغة العقل، لكن لا، أنتما لم تخبراني لماذا تحاربتما.»

«أكرِّرُ لك أنَّنا سوَّينا الخلاف قبل سفره بفترةٍ طويلةٍ.»

دوتون يحتاجُ إلى مغفرتي أنا وليس العكس. مع ذلك أنا واثقٌ من أنَّه ما زال يظنُّ أنَّني أنا مَن عليه الاعتذار. يجيده، أدركُ الآن جازمًا أنَّ ما أحتاجه هو مغفرتكِ. لكن مسألة مسامحة دوتون، أو استجداء مغفرته سرعان ما تصبح ثانويَّة، وأنا أرى مومي تذرف الدُّموع للمرَّة الأولى منذ أن مات زوجها. هذه الدُّموع لا علاقة لها بأبي، هي كلُّها من أجل دوتون، ابنها المفضَّل.

«كيف تجرؤ على إخباري أنَّ ابني حيٌّ في حين أنَّه لم يأتِ ليرى والده، ليرى والده يُدفن؟ أكين، أنتَ تخدعني، أنا متأكِّدة من أنَّك كنتَ تخدعني طوال الوقت.» ارتعشَ صوت مومي لكنَّها لم تنشج، الدُّموع فقط استمرَّت بالانهمار.

«رجاءً جففي دموعكِ مومي ، اسمعي ، لننزل حتّى تبدأ مراسم السّهر . الجميع جالسون ، إنّها الرّابعة تقريبًا . أنا متأكّد من أنه سيصل خلال القدّاس .»

«إن لم تُحضِر دوتون إلى هذه الغرفة ، لن أشهد القدّاس .» تنزعُ وشاحَها ، تطويه إلى مربّعٍ وتضعه على طاولة السّرير الجانبية .

«مومي ، أنت تزعجين نفسكِ بلا سببٍ يُذكَر . لن يلبثَ أن يأتي .»

تضطجعُ على السّرير ، وتدير وجهها نحو الحائط .

هذا التّأخير يجعلني أفكّر أنَّ دوتون ما زال ذلك الرّجل نفسه الذي غادر هذه البلاد من غير أن يبلِّغ أحدًا من العائلة ؛ نوع الرجال الّذي يصل عندما ينتهي الاحتفال ، ولا يقدِّم أيَّ اعتذارات ، يروي طرفة ويتوقّع أن يضحكَ الجميع .

«مومي ، كفكفي دموعكِ رجاءً . دوتون ليس ميتًا .» أُحدِّق بساعتي ، إنّها تقريبًا الرّابعة إلا خمس دقائق . «مومي ، آمل أن تسمعيني ، إذا لم يحضر دوتون بحلولِ الخامسة سنبدأُ القدّاس .»

«مِن دوني؟»

«سأطلب من الكاهن أنْ يؤجِّلَ الاحتفال ساعة . لا أستطيع أن أطلبَ المزيد يا أمِّي .»

«لن يبدأ الكاهن من دوني .»

«سأطلب من تيمي أن تصعد وتدعوكِ عندما تقارب السّاعة الخامسة .» أقفُ . «رجاءً اطمئنِّي يا مومي .»

أنزلُ إلى الطّابق الأرضيِّ ، وأعود إلى الفناء الأماميِّ حيث جُهزت الشّرادقات . أنحني لأرحب بالنّاس وأنا أشقُّ طريقي خلال الحشد الصّاخب ، وطوال الوقت أبحثُ عن وجهكِ . عند مقدمة الصُّفوف ،

أكلِّم الكاهن، ثمَّ أهمسُ لزوجاتِ أبي بأنَّ القدَّاسَ سيبدأُ الآن في الخامسة. أتوجَّه إلى آخر السُّرادق من غير أن أجيبَ عن أسئلتهنَّ عن سبب تخلُّف مومي عن النُّزول. أحتاجُ إلى الابتعاد عن هذه الضَّوضاء، أتَّصلُ بحفار القبور، أتثبَّت من أنَّ مثوى أبي الأخير جاهزٌ.

أخرجُ من تحت السّرادق، ووراءه أرى سيارة أجرة صفراءَ وسوداءَ من سياراتِ الأجرة في «لاغوس». تقفُ السَّيارة والمخُ دوتون في المقعد الخلفي؛ هو وحده. يترجَّل من السَّيارة، يرفع رأسه فتلتقي عيوننا. هو أيضًا بدأ الصَّلع يغزو رأسه، وجهه نسخةٌ مترهلةٌ من النُّسخة الَّتي أتذكَّر.

أقفُ ويداي في جيبَي بنطلوني أراقبه. يتريَّث قرب سيَّارةِ الأجرة هنيهةً، ثمَّ يتقدَّم، يتقدَّمُ نحوي. وللمرَّة الأولى منذ ما يزيد عن عقد، أقف أنا وشقيقي وجهًا لوجه.

أحاولُ التَّفكير في شيءٍ أفعله، في شيءٍ أقوله. يتفوّق عليَّ في ذلك، يتهاوى على الرَّمل الأحمر، وعندما ينهضُ، يقول كلمتين، «شقيقي الكبير.»

لا أعرف من اندفع نحو الآخر أوَّلًا، وهذا لا يهمُّ؛ نجدُ أنفسنا نتعانق، نضحك، أعتقد أن أحدنا ترقرقت الدُّموع في عينيه.

يجيده، أتمنَّى أن يحدث هذا بيننا عندما تأتين... إذا أتيتِ.

II

إليسا 1987 وما بعد

في أحد الأيام، عدتُ من سفرةٍ إلى «لاغوس» ووجدتُ فنمي جالسةً إلى طاولة الطّعام، تتناول الأرزّ المقليّ بشوكةٍ. توقّفتْ عن الأكل عندما دخلتُ، مشتْ نحوي مبتسمة، لفّت ذراعيها حول عنقي، قبّلَت ذقني. فاحت أنفاسُها بما يشبه رائحة الثُّوم.

«أهلًا زوجي.» أخذَت حقيبتي. «كيف كانت رحلتكَ؟»

«عظيمة،» قلت. لم أرَ أنّه ثمّة داعٍ للقلق. تهيّأ لي أنّها اليوم تزورنا فقط.

«يجيده في الطّابق العلويِّ؟» سألتُ فنمي وهي تصبُّ لي كوبَ ماءٍ بارد.

زمّت فنمي شفتيها، تنهّدت، جذبتني إلى غرفة الجلوس. «لا بدَّ من أنَّ حركة المرور في لاغوس فظيعةٌ كالمعتاد، صح؟»

«كانت معتدلة.»

جلسنا صامتَين بينما شربتُ الماء.

في أغلب الأحيان، حاولَت فنمي أنْ تدردشَ معي، لكن كانت لدينا مشكلة، إذ ليس بيننا شيءٌ مشتركٌ، بمعزلٍ عن حقيقة أنّنا متزوجان. عادةً لا أنبسُ إلّا بالقليل ونحن معًا.

«أجلب لكَ شيئًا لتأكل؟» سألتني فنمي.

«لا ، شكرًا .»

«طبختُ أرزًا مقليًا ، وإذا رغبتَ في طعامٍ آخرَ يمكنني أن أطبخه لكَ . أتريد بطاطا مهروسة؟»

لا بدَّ من أنَّ شخصًا ما أقنعها بأنَّ إطعامي كلَّما سنحَت لها الفرصة قد يغيِّر مشاعري تُجاهها . فهي لا تسأم من عرض الطَّعام والشَّراب عليّ في أيِّ مناسبة .

«تناولتُ الغداء في بيت دوتون قبل أن أغادرَ لاغوس .لستُ جائعًا .»

«أوه ، لا بأس ، لاحقًا ربَّما؟»

أومأتُ برأسي ، ألقيتُ الكأس الفارغ على مقعد واطئٍ وهممتُ بالنُّهوض . وضعت فنمي يدها على ركبتي .

«أودُّ سؤالكَ عن أمر ،» قالت .

«وما ذاك؟»

«حبيبي ، أريدكَ أن تقضي الليلة معي .»

لطالما كان وقع كلمة «حبيبي» غريبًا على شفتيها . هي كلمةٌ لم تعنها ، وأنا لم أصدِّقها . مع ذلك ما امتنعَتْ قطُّ عن قولها ، كما لو أنَّها اعتقدَت أنَّ تكرارها سيحيلها إلى حقيقة . فكَّرتُ أن أطلبَ منها الكفَّ عن مخاطبتي بهذه الكلمة عدَّة مرَّات ، لولا أنَّ ذلك قد يكون تصرُّفًا قاسيًا منِّي .

«فنمي ، تعرفين أنَّني لا أستطيع الذَّهاب إلى شقَّتكِ إلَّا في عطلة نهاية الأسبوع .»

«لا ، حبيبي . أنا أقيم هنا الآن .»

«مـــــاذا قلتِ توًّا؟»

«انتقلتُ إلى هنا قبل يومين . الخالة يجيده أرتني غرفتي . أوه ، هي لا تمانع أبدًا ؛ في الحقيقة رحَّبَت بي بذراعين مفتوحتين .»

كانت أوّل فكرةٍ تبادرتْ إلى ذهني أن أطلب من فنمي حزم حقائبها فورًا والرَّحيل . أدركتُ أنّني لن أقدر على التَّحكم بميزان الأمور مع يجيده وفنمي تحت سقفٍ واحدٍ ، سيكون الضَّغط كبيرًا - من المحتَّم أنَّ شيئًا خطأً سيحدث . مع ذلك قاومتُ تلك الفكرة لأنّني عرفت أنَّ لدى فنمي شكوكها - لو طلبتُ منها الرَّحيل لأطلقت عقيرتها بالصُّراخ ملء رئتيها مصرِّحة بما لديها . أدركتُ أنَّ عليّ انتظارَ اللحظةِ المناسبة لأخرجها من البيت .

«حبيبي ،» بدأتْ فنمي وهي تمسكُ ذقني بيدها . «أأنتَ غاضبٌ لأنّني لم أطلب إذنكَ قبل انتقالي إلى هنا؟» نزلَت على ركبتيها . «أوه ، لا تغضب .»

«لا ، طبعًا . لا بأس ، انهضي رجاءً ، لا حاجةَ لكلِّ هذا .»

ابتسمَت ، ووضعَت رأسها على ركبتي . قرّرتُ حينذاك أنْ أترقّبَ اللحظة المناسبة لأتخلّص منها . ليس فقط خارج البيت ، ولكن خارج حياتي . زواجي منها ليس إلّا سوءَ تقدير حساباتٍ فظيع . أيقنتُ وهي تخلع لي حذائي أنَّ عليَّ أن أصلح المعادلة في أسرعِ وقت .

بدا لي أنَّ اللحظة المثاليّة لأطلّق فنمي لن تلبث أن تأتي ، كتلك اللحظة الّتي سنحت لي لأتزوَّجَ يجيده في الـ 1981 . في هذه السَّنة قُتل بوكولا أروغنديد ، أحد طلاب جامعة «أيفي» . حدثَ هذا قبل سنواتٍ من تحوُّل بعض مسيرات الاحتجاج في الجامعات إلى مظاهراتٍ إلزاميَّةٍ ، شُرِّعت من قبل مَن يُدعون شبَّان الاتحاد ، والَّذين أرغموا طلّاب السَّنة التَّحضيرية على الخروج من غرفهم ، والانضمام إلى المسيرات . الاحتجاجات سنة 1981 لطلبِ العدالة لـ بوكولا أروغنديد كانت مخلصة ، يحفّزها غضبٌ جماعيٌّ انتفضَ مع إراقة الدَّم ، كانت ثقة بالنَّفس غيرُ منطوقةٍ نصَّت على أنّنا إذا نجحنا في

الوصول إلى القصر وصرخنا بأعلى أصواتنا سيكترث شخصٌ ما .
كنتُ آنذاك أواعدُ يجيده ، أقود سيارتي إلى «أيفي» يوميًا بعد العمل لمجرّد أن أستنشقَ عبيرها . انتقلَتْ إليَ من كلماتها الساحرة عدوى غضبها المحموم . لم أرها قطُّ سابقًا تتصرّفُ كما تصرّفَتْ في ذلك اليوم ، استعبدتني العروق الّتي نفرت في عنقها وهي تتحدّث . وافقتُ على كلِّ كلمةٍ خرجَت من فمها ؛ بدا ذلك كما لو أنّها تقرأ ما في ذهني . طريقة نسخها أفكاري في تلك اللحظات ، كانت جديدة ، مثيرة ، وغريبة ، طريقة نسخها للهفتي وأحلامي ببلاد أفضل . اقتنعتُ أكثر من أيِّ وقتٍ مضى بأنّني عثرتُ على رفيقة روحي . أخذتُ يوم إجازةٍ وانضممتُ إلى الاحتجاجات طلبًا لتحقيقٍ شاملٍ وشفّاف بخصوص جريمة القتل .
مشيتُ أنا ويجيده في المسيرة جنبًا إلى جنب ، ننشد ونهتف . السُّحبُ المتكتلةُ فوقنا لم تفتّر حماستنا . زحفنا مع الحشد إلى بوابة الجامعة ، لم نشعر بالتّعب ، ولم تنقطع أنفاسنا . أصبحَ هتافنا أعلى ونحن نخرج من البوابة طائفين في البلدة . عندما بدأ المطر يتساقط ، اعتبرتُه مباركة من السّماء ، علامةُ موافقة . آمنت والماء يغرقني أنَّ الاحتجاج سيسفر عن نتائجَ تحثُّ بقيّة الأمّة على الاندفاع قدمًا . رأيتُ في ذهني الانتفاضة تأخذ مجراها وأنا أطرف عيني من وابل المطر - في الجامعات أوّلًا ، الطّلاب والمحاضرون يندفعون إلى الشّوارع للمطالبة بالتغيير ، بوضع حدٍّ للفساد ، بتجهيزٍ كهربائيٍّ ثابت ، بطرقاتٍ أفضل . رأيت ذلك كلّه في منتهى الوضوح . وعلى الرّغم من أن الاحتجاجات مضتْ في الاتجاه المعاكس ، تخيّلتها تكنس مدينة «إيبادان» ، تجرف أناسَ تلك المدينة كأنّها الفيضان ، تدفعهم معها إلى «لاغوس» ، ثمّ على طول الطّريق إلى المقرِّ الحكومي . كان الاحتمال

واقعيًا بالنِّسبة لي كحبات المطر المستقرة على شفتي وفي فمي ونحن ننشد :

وحـــــــدةُ مصيــــــرٍ إلى الأبـــــــد
وحـــــــدةُ مصيــــــرٍ إلى الأبـــــــد
وحـــــــدةُ مصيــــــرٍ إلى الأبـــــــد
ســـــــــــنكافحُ من أجلِ حقوقنا دائمًا
ووحححددة مصصييرر إلى الألألأ بددا

كان رجال الشّرطة ينتظرون في «ماي فير» . لعلعت الطّلقات النّارية . بدأ النّاس يتراكضون من حولي ، يزعقون وهم ينطلقون إلى الأجمات ، ينهبون الأرض نحو مصائرَ مجهولةٍ . ارتبكتُ في البداية ، جريتُ على غير هدى إلى الأمام مثل دجاجةٍ تفرفر في نزعها الأخير بعد أن قُطع رأسها . ثمّ أنا أيضًا اندفعتُ إلى الأجمات . كان ذلك مثل الغوص في الجحيم . من حولي ولول النّاس ، ابتهلوا ، لعنوا ، تعثّروا وانهاروا . بعضهم تحامل على نفسه ، نهض ثانية وتابع الجري . فتاة بجينزٍ ضيِّق وشعرٍ أجعدَ سقطت أمامي وبقيت هامدة . قفزتُ من فوقها ، واصلتُ الجري كما لو أنَّها ليست إلا مصرف مياهٍ في طريقي . ركضتُ لِما تهيأ لي أنَّه سنوات ، والأجمات امتدت إلى ما لا نهاية ، وعجَّت بأغصان الأشجار الَّتي وخزت عيني وفمي .

ثمّ رأيتُ أنّني عدتُ إلى الطّريق ثانية . لحظة وطئتْ قدماي المُدرَّج أردت العدوَ إلى الأجمات ثانيةً . بدا الطّريق مكشوفًا للغاية ، ولا مكان فيه للاختباء . لكن أبصرتُ الكثير من النّاس يخرجون من الأجمات . لو لم أتحرَّك ، لطُرِحتُ أرضًا . واصلتُ الجري . استغرقتُ

لحظةً قبل أن أدركَ أنَّني عدت إلى الحرم الجامعيِّ. أسرعتُ إلى موقف سيارات «موريمي»، حيثُ تركتُ سيارتي تحت شجرة لوز.

وجدتُ نفسي في السَّيارة قبل أن أتذكَّر يجيده. أحكم الرُّعب القبض على خناقي. أين هي؟ كانت تقف إلى جانبي تمامًا، تحمي رأسها بلوحة إعلان كرتونيَّة. قدحتُ زناد فكري لأتذكَّر أهي تلبس بنطلون جينز؟ أهي الَّتي قفزتُ من فوقها في الأجمة؟ في تلك اللحظة عجزتُ عن تذكُّر ما إذا كان شعرها مجعّدًا أم لا. وفي موقف السَّيارات عمَّت الفوضى، وتدافع الطُّلاب هنا وهناك في طريقهم إلى قاعة «موريمي» على مسافةٍ أبعدَ نزولًا. لم أعرف من أين أبدأ في البحث عنها.

فجأةً رأيتها قربي، تدقُّ على نافذة السَّيارة. لم أسعد قطُّ برؤية إنسانٍ آخرَ كما سعدتُ برؤيتها، أردتُ أن أربطَها في المقعد إلى جانبي، أعيشَ معها في السيارة إلى الأبد، لا أدعها تغيب عن عيني مطلقًا ثانيةً. لبثتُ أعانقُها حتَّى شعرتُ كما لو أنَّ ضربات قلبها المتسارعة أصبحَت ضربات قلبي. لم يقل أيٌّ منَّا شيئًا. انعقد لساني، مع أنَّ الكلمات سدَّت حنجرتي، سدَّتها بعواطف شلَّت حبالي الصَّوتية. حتَّى في هذه اللحظة أرى أنَّه كان يجب أن أقول شيئًا آنذاك، أخبرها كيف أنَّني لا أطيقُ خسارتها، وكيفَ أنَّ مجرد التَّفكير في ذلك قبل لحظاتٍ كاد يفقدني رشدي، وكيف أردتُ ربط نفسي بها لتبقى آمنة، لأبقى معها أينما ذهبَت.

لم أقل شيئًا إلى اليوم التَّالي، عندما علمنا أنَّ ثلاثةَ طلابٍ ماتوا في مسيرة الاحتجاج.

«تزوجيني الآن،» قلتُ. «الحياةُ قصيرةٌ، لماذا يتحتَّمُ علينا أنْ ننتظرَ إلى أنْ تتخرَّجي؟ سأعطيكِ سيارتي، يمكنكِ أن تقودي من إليسا،

ويمكن أيضًا أن تبقي في مسكن الطّالبات إذا شئتِ. لكن لنخبرَ أباكِ أنّنا مستعدّان.»

لم يساورني الشّكّ في أنها لن تقول نعم؛ لأنّ اقتراحي جاء في الوقت المناسب. لو فعلتُ ذلك في أيِّ وقتٍ آخرَ، لأصرّت بأنّها لا تريد أن تصبح طالبةً متزوِّجةً. لكن في ذلك اليوم من شهر حزيران، أخذَت يدي، وأومأت برأسها موافقةً.

في السّنة الأولى من زواجنا حلمتُ كثيرًا بالطُّلاب الّذين لقوا حتفهم. كنتُ أراهم مطروحين في صفٍّ لا نهائيٍّ على المُدرَّج، وكلُّهم يلبسون بنطلونات جينز ضيِّقة. ويجيده تقف دائمًا عند الطّرف الآخر من الجثث. أحاول عبثًا الوصول إليها، ولكن هناك جثثًا كثيرة في طريقي.

I2

قبل أسبوعين من تسلُّمنا رسالةً من لصوصٍ مسلَّحين ، افتُتِحَ صالون جديد إلى جانب صالوني . كانت مالكته إيا بولو ، امرأة بدينة غير متعلِّمة تتجشأ ما بين الكلمة والأخرى . إنْ قالت لأحدٍ صباح الخير ، تصبح لديه فكرة دقيقة عمَّا أكلته في وجبة الفطور ، إضافةً إلى رذاذ بصاقٍ يتبع كلَّ كلمة تنطقها . بناتُها تدفقن خارجَ صالونها مثل ماء من نافورة ، وأثرنَ الفوضى في الممرِّ المشترك بيننا . انتشرْنَ في جميع الأرجاء ، يزحفْنَ ، يجلسنَ أو يستلقينَ هنا وهناك . بناتٌ بشعرٍ وسخٍ ، أكبرهنَّ في العاشرة تقريبًا ، وأصغرهنَّ في حوالي الرَّابعة . ستُّ بناتٍ خلال ستِّ سنواتٍ . كرهتُ تلك المرأة كثيرًا في أوَّل أسبوعٍ لها ، بحيثُ أنَّني في لحظةٍ مجنونةٍ ، فكَّرت في نقل صالوني إلى موقع آخرَ .

كانت إيا بولو لا تكفُّ عن الصِّياح على بناتها . والزّبونات المعدودات اللاتي قصدنها غالبًا ما عدنَ إلى بيوتهنَّ ورؤوسهنَّ فيها بصاق أكثر من مستحضرات الشَّعر . تستقبل عادةً زبونتين تقريبًا في اليوم الواحد ، وأحيانًا لا أحد أبدًا . لا ريبَ في أنَّ فمها ، مِرشةُ البصاقِ تلك ، نفَّرهنَّ ، على الرَّغم من محاولاتها الجاهدة لإغراء زبوناتي بتحيتهنَّ بالكثير من العبارات اللطيفة والابتسامات الواسعة . ثمَّ ، سرعان ما أصبحَت تقضي وقتًا طويلًا في صالوني . تأتي قبل فترة قصيرة من الظُّهر ليتسنَّى لها أنْ تستمعَ إلى أخبار منتصف النَّهار من

مذياعي . ذاك المذياع لم يكن قديمًا فحسب ، بل بات مزاجيًا أيضًا . أحيانًا ، لنحصل على استقبال واضح ، تضطرُ إيا بولو إلى الوقوف قربه ، وتمسك اللاقط الهوائيَّ . وحالما تنتهي الأخبار ، تعودُ لتستقرَ على الكرسيِّ الَّذي يصرُّ تحت ثقلِ وزنها ، وتبدأ في توزيع نصائحَ تصفيفٍ غير مرغوبة .

إيا بولو هي الَّتي جلبَت لي الرِّسالة الَّتي تلقَّتها عائلتها من اللصوص المسلَّحين . كانت عائلتها تقيم في العقار نفسه الَّذي نقيم فيه ، وجميع العائلات المقيمة هناك تسلَّمت رسالة من أولئك اللصوص . طلبت منِّي أن أقرأَ لها رسالتها بعد مغادرة الزّبونات والعاملات .

صيغة الرِّسالة ماثلت تلك الموجهةَ لنا ؛ لم تختلفْ إلَّا في العنوان والتَّحية .

السَّيد والسَّيدة أديو ؛

نحيّيكما باسم البندقية .

نكتبُ لإعلامكما بأنَّنا سنزور عائلتكما قبل نهاية هذه السَّنة .

عليكما أن تُحضِّرا لنا رزمة نقودٍ . الكميَّة الدُّنيا الَّتي نقبل بها هي ألفُ نيرة . سنمنحكما الوقت لتجمعا المال . وسنكتبُ لكما لاحقًا لنطلعكما على تاريخِ زيارتنا المحدَّد .

«أهذا كلُّ شيءٍ؟» سألتني إيا بولو .

«نعم .»

عبسَت . «يجبُ أنْ أمعنَ التَّفكير في هذه المسألة . من أين يريدوننا أنْ نعثرَ على هذا المال؟ إنَّه يكفي لشراء سيارة .»

«لا شكَّ لديَّ في أنَّها دعابة . مجرد مزاحٍ غبيٍّ ، هراءٍ ،» قلت .

جرى هذا قبل فترة طويلة من تحوُّل ذلك النَّوع من الأشياء إلى حدثٍ منتظم . لم أستطع أن أتخيّل آنذاك أن اللصوصَ في نيجيريا سيصلون في يوم ما إلى هذه الوقاحة ، ليكتبوا رسائلَ حتّى يستعدَّ ضحاياهم لهجماتهم ، أنَّهم في يوم ما قد يجلسون في صالاتنا بعد اغتصاب النِّساءِ والأطفالِ ويطلبون من أهلِ البيتِ أنْ يُعدُّوا لهم البطاطا المهروسة ويخنةَ القرعِ بينما هم يتفرّجون على أفلامِ الفيديو الَّذي لن يلبثوا أن يفصلوه ويأخذوه معهم .

قلّة من الأشخاص صدّقوا مثل إيا بولو أنَّ تلك الرسائل حقيقية . وقد عزوتُ ذلك إلى افتقارها إلى التَّعليم المنهجيِّ . لم تشغل الرِّسالة الأولى بالي كثيرًا ، ولم أرِها لأكين . كانت هناكَ أشياء أخرى تعتملُ في ذهني . بعد انتقالِ فنمي إلى بيتنا بدأتُ أرى طبيبًا نفسيًا أيَّامَ الأربعاء . قبل ذلك ، لم أسمعْ قطُّ في يوم عن الحمل الكاذب . ومع أنَّها بدت لي عبارةً مُختلقة ، ذهبتُ إلى موعدي أسبوعيًا ، وبدأ جسمي يعود شيئًا فشيئًا إلى حجمه الطَّبيعي .

درجتُ على الذَّهاب مشيًا إلى صالوني ومنه ، لأنَّ طبيبي النَّفسِّي أوصاني بالتَّمرين . في الحقيقة وجدتُ قطعَ المسافة القصيرة على الأقدام مُهدِّئًا ، بعيدًا عن فنمي ورجوعًا إليها . حاولتُ إبقاءَ تركيزي على صالوني ، بيدَ أنَّني وجدتُ صعوبةً في ألَّا ألاحظَ التَّعديلات الَّتي صارت تقوم بها فنمي في غرفة الجلوس ، مثل تغيير أماكن الكراسي ، ووضع مزهرية بلاستيكية على طاولة الوسط . وبالتالي بذلتُ جهدي لأتحاشى المرور بها ، وقضيتُ معظمَ وقتي في الطَّابق العلويِّ . كان أكين مشغولًا في العمل ، وعاد في أغلبِ الأحيان ، وأنا أغطُّ في نومٍ عميقٍ ، لكنَّه خلال عطل نهاية الأسبوع أراد مناقشة تطوّراتِ علاجي .

لأسعده، طمأنتُه بأنّني ما عدتُ أمرُّ بأيامٍ ولا حتّى بلحظاتٍ أعتقدُ فيها أنّني حبلى.

أصبحَتْ إيا بولو حالةً ثابتةً في صالوني. نامت خلال ساعات العمل، وشخرَت بفم مفتوحٍ بينما بناتها يهِمن في الأنحاء، ولا تستيقظُ إلّا لتقفَ إزاءَ المذياع عندما تحينُ الأخبار.

لما تتالتْ علينا الرّسائل من اللصوص المسلحين، بدأتْ الأيامُ تتسارع كتسارعِ شريطِ فيديو بوضعيّةِ التّشغيل الأماميِّ السّريع. هذه الرّسائل اختلفَت عن الرّسائل التّمهيدية. ما عادت عبارات متطابقة يمكن أنْ يبتكرَها مراهقٌ سئمٌ. أصبحتْ ذاتَ طابعٍ شخصيٍّ، ووُجّهت إلى كلِّ عائلة بصيغةٍ مختلفةٍ، من أناسٍ لا بدّ من أنّهم يراقبوننا، يدرسوننا، وربّما يعيشون بيننا.

هنّأ اللصوص عائلة أغنبيادي بولادة بنتين توأم. باركوا لعائلة أوجو بسيارةِ البيجو 504 الجديدة ذات الهيكل الضخم الّتي ابتاعتها العائلة، واسوا عائلة فاتولا لخسارة لقب الزّعامة، ونصحُوا عائلة أديو (عائلة إيا بولو) بالتّفكير في تحديد النّسل. وعدوا أن يظهروا في غضون ثلاثة أسابيع، ونصحوا الجميع بعدم الانتقال من العقار، مُقسمين أن يبحثوا عنّا إذا تجرأنا على الانتقال. عرفوا الكثير عنّا إلى درجةٍ أنّنا صدّقنا بأنّهم سيعثرون علينا إذا حاولنا الهروب. ما عادت قلوبنا تخفق بوتيرةٍ طبيعيّةٍ، بل بدأتْ تدقُّ بإيقاعاتٍ عاليةٍ. بتْنَا نقفزُ عندما تعدو الجرذان قربنا، وامتنعْنَا عن التّجول مساءً. حتّى الأطفال خفّ لغطهم.

استخدمَت لجنةُ العقار مجموعةً من القنّاصة لحراسة العقار. لجنةٌ لم نحتجْ إلى تشكيلها قبل التّهديدات. كنّا كلّنا من الفئة المتعلّمة والعصرية في دُورنا المنفردة ذات الطّابقين، نطلقُ أبواقَ سياراتنا بالتّحية

عندما نلتقي في البلدة . نتزاور عند الضَّرورة : لاحتفالاتِ إعلان أسماء المواليد ، وأعياد الميلاد ، والجنازات العرَضِيَّة . لكنَّنا لم نتبادل تقديم أوعية المينا بالبطاطا المهروسة ويخنة القرع في عيد الميلاد ، أو توزيعَ لحم الخرفان المقلي في العيد الكبير . بدلًا من ذلك تمنَّينا لبعضنا «عيد ميلاد مجيد» و«رمضان كريم» من غير أن نغادرَ شرفاتنا ، ولوَّحنا بأيدينا ونحن نستقلُّ سياراتنا أو ندخلُ بيوتنا .

شُكِّلت لجنة العقار عندما وصلتنا الدَّفعة الثَّانية من رسائل اللصوص . وانضمَّ إليها جميع الأهالي هناك . كان أوَّل اجتماع رسميٌّ صاخبًا ، لكنَّنا نجحنا في الموافقة على استخدام خمسةِ رجالِ شرطةٍ ومجموعةٍ من القنَّاصة لينضموا إلى حرَّاسِ الأمن . قرَّرنا أيضًا أن تدفعَ كلُّ عائلةٍ ثلاثَ نيرات باعتبارها مُستحقات أمنٍ . وبَعث أكين والسَّيد أديو إلى مركز شرطة «أيسو» التماسًا طلبا فيه إرسال رجال شرطة إلينا فورًا .

في اليوم التَّالي تسلَّمت اللجنة من اللصوص رسالة . جاء فيها أن الشُّرطة على قائمة مدفوعاتهم . سخرنا من هذا ، وأومأنا برؤوسنا موافقين في اجتماع اللجنة حينما قال السَّيِّد فاتولا (رئيس الشُّرطة السَّابق) إنَّنا قد خدعنا اللصوص ورسالتهم الأخيرة خيرُ دليلٍ على مفعولِ ما أقدمنا عليه . استأنفَ رجالُ الشُّرطة واجبهم خلال الأسبوع التَّالي . مشهدُهم بالمسدسات ومشهد القنّاصة بأسلحتهم الدَّنماركية وهم يقومون بالدَّوريات في العقار طمأننا ، وما لبثنا أن نسينا أمرَ الرسائل .

ثمّ دعَت إيا بولو إلى اجتماع يخصُّ «النِّساء المقيمات في العقار» .

تلك أوَّل مرَّة أدخل فيها بيت إيا بولو . دهشْتُ لاكتشافي أنَّه كان في غاية النَّظافة والتَّرتيب . ممّا رأيته من إيا بولو في صالوني ، توقّعتُ

أن أجدَ غرفةَ جلوسها منتنة بالبول الرّاكد، ومكتظةً بالحفاضات المستعملة. بدلًا من ذلك فاحت برائحة منعشة وقويةٍ، تشبه رائحة الليمون، خمّنتُ من طريقة تمعُّن بقية النِّساء في أرجاءِ الغرفة أنّهنَّ هنَّ أيضًا توقّعنَ ما توقّعته. لم تظهَرْ ولا واحدة من بناتِها طوالَ الاجتماع. وما فتئْتُ أتساءلُ إنْ كانت قد خبأتْهنَّ في غرفةٍ ما أو في دولابِ الأحذية.

بدأت إيا بولو الاجتماع حالما جلسَتْ آخر القادمات. «يجبُ أنْ نستعدَّ للصوص. هؤلاء الأشخاص يغتصبون، هم يغتصبون الأطفال. يجب أن نتسلَّحَ بفوط صحيَّة.» ازداد اتساع عينيها مع كلِّ كلمة قالتها إلى أن بدتا كما لو أنَّهما ستُقتلعان وتتدحرجان تحت كرسيٍّ.

«بالفوط الصِّحيَّة؟ أيضعون فيها الرّصاص الآن؟» تساءلت السَّيِّدة فاتولا وهي تهزُّ رأسها.

ضحكت امرأةٌ واحدةٌ، ثمّ أُخرى، وسرعان ما ضحكنا كلُّنا باستثناء إيا بولو الَّتي بدت كأنَّها تهمُّ بالبكاء.

«أغلقْنَ أفواهكنَّ!» صرخَت إيا بولو. «لديَّ ستُّ بنات، أتدركن ما يعني هذا؟ أكبرهنَّ بدأَ صدرُها يتكوّر. بعضكنَّ لديهنَّ بناتٌ أيضًا، بناتٌ تأتيهنَّ العادة الشَّهرية. أيُّ شيءٍ ممكنُ الحدوث مع أولئكَ اللصوص. وماذا عنكنَّ؟ كم عدد الأزواج الَّذين يفضِّلون أنْ تصيبهم رصاصةٌ على أن يسمحوا لمجموعةٍ من اللصوص باغتصابكنَّ؟ أنا واثقةٌ من أنَّهم يتحرّون الآن طريقة للاختباء في السَّقف.»

«لن يأتي أيُّ لصوص، لدينا رجال الشَّرطة،» قالت السَّيِّدة أوجو الَّتي درست في إنجلترا لسنة واحدة، وتتكلَّم دائمًا بلكنةٍ بريطانيَّةٍ مصطنعةٍ، حتَّى وهي تتحدّث بلغة اليوروبا.

«صحيحٌ، لا حاجةَ إلى أنْ نخيفَ أنفسنا على لا شيء،» قلتُ.

صفّقتْ السَّيِّدة فاتولا. لمْ يجارِها أحدٌ في التَّصفيق.

هسهسَت إيا بولو. «اسمحنَ لي أنْ أُدلِي بما عندي. انقعنَ الفوط الصِّحيَّة بالنبيذ الأحمر أو بسائلٍ من أوراق الزُّوبو المغليَّة. ضعنَ الفوط في الليل في حال هجَمَ هؤلاء اللّصوص، عندئذٍ سيعتقدون أنكنَّ في فترة الحيض.»

«أهي مجنونة هذه المرأة؟ حتَّى لو كانت على صواب، تحيض نساء العقار كلهنَّ في الوقت نفسه؟ من قد يصدّق هذا؟» قالت السَّيِّدة أوجو بلكنتها البريطانيَّة المخنوقة.

هزَّت السَّيِّدة فاتولا رأسها استنكارًا ونهضَت.

«إنَّه جهلها، عقل فقير، لا بدَّ من أن أقول،» تأفَّفَت السَّيِّدة أوجو.

«لا وقتَ لديَّ لهذا، يجبُ أنْ أذهبَ إلى العملِ،» غمغمَت السَّيدة فاتولا.

«ماذا ترطنان؟» سألتني إيا بولو.

«أنْ لا شيءَ لنقلقَ بشأنهِ... استرخي فقط،» قلت لها بِلُغَتِنا. «لدينا رجال الشُّرطة.»

«حسنًا، هل فيكن من تخبرني، أساعدَت الشّرطةُ الصحفيَّ ديلي جيوا؟» سألتنا إيا بولو.

تهالكَت السيدة فاتولا على كرسيها كما لو أنها دُفعت بثقل سؤال إيا بولو. خيّم الصمت على الغرفة، وتلفّتَت السيدة أوجو تنظر حواليها كأنها تخشى وجود عميل استخبارات سري يتنصّت علينا.

في الشُّهور الَّتي تلتْ اغتيالَ ديلي جيوا، كانت البيوتُ تغرقُ في الصَّمت خوفًا كلَّما ذُكر اسمه. ولم يشكلْ أيَّ فرق أنَّ ولا واحدة من النِّساء في غرفة جلوس إيا بولو تتولَّى رئاسة التَّحرير في صحيفة أخبار،

مصير جيوا بدا كأنَّه شيء يمكن أن يحدث لأيٍّ شخص منّا ؛ لأنَّ المتفجّرة الَّتي أودت بحياته سُلِّمت إلى بيته بطردٍ هديةٍ . تَسلُّمُ طردٍ هو شيءٌ غير مؤذٍ يمكن أنْ يحدث يوميًا ، ويسعنا كلُّنا تخيُّلَ أنَّنا جالسون إلى مكتبٍ في بيوتنا لنفتحَ ذلك الطَّردٍ . ومع أنَّني لم أستطع تخيُّل رزمتي وعليها بطاقة لاصقة تحمل الدرع النيجيري والنقش الخاص بمكتب القائد العام ، عرفتُ أنَّني ، كما حدثَ مع ابن جيوا ، إذا تسلَّمت لأبي طردًا مماثلًا في الماضي من رئيس الدَّولة ، لن أتقاعسَ عن أخذه إليه في مكتبه . عندما تسلَّم جيوا الَّذي كان مع زميلٍ له الطَّردَ ، قال : مؤكّدٌ أنَّهُ من الرَّئيس ، وفتحه بعد أن خرج ابنه من المكتب . مات في المستشفى في وقتٍ لاحقٍ من ذلك اليوم ، أمَّا زميله الَّذي أصيبَ بالجُروحِ فنجا .

«أصدِقُكنَّ القولَ ،» قالت السَّيدة فاتولا ، «أنا أطلبُ من الخادمة أن تفتحَ رسائلنا الآن ، حتَّى تلك الَّتي من اللصوص المزعومينَ .»

لم أتخذْ أيَّ إجراءات وقائيَّة بخصوص الرَّسائل الَّتي تسلّمتها عائلتي . عندما قُتل ديلي جيوا كنتُ أقضي وقتي في البيت ، أوفِّرُ طاقتي كي أقوى على دفع طفلي ساعة يحين وقت الإنجاب . لم أُلقِ بالًا إلى الأخبار . وحينما عدتُ إلى عملي ، كان موت جيوا قد علَّم نيجيريا ضرورةَ الخوف من زعمائها . لكنْ على الأرجح اطلعتُ على الأحداث من خلال القراءة عنها لاحقًا ، ولم أشعرْ بفزعٍ جسيمٍ لأمتنعَ عن فتحِ رسائلي الخاصة .

في الصَّالون ، أزعجتني إيا بولو بإصرارها على الإلمام بتفاصيل الرَّسائل الواردة لعائلتي . وسألت بقية النِّساء عن تفاصيل الرَّسائلِ الواردة إليهنَّ ، ثمَّ جلسَت تحاولُ استيعاب ما يريده اللصوص من كلِّ عائلةٍ . بدتْ مهتمَّةً بحمايتنا ممَّا رأتْهُ مصيرًا مشؤومًا . بل كانت مهتمةً حقًا .

أطلعتُها على تفاصيلَ الرِّسالة الموجهة لي ولأكين. طلب منّا اللصوص ألّا نغادرَ العقار إلى شقّة فنمي لنتوقّى شرَّهم.

«كيف يعرفون عن بيتِ غريمتكِ؟ صدِّقيني إنَّهم حقيقيون. وسيأتون.» قالت إيا بولو.

كانت هذه المرأة مذعورةً للغاية، أحيانًا تأثّرتُ عاطفيًا باهتمامها؛ في أوقاتٍ أخرى أغضبتني مخاوفها. أما رأتْ رجال الشُّرطة يقفون على أهبة الاستعداد، وهم يحرسون العقار؟

13

كان شقيقُ زوجي من أولئكَ الرِّجال الَّذين يفوزون بأيِّ جدالٍ ؛ لأنَّهم أقدرُ على الصِّياح بصوتٍ أعلى ومدَّة أطول أكثر من أيِّ شخص آخر ، حتَّى لو تبيَّنَ أنَّ وجهةَ نظرهم غبيَّة . ولديه أيضًا طريقةٌ في لَوي رقبته بقدرِ ما يمكن أن تلتوي خلالَ احتدامِ النِّقاش ، معطيًا بذلك انطباعًا أنَّه قد يخنق نفسه حتَّى الموت إذا لَم يتَّفق معه مَن يستمع إليه . ومعظم النَّاس يتولَّد لديهم هذا الانطباع في نهاية المطاف . ولطالما فكَّرت في أنَّهم يسمحون له أنْ يقولَ ما عنده وبطريقته ، تحسُّبًا من تحمُّلهم مسؤوليَّةَ موتِه .

لم أحبَّ نسيبي ، إلَّا أنَّني كنتُ زوجة أكين ، ودوتون جاء كجزءٍ من الصَّفقة . كلَّما قدِمَ دوتون للزيارة ، سررتُ لأنَّه يعيش في لاغوس ، وتَباعُد زياراته لنا وفَّر لي مساحةً كافيةً للتنفُّس . اعتاد أنْ يروي مختلفَ أنواع الطُّرف الغريبة غير المضحكة أبدًا . وضحِكَ دائمًا بصوتٍ مُدوٍّ ، مُدوٍّ جدًا ، على طُرفه الكئيبة . كان البقاء على مقربةٍ منه متعبًا ، وفي أغلب الأحيان اضطررتُ إلى تخمين متى يُفترض بي أنْ أضحك ، بما أنَّ طُرفه خلت من نهايةٍ قابلةٍ للاستيعاب . ما اعتبرته قطُّ رجلًا يؤخذُ بجديَّةٍ ، إذ في خضمِّ ذلك الضَّحك كلِّه ، درج على إطلاق العديد من الوعود ، وعودٌ لم يلتزم بها قطُّ .

وعدنا دوتون مرَّةً بطفل ؛ قال إنَّه سيرسل أحد أبنائه ليعيشَ معنا إلى أن أحبلَ . عندما قال ذلك ، جثوتُ على ركبتي وشكرتُه . قبل

شهور من ذلك ، اقترحَت مومي أنْ أبحثَ عن طفلٍ . طفلٌ يحبو يمكن أن يبقى معي إلى أنْ أحمل . قالت إنَّ الأطفال لديهم نهجٌ في استدعاءِ أطفال آخرين إلى الدُّنيا . ووجودُ صوتِ طفلٍ ليس من صلبي بالقرب منِّي باستمرار سيستدعي أطفالي أنا ؛ يستعجلهم ليأتوا إلى الدُّنيا . المشكلة الوحيدة تمثَّلت في أنَّه لا أشقَّاءَ لدي ، ولم أتكلَّم مع إخوتي على مدى سنوات . ولا أقرباء يمكن أن يأتمنونَني على أطفالهم . وهكذا ، نسيتُ الفكرة إلى أن سمع دوتون بطريقةٍ ما عنها ، ووعدَ أن يرسلَ إلينا أصغرَ أبنائه .

كان اسم الصَّبي لياي ؛ في الثَّانية من عمره . جهَّزتُ غرفةً له في الطَّابق العلويِّ . ابتعتُ الألعاب ، والكتب المصوَّرة ، ودفاتر الرَّسم وأقلام التَّلوين . انتظرتُ . . . تكدَّس الغبار على الأغراض في الغرفة . انتظرتُ ، ونفضتُ الغبار عن كلِّ لعبةٍ وكلِّ كتابٍ بخرقةٍ ناعمةٍ . طلبتُ من أكين أن يتَّصل بأخيه ويلحَّ عليه ليفيَ بوعده ، فأخبرني أنَّ دوتون قد عدَلَ عن رأيه . جمَعَتْ تلك الأغراض المزيد من الغبار ، حزمتُ الألعاب كلَّها ، وأهديتها لآخرين .

على الرَّغم من ذلك سُررتُ عندما ظهر دوتون عند عتبة بابنا في صباح يوم سبت ، والشَّمس تبزغ من مكمنها بعد انهمار المطر . كانت فنمي مسافرةً في زيارة لأقاربها ، وأكين لا ينثني عن ملاحقتي أينما ذهبتُ في البيت ، مستفسرًا عن تفاصيلَ علاجي في المستشفى . بدا لي أنَّه ما زالَ يشعر أنَّ هناك جزءًا منِّي لم يصدِّق كليًا أنَّ الأطباء أصابوا في تشخيص حالتي . في ذلك الصَّباح ، تمادى في استجوابي إلى أن نعقتُ أخيرًا في وجهه قائلةً : «ثمَّة احتمال في أنَّهم مخطئون ، وأنا على صواب .»

«يجب أن تخبري طبيبكِ بما يجول في رأسكِ حقًا ،» هتف . «لا تقولي ما تظنين أنَّه يودُّ سماعه .»

أسعدتني رؤية دوتون لأنّني شعرتُ أنّه سيصرف انتباه أكين عنّي . كانا يستمتعان بصحبتهما معًا ، ويقضيان ساعات على الهاتف يتحاوران حول الألعاب الرّياضيّة ، والسّياسة وحالة الطّقس ، أحيانًا عندما يخال أكين أنّني لا أستمع ، يتناهى إليّ نقاشهما عن أيّهما أفضل ؛ امرأةٌ كبيرة الثّديين ، أو امرأة ذات مؤخّرة مستديرة . افترضتُ مع وجود دوتون بيننا أنّ أكين سيخفّف الضّغط الّذي يرهقني به .

«أوه ، أنا هنا ،» صاح دوتون حالما فتحتُ الباب . نحّاني جانبًا ليندفع نحو شقيقه . تعانقًا ، ثمّ رجع دوتون خطوة وانحنى لأكين . «شقيقي الكبير .»

كان أكين فارع الطّول بحيثُ اضطّر دائمًا إلى الانحناء قبل أن يعبرَ من مدخل الباب . بشرتُه سمراء برونزية وتحت الشّمس تصبحُ ذات بريق لّماع . دوتون يماثل زوجي في الطّول ، إلّا أنّ بشرته أفتح وجسمه أنحف ، وبخدّين يبدوان كما لو أنّهما قد جوّفا . ركعتُ لأرحبَ به . ومع أنّنا في السنّ نفسها ، كان من المنتَظَر منّي - لأنّه نسيبي - أن أعاملَه باعتبار أنّه يكبرني في العمر . اعتقدتُ دائمًا أنّه وغدٌ مثاليٌّ ، رجلٌ لا مبالٍ مطلقًا ، مع ذلك عاملته بالاحترام الواجب كلّما جاء .

«أهلًا يا سيدي ، عساكَ قضيتَ سفرةً مريحة ،» قلت .

استقرّ دوتون على مقعدٍ وثيرٍ ، ومدّ ساقيه على طاولة خشب الماهوغني الّتي تحتلّ وسط الغرفة . «زوجتي ترسل تحياتها . لديها نوبة ليلية في عطلة الأسبوع هذه . وأنا لا أستطيع التّعامل مع الأولاد وحدي ، عراكهم كان سيقنعني ، وأنا في طريقي إلى هنا ، بأن أقود سيارتي نحو شجرة . لذلك تركتهم في لاغوس . كيف نجت أُمّنا منّا؟ إنّه زمن الانتقام بالنّسبة لي . الأولاد مع خالتهم ، أخت زوجتي . يجيده سمعتُ أنّك أصبحتِ اثنين في واحد ؛ أنّك ابتلعتِ مخلوقًا

بشريًا! تقدَّمي لأراكِ بوضوح .»

وقفتُ أمام نسيبي ، ثمَّ استدرتُ ليتفحَّصني . الابتسامة الَّتي استقرَّت على وجه زوجي منذ ظهور دوتون سقطَت من على شفتيه .

«هي ليسَت حبلى ،» قال أكين . «إنَّها تمرُّ بحالةٍ مرضيةٍ وهي تراجعُ طبيبًا .»

«لكن مومي قالت . . .» بدأ دوتون .

«أنا حبلى ،» قلتُ وأنا أضع يدي على بطني ، راغبةً في أن يركلَ الجنين آنذاك ، راغبةً في أن يُثبتَ نفسه لي ، ولكلٍّ مَن في الغرفة ، وأضع نهايةً حتميَّةً لشكوكِ أكين .

«يا شقيقي الكبير ، المرأة هي الَّتي تعلن أنَّها حبلى أو لا ،» قال دوتون .

«اسألها كم مضى على حملها ،» تدخَّل أكين .

ركَّز دوتون نظراته على بطني ، مضيِّقًا عينيه كما لو أنَّني بطريقةٍ ما انكمشتُ ، وأنَّ عليه أنْ يبذلَ جهدًا جبَّارًا ليراني .

«أكين ، لا يمكنكَ أنْ تخبرَني بما أشعرُ به في جسدي .»

نهضَ أكين وقبضَ على كتفيّ . «لقد طُردتِ من تدريباتِ ما قبل الولادة يا يجيده . قمتِ بعمل خمس صور أشعة ، خمسة أطباء ، في إليسا وأيفي وإيبادان . أنتِ لستِ حبلى . أنتِ واهمة!» رغا اللعابُ عند زاويتَي فمه . «يجيده ، يجبُ أن ينتهي هذا . رجاءً ، أتوسَّل إليك . دوتون أقنِعْها رجاءً ، لقد تكلمتُ وتكلمتُ ، وبدأَت شفتاي تتقشَّران بسبب ذلك الكلام كلِّه .» كانت يداه تؤذيان كتفيّ .

فتح دوتون فمه ، ثمَّ أغلقه وفتحه ثانية . ما سبق قطُّ أن رأيته غير قادر على النُّطق .

«ماذا يعرف الأطباء على أيِّ حال؟» قال دوتون عندما عاد إليه

صوته من الذهول الذي ألمّ به . «إنّها المرأة الّتي تعرف أهي حبلى أم لا .»

صدَّقني دوتونا لم يستهزئ بي . ولم أرَ شكًّا في عينيه اللتين التقتا بعينيّ ، التقتا بلا تحيُّز . حوَت عيناه شيئًا لم أره في عيني أكين لمدَّة طويلة ، مدَّة طويلة جدًّا . الإيمان بي ، بكلماتي ، بسلامة عقلي . أردتُ أن أعانقَ دوتون بشدّة ، أردتُ أن يعزِّزَ إيمانُه بي أملي المتضائل ، أنْ تجرفَ ثقتُه بي اليأسَ اللابِدَ الّذي ينهشني .

«دماغُكِ يذوب يا يجيده . إنّه يذوب .» قال أكين . «تعبتُ يا دوتون من محاولة التّفاهم بالمنطق مع هذه المرأة المجنونة . أنا ذاهب إلى النّادي ، هل تأتي؟»

ما حدث قطّ أن وجّه لي أكين الكلام بهذا الأسلوب . وكلماتُه ستبقى تكرِّر نفسها في أذني لأسابيعَ ، وتجعلني أنكمشُ خوفًا كلَّ مرّة . دماغُكِ يذوب يا يجيده . إنّه يذوب ، يذوب .

همَّ دوتون بقول شيءٍ ليدافعَ عنّي ، لكنّني لم أنتظر لأسمعه . ضغطتُ راحتيّ على معدتي ، وتعثّرتُ على الدَّرج والدُّموع تعميني . وحالما دخلتُ غرفة نومنا ، سمعتُ صوت سيارة أكين تخرجُ من الفناءِ الأماميِّ .

أحيانًا يخطر لي أنَّ كلماتِ زوجي سهّلَت لي السّماح لدوتون بمواساتي . أعتقدُ أنّها أوهنتني إلى درجة أنّني اتكأت عليه بينما ضمّني إليه وأنا أبكي ، ثمّ قبّل شحمتي أذنيّ ، ونزع عنّي ثيابي . انتهى الأمر قبل أن يطرفَ لي جفنٌ ، تركني بمنيهِ وبوجع ناضب بين فخذَي . تملّكني شعور قوي بالشّفقة على زوجته المسكينة . أهذا كلُّ شيء؟ كلُّ ما تحصل عليه من دوتون ما بين أسبوع وأسبوع؟ أنا في أدنى الأحوال توقّعتُ أن أشعر أكثر ، رغمًا عنّي ، بخدرٍ ما على أقلِّ

تقدير ، حتّى لو خالف ذلك كلَّ ما تهيّأ لي أنّني أصدّقه ، أصدّقه قبل عطلة نهاية ذلك الأسبوع .

«ستكون أحسن في المرة القادمة ؛ سأكونُ أفضل . أنتِ جميلةٌ جدًا . . . أنتِ . . . أنا دائمًا فكّرتُ . . .» غمغم دوتون وهو يرفعُ بنطلونه على عجل . وحتّى مع محاولتي مغالطة نفسي ، عرفت أنّه ستكون هناك مرّةً قادمة . شعرت معه بشيءٍ مختلف ، بشيءٍ أكثرَ امتلاءً . أردت أن أجرّب ذلك مرّة أخرى . ألحّت عليّ غريزتي الأولى أن أخبرَ أكين ، لكن ، كيف تقول المرأة لزوجها : أريدكَ أن تضاجعني كما ضاجَعني شقيقكَ؟

اختبأتُ في الغرفة بقية عطلة نهاية الأسبوع . تركتُ الباب مفتوحًا ليتسنى لي أن أسمعَ أكين ودوتون يضحكان أو أسمعَ صوتيهما يرتفعان في خلافٍ ما . لم أسمع شيئًا ؛ ساد السّكون في الأسفل . كان الصّمت سيّد الحاضرين ، وصلَ إليّ ليلكمَني بشدّة في معدتي ، لكمني إلى أن شعرتُ أنني فقدتُ طفلي المعجزة في فيضانٍ من دموعٍ آثمة .

عندما جاء أكين إلى السّرير ليلة الأحد ، وجدني متقوقعة على نفسي . كنت أنتحبُ على طفلي الذي فقدتُ ، طفلي أنا .

وقف عند الباب . أيقنتُ من أنّه لن يقترب منّي ، أنّه سيبتعد . كنتُ واثقة من أنّ يدَي شقيقه قد تركت بصماتها على جلدي . بصماتٌ لمعت ليراها زوجي تحت ضوء النّيون الّذي يشعُّ في غرفتنا ، بصماتٌ لم تجرفها الحمامات السّاخنة الّتي أخذتها .

أغلق أكين الباب ، نزعَ قميصه والقميص الدّاخلي ، بعناية طواهما عند نهاية السرير واستلقى قربي . فرد أوصالي ، وترك رؤوس أصابعه تتتبع خطوط جسمي .

«أنا آسف،» قال. «أنا آسف جدًا.»

همس اسمي، يجيده، يجيده. خرجَ اسمي في غاية الرِّقة من بين شفتيه، صوتٌ خلّابٌ بدا أنّه هو بحدٍّ ذاته مداعبة. رغبتُ في أن يفطن إلى ما عجزتُ عن قوله، أنّ طفلي، أنّ الحمل الّذي رعيتُ قد انتهى. أنّني عدتُ فارغةً من جديد.

قبّل وجهي حتّى بدأتُ أتأوّه باسمه بدلًا من أنْ أقولَ شيئًا آخر.

أردتُ أن أجري إلى الطّابق الأرضيِّ إلى دوتون، لأقولَ له: انظر! انظر إلى ما يمكن أن يثيره بي أكين من مشاعر بملامسته وجهي فقط. انظر!

همسَ اسمي، نفَسه حارٌّ على بشرتي. ارتعشتُ وحجبتُ شفتيه بشفتي. انتقلَ إلى عنقي فأغمضتُ عينَي. هذه المرّة، لم أغرق في الأحاسيس المُدغدغة الّتي تخلقها أصابعه ولسانه. احتجزَ المتعةَ أملي الشّرس بأنّ كلّ شيء سيجري بشكلٍ مثاليٍّ، أنّ كلّ شيء في موقعه المناسب لي لأحبل.

سافر دوتون في صباح يوم الاثنين. تلكأت يده مدّة طويلة على كتفي وهو يودِّعني. وتساءلتُ في سرِّي أتراني لمحتُ أكين يسحن أسنانه بينما لوّحنا معًا بأيدينا لسيارةِ دوتون المنطلقة.

I4

عندما جاء اللصوص المسلَّحون أخيرًا ، بدَوا كمجموعة من الرِّجال التَّائهين الَّذين انتهَى بهم المطاف إلى غرفة جلوسنا ليستفسروا عن وجهة الطَّريق . تكلَّموا بإنجليزيَّةٍ خاليةٍ من الأخطاء ، جلسوا على الكراسي مثل الزُّوار ، وطلبوا شيئًا يشربونه (لا كحول خلال العمل رجاءً) . ثمَّ صوَّبوا بندقيَّةً على رأس كل فرد منَّا ، وأمرونا أن نحزمَ الإلكترونيَّات الَّتي لدينا .

مبدئيًا ، كانت تلك أقرَب إلى زيارةٍ منها إلى هجوم . بل حتَّى قال أحد الرِّجال شكرًا عندما فرغ من شرب زجاجة الـ «ليمكا» . ثمَّ بعد دقائق من عودتنا أنا وأكين وفنمي إلى البيت بعدما نقلنا الإلكترونيات إلى شاحنتهم ، سمعنا طلقًا ناريًا ، تلاه صراخٌ أحدث ثقوبًا في الليل السَّاكن . ثمَّ تبعته عدة طلقات ناريَّةٍ ، دوَّت بصدى أبقى سكَّان العقار صاحين بوجوهٍ تتصبب عرقًا ، وأفواهٍ جافَّة لشهور قادمة .

دفعني أكين أرضًا بعد الطَّلقة الأولى ، ورمى جسمه فوقي . بقينا كذلك ونحن نجاهد كي لا نتنفَّس بصوتٍ عالٍ . لم يغب عنِّي أنَّ فنمي انبطحت أرضًا أيضًا في مكانٍ ما في غرفة الجلوس ؛ وراحت تنشج بلا انقطاع إلى أن طلب منها أكين أن تسكتَ . بقينا على الأرضيَّة إلى الفجر ؛ لم يتزحزح أكين مرَّةً واحدةً ، ولا حتَّى عندما سألته فنمي إنْ كان لا يهتم بحمايتها هي كذلك .

عندما نهضنا في الصَّباح ، بدأت فنمي تبكي .

«أنتَ لا تحبُّني ،» قالت لأكين . «أنتَ لا تهتمُّ مطلقًا .»

لم يردَّ أكين ، سألني إن كنتُ بخيرٍ وخرجَ ليتفقَّد جيراننا ، أمَّا أنا فصعدتُ إلى الأعلى تاركةً فنمي وحدها في غرفة الجلوس .

اكتشفْنا أنَّ الطَّلقات وُجِّهت إلى نوافذ السَّيارات وأثاثها وهياكلها . لا أحد تعرَّض للأذى ؛ على الرَّغم من أنَّ السَّيد فاتولا غاب عن الوعي لحظة دخل اللصوص بيته . ولم يفق إلَّا بعد أن رحلَ اللصوص ، وصبَّت زوجته كوب ماء ببرودة الثَّلج على وجهه . كتبَت لجنة العقار عريضةً إلى مقرِّ الشَّرطة في «أيسو» عندما أعلمَنا القنّاصة المُستأجرون أن لا أحد من رجال الشُّرطة جاء إلى العمل يومها . بعدما قالوا ذلك ، أعلنت السَّيِّدة أوجو بلكنتها البريطانيَّة أنَّ أحد رجال الشُّرطة كان من ضمن اللصوص . إنَّما لم يولها أحدٌ منَّا أي اهتمام . بدا جليًا أنَّ رجال الشُّرطة مشتركون في العملية بطريقةٍ ما ، لكن ، أبلَغَت بهم الجرأة حدَّ رفع السِّلاح في وجوهنا؟ لم يخطر لنا حينها أن الأوضاع في البلاد قد وصلت إلى هذه الدَّرجة من السُّوء .

*

في حين بقيَت إيا بولو قلقة من اللصوص ، شغلَت ذهني أمورٌ أفضل . بدأ بطني ينتفخ بجنين ، وماكينات التَّصوير فوق السَّمعي وافقت هذه المرة . دسستُ صورَ الأشعة اللماعة تحت إطار مرآتي الخشبيِّ ، في الزَّاوية العليا ، حيث يتاحُ لي أنْ أراها كلَّما مشطتُ شعري صباحًا . دأبتُ على تناول الفاكهة ، وأعدَّ لي أكين يخنة الخضار كلَّ ليلة . ومعَ أنَّ الحصى خالطها في معظم الأوقات ، لم أتذمَّر . رفضتُ أن أستبدلَ

بخزانة ملابسي أخرى ؛ رغبةً منّي في أن تُظهر أثوابي الضّيقة جدًا بوادر الحمل . وبقيتُ على هذا المنوال إلى أن تمزّق أحد أثوابي من تحت الإبط إلى الرّكبة وأنا أنهض لأنضمّ إلى جماعة المصلّين كي أشارك في بركة قدّاس الأحد .

أصبحتُ معروفة بـ «المرأة الحبلى بالثّوب الممزق» حتّى بعد الولادة . لكنّني لم أكترث والنّاس يشيرون نحوي ويخفون ابتساماتهم بأيديهم أثناء التّراتيل ، أو خلال الصّلاة النّيقية في الكنيسة . أصبحتُ خالدة ، جزءًا من سلسلة حياة لا نهاية لها . حياة جديدة تركل بطني ، وتبشّرني بالحصول على مخلوق يحقّ لي أن أدعوه ملكي وحدي . ليس زوجة أب أو أخ غير شقيق . ليس أبًا أتقاسمه مع دزينتين من الأطفال ، أو زوجًا تشاركني به فنمي ، إنّما طفل . . . طفلي أنا .

هذه الأفكار غمرتني بسعادة جمّة أفزعتني . بدا لي ذلك كثيرًا جدًا ، أن يحظى إنسان بهذا القدر من السّعادة والحظّ الميمون . أكثر من مرّة ، في شهور حملي الأولى ، كنت أرفع يديّ عن مقود السّيارة وأنا أقود ، وأضعهما على بطني ، باسطةً راحتي لأغطي أكبرَ قدر ممكن منه ، في محاولة منّي لاحتجاز الجنين فيّ ، لئلّا يندفع على أرضيّة سيارة الفولكسفاغن ويترك بطني يتدلّى مقفرًا أثناءَ مداهمةٍ مفاجئةٍ من سوءِ الحظّ ؛ لأنّ سعادتي العارمة اللانهائية جعلتني أتخلّف عن ساعة الولادة .

نعيب أبواق سيارات السّائقين الآخرين وشتائمهم ما انفكّت تنبّهني إلى أنّ أيَّ حادث ما هو إلّا طريقة حتميّة لأفقد الجنين . لدهشتي لم أتعرّض مطلقًا لحادث خلال لحظات دعمي بطني . هذا أعاد لي تيقّني بأنّ سوء الحظّ لن يلبث أن يأتي قارعًا الباب .

وأنَّ حياتي السَّعيدة أروع من أن تكون حقيقيَّة ، وقريبًا قد تتحطّم فوق رأسي . بدأتُ أسدُّ كلَّ الدُّروب المحتملة للحظ السَّيئ . عاملتُ فنمي بلطف ، أسديتُ لها نصائح تتعلّق بأكين ، من لون أحمر الشّفاه المفضَّل لديه (أحمرُ لمَّاع سيبدو صارخًا على شفتيها) ، إلى كيف يحبُّ الفاصولياء (مائعةَ المرق مع كثير من الشَّطة) كنتُ مستعدّةً للمشاركة . الرَّجل ليس شيئًا تكتنزه المرأة لنفسها ؛ في وسعه أن يحصلَ على عديد من الزَّوجات ، أمَّا الطّفل فليس لديه إلَّا أمٌّ واحدة حقيقيَّة . . . واحدة فقط .

خلافًا لأسوأ أوهامي كلِّها ، تطوَّر الحمل بسلاسة ، وسُرَّ الأطباء كلَّما قصدتهم لإجراء الفحوصات . مع حلول الثُّلث الأخير تلاشى قلقي واسترخيتُ لأتمتع بالحمل . أحببتُ أوجاعَ ظهري . تفاخرتُ بتورُّم قدميّ ، وتذمّرتُ بلا انقطاع من صعوبة عثوري على وضعيَّة مناسبةٍ للنوم . كانت تلك أروع فترةٍ في حياتي .

15

أطلقنا على الوليدة اسم أولاميد، إضافة إلى عشرين اسمًا آخر. كانت ذات بشرةٍ صفراء غضّة، ويصطبغ وجهها بلونٍ ورديٍّ عندما تبكي، وهذا تقريبًا حدث دائمًا، إلّا عندما يُلقّم فمها الحلمة. أذناها تميّزتا بأحد ظلال اللون البنيّ المماثل لظاهر يدي أكين. أكّدت لنا مومي أن أكين وُلد هكذا أيضًا، وأنّ لون طفلتنا الجميلة لن يلبث أنْ ينضجَ من الأصفر الغضّ إلى درجة لون أذنيها البُنيتين.

كانت مراسم التّسمية كرنفالًا. وُلدت أولاميد يوم سبت، أكثر أيام الأسبوع ملاءمةً. وحضر احتفال تسميتها بعد سبعةِ أيام مئات النّاس، فذاك اليوم لم تنافسه أيام العمل، ولا قدّاس الأحد. وصلت زوجات أبي يوم الجمعة؛ جئنَ وعلى وجوههنّ ابتسامات تخفي مشاعر خيبة الأمل الّتي كمنَت في زوايا عيونهن. تلصّصن على المهد حيثُ تنام أولاميد كما لو أنهنّ توقّعنَ أن يشاهدنَ وسادةً ملفوفةً بشالٍ بدلًا من طفلة. بالغنَ في إظهار عواطفهن الفيّاضة للتعبير عن عمق سعادتهن، وذكرنَ أسماءَ قساوسة وكهنةٍ زرنهم ليصلين من أجلي كي أحبل. قابلت دجلهنّ بابتسامة عرفان، ثمّ دفعتهنّ خارج غرفة نومي قبل أن يتمكنّ فعلًا من لمس طفلتي.

جاء دوتون مع زوجته وأبنائه من «لاغوس». وصلوا قبل الاحتفال، تقريبًا والـ «دي جي» يهمسُ في مكبّر الصّوت اختبار اختبار، واحد، اثنان، واحد، اثنان. كنتُ في غرفة النّوم، أجلس على دلوٍ فيه مزيج

من الماء السّاخن والشبّة ومادّة مُطهِّرة ، وأتساءل في سرِّي لماذا على مُعدِّي المراسم أن يقولوا تلك الكلمات ولا شيء آخر غيرها أبدًا . ساعتها وقفَت مومي تراقبني ، لتستيقنَ من امتناعي عن الوقوف قبل أن يتغلغلَ بخارٌ وافٍ في مهبلي ليضيِّق جدرانه .

ثرثرَت مومي . «ليس بعد وقت طويل الآن ، ستشرع أصابع أكين مجدَّدًا في تقصِّي ما تحت دثاركِ في الظّلام .»

في ذلك اليوم ، تمنَّيتُ أن يتقصّاني ما هو أكثر من أصابع ابنها ، بيد أنّني لم أشارك حماتي هذه الأمنية ، حماتي الّتي أزعجتني إشاراتها المُقنَّعة بعباراتٍ رقيقة عن الجنس .

كان ينبغي أن أتنفَّس الصُّعداء عندما دخلَت زوجة دوتون ، لتحرّرني من فرضيات مومي عن مهارة ابنها الجنسيَّة ، وتوفِّر لي فرصة للهروب من البخار الّذي جعل مهبلي المتقرِّح يحترق كما لو أنَّ شيئًا من الفلفل الأحمر قد حشر فيه . بدلًا من ذلك تزايد الشُّعور بالسُّخونة فيَّ بينما قمتُ لأعانق كنَّتي الباكية . نشجَت أجوك على كتفي العاري وأنا تشبثتُ بيدها بقوة ، خشيةَ أن يفلتَ منها الزِّمام وتصبَّ مزيج ماء الشبّة على رأسي . مؤكَّدٌ أنّها كانت تعرف ، ومؤكَّد أنَّ العار يصمني في أسعد أيام حياتي .

تراجعَت أجوك إلى الوراء ، وضحكَت ضحكتها الغريبة الّتي بدت أنّها تنبعث من كلِّ جزءٍ من كيانها ، تصعد من أصابع قدميها تمامًا إلى الأعلى حتّى تتفجّر في فمها . «الرَّبُّ رحيمٌ . ربُّنا واسعُ الرَّحمة .» ثمَّ ابتسمَت ، عيناها مفعمتان بفرحٍ وبهجةٍ عكستا ما شعرتُ به أوّل لحظة ضممتُ فيها ابنتي إلى صدري . ما سبق أنْ قالت لي أجوك أيَّ شيء عن الحمل خلال التَّجمعات العائليَّة ؛ كانت امرأة نادرًا ما قالت لي أو لغيري أيَّ شيء مطلقًا . فوجئتُ

وخجلتُ من تصرُّفها العاطفي غير العادي. عانقتُها ثانية حتّى لا ترى عيني. انضمّت إلينا مومي في عناق فضفاض. طوّقتنا ضحكاتنا. ندّت عن أجوك أصواتُ سرورٍ وخزتني كما قد تخز المرء شوكة.

بكت أولاميد طوال حفل التّسمية، ولو لم يكن هناك مكبّر صوت، لما سمع أحد القسّ يعدّد أسماءها. رجعتُ إلى الطّابق العلويِّ وأرضعتُها إلى أن غفَت. في الأسفل دام الاحتفال حتّى ساعات الصّباح الأولى، بقي فترة طويلة بعد انتهاءِ أداء الفرقة الموسيقيّة الحيّة، وتدفّقِ الطّعام والجِعة، إلى أن أغفى معظم الضّيوف على الكراسي المعدنيّة. لم أنضمّ إلى الاحتفال، حتّى عندما أنشد لي أكين المخمور أغاني الحبّ، وحاول جرّي إلى الطّابق الأرضيّ معه. لم أكن مستعدّة لأترك طفلتي مع أحد آخر، ولا حتّى مع حماتي. فكّرت في أمّي. لو أنّها بقيَت على قيد الحياة، لرضيتُ أن أعطيها أولاميد وأنزل لأرقص.

*

في الصّباح التّالي، كانت أولاميد أوّل من استيقظ من أهل البيت. بكاؤها باغت نومي. حمّمتها وأرضعتها، وسرعان ما استغرقَت في النّوم وهي ما زالت ترضع من صدري. انتظرتُ حتّى يخفّف فمها تمسّكه بحلمتي قبل أن أحاول ربطها إلى ظهري بدثار. ثمّ مضيتُ إلى الأسفل بحثًا عن لقمةٍ آكلها.

حالما حطّت قدماي على أوّل درجةٍ زعقتُ. ترنّحتُ وأنا أنزل من غير أن ينقطع صراخي، ويدي قابضة على الدّرابزين من أجل الدّعم.

عند نهاية الدّرج ، استلقت فنمي بلا حراك . كانت بقميص نوم وردي لا يشبه أيّ شيء رأيته في حياتي ؛ له شريط واحد فقط عند كتفها اليسرى ، أما الجزء الأيمن منه فينتهي عند سرّتها ، كاشفًا عن ثديها الأصفر . هذا إذًا كلّ ما يلزم لاختطاف رجلٍ من سرير زوجته ، فكّرتُ حتّى وصوتي يدوّي مستنجدًا ويدي تحاول رفع رأس فنمي من فوق بركة دم صغيرة ؛ ثديٌ أصفر عارٍ وقميص نوم وردي .

كان جسم فنمي باردًا . نفضتُ رأسي وصرختُ أناديها . أسرعَت حماتي إلى النُّزول بعد أن لفّت دثارًا حول صدرها كيفما اتفق ؛ على بعد خطوات خلفها ظهر أكين وأجوك .

«ماذا حدث؟» نعقَت مومي مع أنّها كانت تقف إلى جانبي .

«فنمي؟» وقف أكين يحدِّق في زوجته كأنّه لا يعرف من هي . نَفَسُه فاح كريهًا ، كرائحةِ مزيج من الثُّوم والكحول .

جثمَتْ مومي إلى جانبي ، رفعَت يد فنمي وراقبتها تسقط بعنف على الأرضيّة . حاولَت أن تقحم إصبعًا من بين الأسنان المطبقة بقوّة وهي تردّد اسم الفتاة مرارًا وتكرارًا .

«آآآآه ، أنا محشورة ، محشورة تمامًا في مكان ضيّق ،» قالت مومي وهي تقف ، ثمّ رمَت يديها في الهواء ، وبدأت ترقص . لطمَت وجهها وترنّحت يمنة ويسرة ، حانية ركبتيها ومولولة على مراحل . «لقد راكمتُ دينًا لا أستطيع سداده ؛ أنا في ورطة . فنمي ماذا تريدين منّي أن أخبر أمك؟ آآآآه ، أنا عالقة .»

أجوك هي من خطر لها أن تتفحّص نبض فنمي ، وضربات قلبها .

تشبثتُ بأكين حينما انحنَت أجوك فوق فنمي ، غرزتُ أظفاري بذراعه ومومي تواصل لطم رأسها ، لم تسكت إلّا بعدما رفعَت أجوك رأسها ونظرَت إلينا .

«لقد رحلَت ،» همسَت أجوك .

«آآآآه! أنا في زيت مغلي! فنمي! آآه! أنا غارقة في الدِّين أوه . دينٌ أبديٌّ ،» ندبَت مومي وشرعَت ترقص مجدّدًا .

«ماذا يجري؟»

التفتنا كلُّنا نحو الدَّرج حيث وقف دوتون في الأعلى ، لا يرتدي إلّا لباسه الدَّاخلي .

أغلقتُ عيني ، وتمنيتُ لو أنَّ فنمي اختارت يومًا أفضل للموت . يومٌ منفصلٌ عن مراسم تسمية أولاميدتي . لم يجدر بي أن أفكر على ذلك النَّحو ؛ كان يجب أن أشعر بالحزن . بدلًا من ذلك غلبني الانزعاج ، الشُّعور بأنَّ الأضواء سُرقت منِّي ، لكن ليس الحزن ، لا على الإطلاق .

*

غيَّرنا البلاط في غرفة الجلوس لأنَّ دم فنمي استعصى على الزوال . وقفتُ أحيانًا عند قاعدة الدَّرج حيثُ رأيت جسدها وحدَّقت إلى الأعلى . وأنا أكاد أتوقّع رؤيتها تتبختر نزولًا على الدَّرج مرّة أخرى أخيرة بحذاء الكعب العالي الَّذي تنتعله في أنحاء البيت ، ووقع قدميها كمسامير تدقُّ في الإسمنت . بل ما فتئتُ أتوقّع ظهورها عند عتبة بيتنا ، يدها ممدودة حتَّى أرى طلاء أظفارها الجديد . أحيانًا وأنا أفرمُ البامية في وعاء ماء ، أشعر بعينيها على نقرتي ، لكنَّها لم تكن قطّ خلفي عندما أستدير ، فقط باب المطبخ يتأرجح من مفصلاته . لم يبق لها أثرٌ في الغرفة الَّتي شاركَت بها زوجي . حتَّى ثيابها اختفَت من الخزانة . لم يبقَ فيها إلّا صفوف من المعاليق الجرداء الَّتي لم تحزمها

أختها حينما جاءت وراء حاجيات فنمي .

كانت الأختُ نسخة مُروّعة من فنمي ، أطول فقط ببضعة إنشات . احتجتُ إلى إلقاءِ نظرةٍ ثالثةٍ على نعل حذائها المستوي بالأرض لأقنعَ نفسي بأنّها ليست فنمي بالكعب العالي . لم تخاطب أحدًا وهي تنقل ممتلكات أختها المتوفاة خارج بيتنا . تنفّستُ الصّعداء عندما غادرت . توقّعتُ مسرحية ما ، صفعة أو صفعتين على وجنتي لبقائي حيّة بعد غريمتي . أمَا جعلني ذلك مشتبه فيها بعد موت فنمي المباغت؟ كم خشيتُ أن يقترح شخص ما بأنّني دفعتُ الفتاة المسكينة على الدّرج ، لكن لا أحد فعل . استنتجَ الجميع بأنّ فنمي ، بعد مراسم الاحتفال بتسمية أولاميد ، كانت تترنّح مخمورة ، فتعثّرَت وانزلقَت وهي ترتقي الدّرج خلال وقت ما في الليل .

لم أحضر جنازتها ؛ رأت مومي أنّ عائلتها قد تغضب من مشاهدتي . أمّا أكين ففعل . وبمعزلٍ عن الأمسية الكئيبة الّتي قضاها في كرع الجعة عندما عاد من الجنازة ، لم يبدُ أنّه يتفجّع على موت فنمي مطلقًا . لا حملقة في الفراغ ، ولا انفجارات غضب على مذيعي الأخبار في التّلفزيون ، أو على مقعدٍ واطئ يسدُّ طريقه ، لا لياليَ طويلة بعيدًا عن البيت تنتهي به وهو يتمايل في درب العودة ويتقيّأ في المدخل .

صرف أمسياته يردّد أغاني يختلقها لأولاميد ، ويقرأُ مقالات الصّحيفة لها بصوتٍ عالٍ . اطّلعَتْ ابنتي على كلِّ شيء ، على إجراءات لجنة مراجعة الدّستور ، وعلى الجمعية التّأسيسية قبل أن تصبح بعمر ثلاثة أشهر . كانت مراقبةُ زوجي يخبر ابنتي أمورًا لا تستطيع فهمها ، المشهد الأروع جمالًا . كان ذلك مثاليًا جدًا ، سرياليًا جدًا إلى درجة أنّني أردتُ ضغط زر الحياة على وضعيّة التّوقّف في

تلك اللحظات .

اختفَت فنمي من ذاكرتي ، ببطءٍ كاختفاء حلم سمج .

وما لبثت يدا أكين أن بدأتا تتلمّساني في ساعات الصّباح الباكر . يتجاوز أولاميد النّائمة ليضغط صدري وهو يهمس شيئًا عن صنع طفلٍ آخر . وعلى الرّغم من أنّ مومي دسّت ثلاثة أصابع في مهبلي وأكدتْ لي أنّه ضاق كما ينبغي قبل أن تُنهي علاج ماء الشّبة ، لم أشعر بالاستعداد لممارسة الجنس . أخبرتُ أكين ، لكنّه تجاهل كلامي ، وأغواني بأسلوبه الخاص عن كم ستغدو حياتنا رائعة بوجود طفلٍ آخر .

تخاذلتُ ، كما فعلتُ دائمًا تحت ثقل صوته المبحوح .

*

ستتخطى بشرة أولاميد لون أكين البُني ، لتتخذَ لوني ، لون أُمّي ، سواد منتصف الليل الّذي يتوهج على نحوٍ أثيريٍّ في الشّمس الحارقة . ستحصل على الجوائز كلّها ، وأنا سأقف طوال حفل توزيع الجوائز في مدرستها ، أصفّق بحرارة وقوّة حتّى يعلم الجميع أنّها طفلتي . ستثابر إلى أن تلتحق بالجامعة ، طبعًا ، وتصبح طبيبة أو مهندسة ، أو مخترعة ، وتفوز بجائزة نوبل في الطِّب أو الكيمياء أو الفيزياء .

في وسعي أن أرى هذا كلّه في عينيها عندما ترضع من صدري ، وكنتُ منذ لحظتي تلك فخورة بها .

16

بعد حوالي شهر تقريبًا من ولادة أولاميد، ذهبتُ إلى الكنيسة لأوّل مرة منذ أن تزوجتُ يجيده.

توقّفتُ عن الاكتراث بقدّاس الأحد عندما كنتُ في الجامعة. لكنّني حافظتُ على الظّهور في احتفالات عيد الميلاد وعيد الفصح قبل الزّواج. ومُذّاك لم تطرق قدماي الكنيسة في صباح أيِّ أحد، إذ لم أجدْ أنَّ لديَّ ساعة واحدة إضافيّة في أسبوعي لأهدرها بالجلوس على مقاعد الكنيسة الطّويلة. ثمَّ بعد أسبوعين من ولادة ابنتي، عاودتني الكوابيس، أرى فيها المشاهد نفسها لمسيرة الاحتجاج الّتي شاركتُ بها في «أيفي» خلال الـ «1981». وحلمتُ دائمًا بالفتاة صاحبة الجينز المطروحة أرضًا تحت المطر، الاختلافُ الوحيد كان وعيي بأنَّ كلَّ فتاة على الأرض هي فنمي. ولذا عدتُ إلى الكنيسة.

لم أجلس في الخلف إلى جانب العديد من الرِّجال الّذين أرغمتهم زوجاتهم الملحاحات على حضور القدّاس، يغفون بأفواه مفتوحةٍ أو يطالعون الصّحف. تقدّمتُ إلى أقرب نقطة ممكنة من الصّفِّ الأماميِّ. جلستُ على مقعد يتيح لي أنْ أرى بوضوحٍ زجاجَ النّافذة الملوّن وراء المذبح. وذلك المشهد الزّجاجيُّ يُظهِر المسيح والحواريين الاثني عشر في العشاء الأخير. أحد عشر مُريدًا يجلسون إلى الطّاولة، والثّاني عشر - المُفترض أنّه يهوذا - يبدو في طريقه إلى الخروج، ظهرُه إلى السّيد المسيح.

عندما صعد القسُّ المنبرَ، لمحتُ رأس العجوز الّتي على يميني يتدلّى، كما لو أنّها تهمّ بالصّلاة. بيد أنّها سرعان ما أخذت تشخر بصوتٍ خافت. بدأ القسُّ موعظته بقراءة صلاة الرّب من الكتابِ المقدّس الضّخم المستقرّ أبدًا على المنبر الرّخامي. توقّف عند وسلّمنا من كلِّ شرّ، وتنفّس بعمق عبر مكبّر الصّوت. همس الكلمات همسًا، مكرّرًا المقطع مرّة تلو مرّة، متريّثًا قليلاً بعد كلِّ كلمة، صوته يعلو مع تكراره للمقطع إلى أن راح يصيح عبرَ مكبّر الصّوت: وســـلّمنا. مـــن. كـــل. شـــرّ.

إلى جانبي، بوغِتت العجوز من نومها. تلفتَت تنظرُ في أرجاء الكنيسة، ثمّ أراحت ذقنها على صدرها مجدّدًا.

«نحن في أغلب الأحيان نطلب من الرّب أن يسلّمنا من الشرّ،» قال القسُّ. «وهذا ما يجب. على أيٍّ حال ينبغي أن نتمعّن أيضًا في الشّرور الشّنيعة الّتي نسعى إليها بأنفسنا. ما نحن فاعلون بالشّرور الفظيعة الّتي يمكن أن نسلّم أنفسنا منها؟ لماذا ننتظر دائمًا الرّب بينما نحن نجترح الكثير من الشّرور بأيدينا؟ أتريثنا لنفكّر في الشّرور الّتي نودِعها في العالم؟ القائمة لا نهائيّة، مع ذلك اسمحوا لي أن أذكّركم بها: الزّنا، الخمول، الحسد، الغيرة، المرارة، الغضب، السُّكر...»

جالت عينا القسّ في الصّفوف وهو يخطب. التقت عيوننا لمّا ذكر السُّكر، كأنّه درى شيئًا عنّي، شيئًا خفيًا، سرًا ما. نظرَتُه تلكأت عندي؛ لعلّه أراد أن يختلج قلبي. عطفتُ رأسي من جانب إلى جانب، بتأنٍ، كما تخيّلت أنَّ القدّيسين قد فعلوا ذلك عندما سمعوا كلَّ شيء عن الخطايا الدُّنيوية.

في الحقيقة، أنا لست سكّيرًا، لا أعاقر الخمر كثيرًا. قد تمضي شهور لا أقرب فيها الكحول، ولا حتّى قدح نبيذ. لو اضطررتُ إلى

حساب عدد المرات الَّتي سكرت فيها طوال حياتي ، لما تجاوزَت أصابع اليد الواحدة . كنت في سنّ المراهقة عندما سكرتُ أوّل مرة . آنذاك ، درجَ أبي على إرسالي لأبتاعَ له قرعة نبيذ نخيلٍ منعشٍ في المساء . وغالبًا ما رافقني دوتون . في طريق عودتنا إلى البيت ، نعمدُ إلى رشفِ القليلِ من الخمر ، ثمّ نمضغ أوراق الملوخية النّيئة لنتخلّص من الرّائحة قبلِ دخولنا البيت . في أحد الأيام ، قرّرتُ أنا وأخي أنْ نأتي على كلّ ما في القرعة . اقتضَت الخطّة أن نقولَ لبابا إنَّ بعض المتشردين هاجمونا ، واختطفوا قرعة النّبيذ منّا . تلك كانت آخر مرّة يرسلنا فيها بابا لنحضر له نبيذ النّخيل .

وفقًا لمومي ، وصلتُ أنا ودوتون إلى شارعنا مخمورَين ، نخبط القرعة ، ونردّد تراتيل الكنيسة ، تجاوزنا بيتنا ، تقدّمنا إلى محيط دارنا ونحن ندعو الأرواح التّائهة إلى التّوبة . لامَت مومي بابا على إرساله أطفالها لشراء الكحول . وبدوره لامَها هو على تربيةِ أولادٍ لا يستطيعون السّيطرة على المشروب . دامَ الجدال سنةً بأكملها ، لا يخمد إلّا ليندلعَ ثانيةً في لحظات فجائيّة ، عبر صوت مومي الحادّ وصمت بابا المتعمّد .

يوميًا ولمدّة أسبوع هزّأتْ مومي أردافنا بعصا ، إلى أن باتت كلُّ خبطة تميتنا وجعًا ، منتزعةً منّا الوعد بألّا نقرب الكحول . خصّتني بعددِ مضاعف من الضّربات عن ضربات دوتون ، وذكّرتني بأنّها توقّعت منّي ما هو أفضل لأنّني ابنها البكر ، وباكورة قوّتها . في الأسبوعِ التّالي اكتشفتُ الجعة . أهمُّ ما فيها أنَّ مومي لم تميّز رائحتها في أنفاسنا لأنَّ بابا لم يشربها في ذلك الوقت . كنتُ أنا ودوتون نسكب الجعة في كوبين من البلاستيك ، ثمّ نرشفها تحت أنف مومي ونحن نخبرها أنّنا نتشارك زجاجة مشروب شعير .

بينما استأنف القسُّ موعظته في ذلك الأحد ، سجّلتُ في المفكّرة

ملاحظة لأحضر صندوق جعةٍ استعدادًا لزيارة دوتون التّالية ؛ إذ خطّط أن يمكث في «إليسا» بضعة أيام وهو في طريقه إلى «أبوجا» في وقتٍ ما خلال الأسبوعين القادمين . عندما رفعتُ رأسي ، لم أنظر إلى القسّ ، بل حملقتُ في زجاج النّافذة الملوّن . ولأوّل مرّة صعقتني شفتا يهوذا المقلوبتان ، تساءلتُ أتراه شعر منذ تلك اللحظة بالنّدم على ما هو بصدد اقترافه . في صباح الأحد ذاك كان لديَّ ما أندم عليه ؛ النّدم بسبب انغماسي بالسّكر أثناء مراسم تسمية أولاميد . شربتُ جعتي الأولى بعد وصول دوتون من «لاغوس» مع عائلته حوالي العاشرة صباحًا ، قبل الشُّروع في الاحتفال تمامًا . وقفتُ في غرفة التّخزين المجاورة للمطبخ ، في المكان الّذي لن يخطر على أحدٍ أن يبحث عنّي فيه . ابتلعتُ جرعة بعد جرعة من الجعة الدّافئة إلى أن أفرغتُ ثلاث زجاجات دفعة واحدة . وهذا جعل ابتسامي أكثر سهولة عندما انضممتُ ثانية إلى الحشد المتجمّع في بيتنا للاحتفال معي أنا ويجيده . على الرّغم من ذلك ، لم أتلعثم وأنا أقرأ الإحدى وعشرين اسمًا الّتي ستحملها أولاميد .

كان كلُّ اسم مساهمةً من عضو رئيسٍ في العائلة . حتّى زوجات والد يجيده ساهمن بالأسماء . أمّا اسم أولاميد فهو من اختيار يجيده ، لكن الجميع توهّموا أنّه من اختياري بما أنّه أوّل اسم تلوته . في الحقيقة أنا لم أمنح تلك الطِّفلة أيَّ اسم ، ولا اسمًا واحدًا . يسَّرَت الجعة تدفّق الأسماء على لساني كما لو أنّها أسماء تفكّرت مليًا في معانيها ، أنا والد الطِّفلة ، قبل أن أوافق على إضافتها إلى القائمة المكتوبة الّتي قرأتُ منها . كان أيسر بكثير جدًا أن أكون أبًا بعد ثلاثِ زجاجاتِ جعةٍ .

هنأني الجميع . دعوني بابا أبورا ، وبابا إكوكو ، وبابا بيبي ، ثمّ بعد

تلاوة الأسماء ، دعوني بابا أولاميد . زملائي صفعوني على ظهري ، قالوا إنَّ الطِّفل الثَّاني لا بدَّ من أن يكون صبيًا . والأصدقاء أعلنوا أنَّي تساهلت مع يجيده بإنجابها بنتًا ؛ ويجبُ في المرَّة القادمة أن ننجب ولدًا – بل يُستحسن إنجاب ولدين ، ثلاثة ، أربعة ، بقدر ما يمكن أن أسكبه في وعائها دفعة واحدة . ثمَّ تذكَّر أحدهم فنمي ، تذكَّر أنَّني الآن أقوم بواجب مضاعف .

قرَّر زملائي وأصدقائي أنَّني أحتاج إلى الدَّعم ، الدَّعم الَّذي قد يحتاجه أيُّ رجل إذا واجهته مهمة تلقيح امرأتين جميلتين لتنجبا الصِّبيان . حان وقت الاستعداد ، قال أحد أصدقائي . كنَّا نجلس حول طاولة معدنية تحت خيمة المشمّع الكبيرة الَّتي استُعمِلت لمراسم التَّسمية ، نشرب الجعة ونأكل اللحم المقليّ بينما جرى الحديث . لم أكن مخمورًا كمعظم الجالسين إلى الطَّاولة عندما اقترح دوتون أنَّني يجب أن أشرب عدة زجاجات «أوديكو» لأتحضَّر للمهمة الَّتي بانتظاري .

دوتون هو من جلب صندوق تلك الجعة المُسكِرة القويَّة إلى طاولتنا . ناولني الزُّجاجة الأولى والرِّجال المتحلقون حول الطَّاولة يهتفون : أوديكو ، أوديكو ، أوديكو . ثمَّ وقفوا ليناولوني زجاجةً بعد زجاجةٍ ، كما لو أنَّ كلَّ واحدةٍ منها ما هي إلَّا هدية – مساهمتهم الخاصة في تعزيز رجولتي وتأهيل عائلتي بعدد وافر من الأطفال ، لأعوِّض عن السِّنين السَّابقة ، عندما طالبني عدد لا بأس به منهم بفعل شيءٍ بخصوص المرأة العاقر الَّتي في بيتي . ناولوني زجاجةً تلو زجاجةٍ ، هتفوا لي كلَّما خبطتُ زجاجةً بُنيَّةً فارغة على الطَّاولة ، كأنَّني أحد أسياد الحرب العائدين من معركة وهو يحمل رأس عدوه .

لا أتذكّر كيف التحقَت بنا فنمي إلى تلك الطَّاولة ، وكيف هي

أيضًا اشتركَت في تهيئتي للسُّكر استعدادًا لمهمة زحم بيتنا بدزينة أطفال. لكن ما لبثتُ أنا وفنمي أن أخذنا نتبادل الزُّجاجات، ونضحك كالمهابيل. كانت تلك أوَّل مرَّة أرى فيها فنمي تشرب الجعة القويَّة. لا، السُّكر لم يشكِّل يومًا أزمة لي أو للنساء في حياتي. وبينما بدأ القسُّ يختتم موعظته في ذلك الأحد بعد شهر من موت فنمي، استقرّ بي الرأي على أن السُّكر ليس شيئًا أحتاج إلى التَّخلص منه.

«ربَّما عندما نطلب من الرَّب أن يسلِّمنا من الشِّرير، نحن في الواقع نطلب منه أن يسلِّمنا من أنفسنا.» جفَّف القسُّ جبينه بمنديلٍ أبيضَ. «أنصحكم اليوم، أن تسلِّموا أنفسكم من جميع الشُّرور الَّتي جلبتموها إلى حياتكم بأيديكم. لنحني رؤوسنا الآن من أجل الصَّلاة.»

حاولت أن أغمض عيني وأصلِّي، إلّا أنَّ فنمي لم تبارح ذهني. أبصرتُها بوضوح وأنا أدقِّق النَّظر في الزُّجاج الملوَّن. سمعتُ صرختها الأخيرة، رأيتُ كيف حاولت يداها التَّشبّث بالدَّرابزين بعد أنْ دفعتُها من أعلى الدَّرج.

I7

عندما كنتُ طفلة ، درجتْ زوجاتُ أبي على استدعاء أطفالهنَّ إلى السَّرير ليروين لهم الحكايات . دائمًا فعلن ذلك وراء الأبواب المؤصدة والمقفلة . وما دُعيت قطُّ إلى الدُّخول والاستماع ، لذا ، دأبتُ على الكمون في الممرِّ ، أتنقل من الأبواب إلى النَّوافذ وأنا أحاول تحديد أيِّ امرأةٍ منهن أعلى صوتًا كلَّ ليلة .

واسيتُ نفسي بقولي إنَّ كوني بلا أُمّ عنى أنَّ عليَّ انتقاء حكاياتي واختيارها . إذا لم تعجبني حكاية ترويها إحدى الزَّوجات لأطفالها ، يمكنني ببساطة الانتقال إلى الباب التَّالي . وبما أنَّي لم أُحْصَر داخل الأبواب المقفلة مثل إخوتي غير الأشقَّاء ، قلت لنفسي إنِّي حرَّة . أحيانًا ، سهوتُ عن تفحُّص الأرضيَّة جيدًا قبل أن أجلس ، وبالتَّالي قد أجلس وسط قاذورات الدَّجاج أو الماعز . بعضُ نساء أبي كنَّ قذرات ، ولم يكترثْنَ قطُّ بتنظيف قسمهن من الممر قبل الاستقرار في غرفهن ليلًا .

استهوتني الأحاجي أكثر من غيرها لأنَّني عرفت أجوبتها جيدًا . القضيب الرَّقيق الَّذي يلمس السَّماء والأرض؟ المطر . تلك الَّتي تأكل مع الملك ، لكنَّها لا تلتقط من الصَّحن؟ الذُّبابة . كنت عادة أحرِّكُ شفتَي بالأجوبة من بقعتي في الممر ، قبل أن يصيحَ أحدٌ من إخوتي في داخل الغرف . وعندما يُطلب من بقية الأطفال أن يصفِّقوا لمن أعطى الجواب الصَّحيح ، أبتسم وتتدفّق الحرارة إلى وجهي ، كما لو أنَّهم في

الحقيقة يصفّقون لي .

كنت أرافقهم في إنشاد لازماتِ الأغاني الّتي تتخلّل الحكايات ، ودائمًا أفعل ذلك من بين أنفاسي . لو سُمع صوتي من الطّرف الآخر ، وخرجت إحدى الأمّهات لتدقّق في الأمر ، لانتهيت في وعاء حساء ساخن . وكانت أذني ستُلوى وتُشدّ إلى أن تسخن بما يكفي لغلي الماء عليها . في دارنا مع العديد من الزّوجات ، لم يُعتبر استراق السّمع وقحًا فحسب ، بل جريمة أيضًا . فكلُّ فردٍ لديه أسرارٌ ، أسرارُ الجميع مستعدّ لصونها بحياته . تعلّمتُ المشي بخفّة ، وتعلّمتُ ترقُّب وقع أقدام أيِّ شخص يدنو من الباب خلال الحكاية . تعلّمتُ أن أرهف السّمع وأجري إلى غرفتي من غير إحداث ضجّة .

كانت حكايتي المفضّلة تدور حول أولرنبي وشجرة إيروكو . مبدئيًا ، استعصى عليّ تصديق النُّسخة الّتي روتها زوجات أبي . أولرنبي الّتي تحدّثن عنها كانت امرأة تعمل في السّوق وعدَت أن تهب ابنتها لشجرة الإيروكو إذا ساعدَتها الشّجرة في بيع سلع أكثر من التّجار الآخرين . في نهاية الحكاية ، تفقد طفلتها لصالح الإيروكو . كرهتُ تلك النُّسخة لأنّني لم أصدّق أن أيّ مخلوق يقايض طفلًا مقابل أيِّ شيءٍ آخر . لم أجد أيَّ منطقٍ في الحكاية الّتي روتها زوجات أبي ، لذلك قرّرتُ ابتداع نسختي الخاصّة منها . أضفتُ مقاطعَ وفقراتٍ جديدة كلّما روت زوجات أبي تلك الحكاية . بعد فترة من الوقت ، صرتُ أعزف عن الاستماع كلّما رُوِيت حكاية أولرنبي وأركّز على تطوير نسختي .

تلك كانت النُّسخة الّتي رويتها لأولاميد . بدأت أحكي لها القصص بعد أن غادرتنا مومي ، وإلّا لبدا لها أنّه من المستهجن قصُّ الحكايات لطفلة رضيعة لا تستطيع أن تفهم ما أقوله . لكنّني ما فتئتُ أنتظر حصولي على طفلٍ طوالَ حياتي ، طفلي أنا ، طفل يمكنني أن

أروي له الحكايات. لم أشعر أنّني مستعدّة للانتظار دقيقة واحدة أكثر. رويتُ القصص خلال فترة العصر، عندما أكون أنا وأولاميد وحدنا في البيت. اختلقتُ قصصًا جديدة إضافة إلى تلك الّتي أتذكّرها من طفولتي. وغالبًا ما رويتُ لها نسختي من حكاية أولرنبي. وأعتقد أنّ أولاميد أحبّتها بقدر ما أحبُّها.

في نسختي، وُلِدت أولرنبي في زمن مغرقٍ في البعد، زمن كان فيه البشر ما زالوا يفهمون لغة الحيوانات والأشجار. أحبّت العائلة أولرنبي وآثرها جميع أفرادها. كانت كالماء، لا أعداء لها في عائلتها. وحبُّ أُمّها الجمُّ لها جعلها تصحبها معها إلى الشّوق يوميًا. بهذه الطّريقة تعلّمت أولرنبي أصول التّجارة جيّدًا، ولذلك حتّى وهي فتيّة عرفَت كيف تدير كشك البيع. كانت أولرنبي طفلة مطيعة، وفي غاية الجمال. لم تكذبْ قطّ، لم تسرق قطّ، ولم تنسلّ إلى الخارج ليلًا لتتحدّث مع الصّبيان وراء الجدار.

عاشت أولرنبي بسعادة إلى أن جاء يومٌ مصيري. في ذلك اليوم، شُغل والد أولرنبي بجني كميّات كبيرة من البطاطا في مزرعته. وكانت المزرعة تقع بجوار غابة. طلب الأب من أُمّ أولرنبي وجميع أطفاله أن يتبعوه إلى المزرعة ليساعدوه. أمّا أولرنبي فطُلِب منها البقاء لتدير كشك البيع. عندما عادت من الشّوق في المساء، أعدّت وجبة كبيرة لأهلها الّذين ذهبوا إلى المزرعة. ثمّ انتظرَت وانتظرَت عودتهم. اختفت الشّمس من السّماء ولم يعد أحد. عندما ظهرَت الشّمس في الصّباح التّالي، ذهبت أولرنبي إلى الشّوق. وافترضَت أنّ العائلة قد قررت النّوم في المزرعة في الليلة السّابقة. وعندما عادت من الشّوق، اكتشفَت أنّ البيت ما زال خاليًا من أيِّ شخصٍ. ونظرًا إلى أنّ السّماء بقي فيها بصيص ضوء، أسرعت نحو الغابة ويمّمَت مزرعة أبيها. لم

تعثر على أحد هناك . مشت طولًا وعرضًا ، تصيح بأسماء أفرادِ عائلتها كلِّهم . لم يأتها أيُّ ردٌّ .

كانت الدُّنيا مظلمة حينما عادت إلى القرية . قصدَت بيتها ، ولمَّا اكتشفَت أنْ لا أحد فيه ، مضت تطرق البيوت المجاورة بيتًا بيتًا ، وتسأل إن كان أحدٌ قد رأى عائلتها . وبينما نامت الشَّمس في تلك الليلة ، قصدَت أولرنبي بيوت القرية كلِّها ، تسأل إن كان أحدٌ قد رأى عائلتها . لكن لا أحد عرف أين هم .

لحظة استيقظَت الشَّمس وباشرَت وظيفتها في السَّماء ، ذهبَت أولرنبي إلى قصر الملك كي تبلّغ عن الحدث الغريب . أرسل الملك فريق استكشاف إلى الغابة للبحث عن المفقودين . ولم تغادر أولرنبي قصر الملك إلّا بعد أن عاد فريق الاستكشاف بعد يومين . كان البحث غير مثمر .

«لعلَّ عائلتكِ قرَّرَت أن ترحلَ عن قريتنا هذه ،» قال الملك لأولرنبي .

توسَّلَت أولرنبي إلى الملك ليرسلَ أشجع الصَّيادين في القرية إلى أعماق الغابة . وافق الملك ، ثمَّ بعد خمسة أيام عاد الصَّيادون بخُفَي حنين . هم أيضًا لم يفلحوا في العثور على عائلة أولرنبي . نصح الملك أولرنبي أن تمضي بحياتها لأنَّه لم يبقَ شيء يمكن عمله . «لعلَّ عائلتكِ قرّرت ترك القرية ،» قال من جديد .

لم تقتنع بكلام الملك ؛ موقنة أنَّ عائلتها لن تتخلّى عنها أبدًا . وهكذا قرَّرَت أن تبحث عن أهلها ثانية في الغابة . كلَّ يوم من أيام الأسبوع تعمَّقت في الغابة وهي تسأل الأشجار إذا كانت قد رأت عائلتها . لكنَّ الأشجار رفضَت أن تبوح لها بأيِّ شيء .

ثمَّ في أحد الأيام سألَت ملك الأشجار ، شجرة الإيروكو .

«أعرف أين أهلكِ ،» أجاب الإيروكو .
«أَهُم على قيد الحياة؟ أخبرني . أمَا زالوا أحياء؟» سألته أولرنبي .
«نعم ، ما زالوا أحياء ،» أجاب الإيروكو ، «لكنّني أجهل إلى متى سيصمدون .»
صرخَت أولرنبي . «إيروكو ، أخبرني أين هم لأنقذهم بسرعة!»
«لا ،» قال الإيروكو .
«رجاءً إيروكو ، أخبرني أين هم ، وسأفعل أيَّ شيء ، أيَّ شيء تطلب منِّي أن أفعله سأفعله .»
«أبدًا ،» قال الإيروكو .
«رجاءً إيروكو ، سأعطيكَ أيَّ شيء تطلبه ، أيَّ شيء تطلبه ، فقط أخبرني أين هم .»
«أيّ شيء أطلبه؟» سألها الإيروكو .
«نعم ، أيّ شيء .» جثمَت أولرنبي على ركبيتها أمام شجرة الإيروكو .
«أريد طفلكِ الأوّل ،» قال الإيروكو .
«لكن لا أطفال لدي يا إيروكو ،» هتفَت أولرنبي . «اطلب منِّي أيَّ شيء آخر ، وسأعطيكَ إياه . أتريد بقرة؟»
«لا ،» قال الإيروكو . «أريد طفلكِ الأوّل .»
«أتريد عنزة؟ يمكن أن أجلب عنزةً سمينةً جدًا .»
«لا ،» قال الإيروكو . «أريد طفلكَ الأوّل .»
«لا طفلَ لدَيَّ لأعطيك إيّاه ،» قالت أولرنبي . «أنا لستُ متزوجةً حتَّى .»
«يمكنكِ أن تفي بوعدِكِ عندما يصبح عندكِ طفل ،» قال الإيروكو .
بقيَت أولرنبي صامتة وقتًا طويلًا . كانت على ركبتيها أمام

الإيروكو، تفكّر في عائلتها، في أبيها وأُمِّها وإخوتها وأخواتها الّذين اختفوا.

«حسنًا،» قالت أولرنبي أخيرًا، «سأعطيكَ طفلي الأوّل.»

«يجبُ أن تُقسمي،» قال الإيروكو.

«أقسمُ أن أعطيكَ طفلي الأوّل.»

«يجب أن تذهبي وتُقسمي أمام ملك قريتكِ،» قال الإيروكو. «وعندما تعودين أخبركِ أين أهلك.»

جرت أولرنبي إلى القرية، وأقسمَت أمام الملك بأنّها ستعطي الإيروكو طفلها الأوّل إذا أرشدها إلى مكان عائلتها المفقودة.

حالما عادت أولرنبي إلى الغابة، رأت جميع أفراد عائلتها يقفون قرب شجرة الإيروكو.

كانت في غاية السّعادة، وعانقتهم فردًا فردًا. «أين كنتم؟» سألتهم أولرنبي. «ماذا حدث؟»

«نحن لا نستطيع أن نتذكّر،» قالوا.

«كيف عثرتَ عليهم؟» سألت أولرنبي الإيروكو.

«هذا سرٌّ من أسرارِ الغابة،» أجاب الإيروكو. «لا يمكن أبدًا أن أخبركِ.»

«شكرًا لكَ،» قالت أولرنبي.

«لا تنسَي قسَمكِ،» قال الإيروكو.

«لن أنساه،» أكَّدَت له أولرنبي.

عادت أولرنبي إلى القرية مع أهلها. كلّما تذكّرَت وعدها للأيروكو تملّكها فزعٌ رهيبٌ. ما عادت تقصد الغابة لجمعِ الحطب من أجل الطّبخ، أو لجمعِ الأعشاب كي تبيعها.

مرّت سنوات عديدة وأولرنبي لم ترَ الإيروكو قطُّ خلالها.

على أيِّ حال ، كلَّما قصد شخصٌ ما من قرية أولرنبي الغابة ، كان الإيروكو يستفسر عن أولرنبي .

«ما أخبار أولرنبي؟» ينبري الإيروكو للسؤال .

«ستذهب إلى بيت زوجها غدًا . في الحقيقة هذه الأغصان الَّتي أجمعها ستُستعمل لإعداد الطَّعام في الزِّفاف .»

«كيف حال أولرنبي؟» يبادر الإيروكو إلى السُّؤال . «أهي مرتاحة في بيت زوجها؟»

«أولرنبي محظوظةٌ جدًا ، تزوَّجت أفضل رجل في الدُّنيا ، بل هي الآن حبلى . إنَّها في غاية السعادة ، لا أتمنى إلَّا لو كنتُ محظوظةً مثل أولرنبي . لماذا اضطررتُ إلى الاقتران برجل أحمق كزوجي؟»

«كيف أولرنبي؟» يعاود الإيروكو السُّؤال .

«ألم تسمع بالخبر؟ لقد أنجبَت بنتًا مؤخّرًا . وسُميت المولودة أبونبيابو .»

«كيف حال أبونبيابو؟» يستعلم الإيروكو .

«إنَّها أجمل طفلة في القرية . بشرتها في منتهى النَّقاء ، وخالية من أيِّ بقع . لم أرَ في حياتي شيئًا كذاك ، ولا تحتاج إلى أن تسأل أهيَ بنت أولرنبي ، إنَّها كأمِّها تمامًا من رأسها إلى أخمص قدميها . ليت ابنتي كانت بمثل ذلك الجمال ، أيُّ حظّ هو حظّي هذا؟»

بينما كبرَت أبونبيابو ، حُذِّرَت دائمًا من الذَّهاب إلى الغابة . كلّ صباح ، حذَّرَت أولرنبي طفلتها من الاقتراب من الغابة .

لكن في أحد الأيام ، وأبونبيابو تلعب مع أقرانها ، قرّر رفاقها دخول الغابة .

«تعالي معنا ،» قالوا لأبونبيابو .

«تقول أُمِّي إنِّني يجب ألّا أدخل الغابة أبدًا ،» ردَّت أبونبيابو .

«لكن هناك الكثير من الأشجار الجميلة المحمّلة بفاكهة لذيذة .»
«تقول أمّي إنّني يجب ألّا أذهب إلى هناك .»
«لماذا؟» سألوها .
«لا أدري .»
ضحك الأطفال الآخرون . «هذا يعني أنّك ما دخلتِ الغابة قطُّ؟!»
«لا .»
«أبدًا ، ولا مرّة في حياتكِ؟!»
«لا ،» أجابت أبونبيابو .
ضحك الأطفال الآخرون وضحكوا وضحكوا . «يعني أنّك ما رأيتِ الغابة مطلقًا؟»
«لا .»
«وما رأيتِ الأيائل مطلقًا؟»
«لا .»
«وما رأيت قطُّ الإيروكو الباسق ملك الأشجار كلِّها؟»
«لا .»
« إذًا ما رأيتِ أيَّ شيء ؛ أنتِ لا تفقهين أيَّ شيء . لم تشاهدي أيَّ شيءٍ في حياتك ،» قالوا .
«إلى اللقاء الآن ،» ودّعها الأطفال الآخرون . «نحن ذاهبون إلى الغابة . وهناك سنبحثُ عن بعض الأغصان ، ونأكل الفاكهة اللذيذة . ونقول مرحبًا للإيروكو ، ملك الأشجار .»
«سأذهب ، سأذهب ،» قالت أبونبيابو . «خذوني معكم . أريدُ أن أرى ملك الأشجار .»
ذهب الأطفال إلى الغابة ، وتلك كانت آخر مرّة على الإطلاق شاهد فيها أي مخلوق أبونبيابو . عاد الأطفال الآخرون إلى القرية

يحملون الأغصان . ولم يلاحظوا أن أبونبيابو ليست معهم إلى أن خرجت أولرنبي وسألتهم ، «أين ابنتي؟» فتّشوا القرية شبرًا شبرًا بحثًا عن أبونبيابو ، لكنَّ أحدًا لم يعثر عليها . والمكان الوحيد الَّذي بقي للبحث عنها فيه كان الغابة .

عندما وصلَت أولرنبي إلى الغابة ، رفضَ الإيروكو أن يقول كلمةً واحدة لها . استعطفته أولرنبي واستعطفته ، بيد أنَّ الإيروكو رفضَ أن يتكلَّمَ . لم ترَ أولرنبي طفلتها ثانيةً أبدًا ، ومنذ ذلك الحين ما عادت الأشجار تتحدَّث مع البشر .

الأسباب الَّتي تكمن خلف إقدامنا على فعل الأمور الَّتي نفعلها ليست دائمًا تلك الَّتي سيتذكَّرها الآخرون عنَّا . أحيانًا ، أعتقد أنَّنا ننجبُ الأطفال لأنَّنا نريدُ أن نخلِّف وراءنا أحدًا يخبر العالم من نحن بعد رحيلنا . لو كانت هناك في يوم من الأيام صبيَّة اسمها أولرنبي ، لا أظنُّ أنَّها أنجبت أيَّ طفلٍ بعد أن فقدت أبونبيابو . أعتقدُ أنَّ نسخة حكايتها الَّتي أبقتها حيَّة في الأذهان ستكون أرأفُ بها لو أنَّها تركَت وراءها أحدًا يحدِّد الطَّريقة الَّتي يمكن أن نتذكَّرها بها . رويتُ لأولاميد حكايات كثيرة ، متوقِّعة منها أنَّها في يومٍ ما ستروي للعالم حكايتي .

18

يجب على الأمِّ أن تبقى يقِظة . يجب أن تكون قادرة ومستعدّة للنهوض ولو عشر مرات خلال الليل لترضع وليدها . إضافةً إلى سهرها المتناوِب ، يجب أن ترى كلَّ شيء بوضوح في الصَّباح التَّالي ، حتَّى تلاحظ أدنى عارض يطرأ على وليدها . ليس مسموحًا للأمِّ أن يكون نظرها مشوَّشًا . يجب أن تتنبه إلى عويل رضيعها ، أهو عالٍ جدًا أو خافتٌ جدًا . يجب أن تعرف هل حرارة الرَّضيع مرتفعة أو منخفضة . الأمُّ يجبُ ألَّا تغفل عن أيِّ إشارات .

ما زلت متأكّدة من أنّني غفلتُ عن الإشارات المهمة .

منذ أن وُلدَت أولاميد قرّرتُ أنْ أرضعها سنة على الأقل . وذلك الصَّباح الَّذي غفلتُ فيه عن الإشارات المهمة ، كان ما زال أمامي شوط طويل لأقطعه . كانت طفلتي بعمر خمسة أشهر فقط . يومها راودني النُّعاس بشدّة لأنّني اضطررتُ إلى الاستيقاظ عدة مرّات في الليل لأرضعها . عند الفجر ، اغتسلتُ ، حمّمتُ أولاميد ، هدهدتُها لتنام ووضعتُها في مهدها ، ثمّ أويتُ إلى السّرير لأنالَ بضع ساعات من النَّوم ، متيقنة تيقّنًا تامًا من أنّها ستوقظني ببكائها خلال ساعات .

استيقظتُ بعد نصف ساعة من الظُّهر تقريبًا ، وتنفّستُ الصُّعداء ؛ لأنَّ أولاميد ما زالت غافية في مهدها . نزلتُ إلى الطابق الأرضي لأجد شيئًا أسدُّ به رمقي ، ولا بدَّ من أنّني صرفتُ حوالي ثلاثين دقيقة في المطبخ . بعد فراغي من الأكل ، عدتُ إلى الأعلى ، متوقّعة

أن أجد بنتي مستيقظة ، فهي لا تبكّي دائمًا عندما تصحو ؛ أحيانًا قد تبقى مستكينة في مهدها تغرّدُ وتسلّي نفسها .

عندما انحنيتُ أمام مهدها ، بدَت أولاميد هامدة على نحو غير اعتيادي . استغرقتُ ما يقارب الدَّقيقة لألاحظ أنَّها لا تتنفَّس ، حملتُها وهدرتُ باسمها ، هززتها وحاولتُ جسَّ نبض قلبها ، اندفعتُ إلى الطَّابق الأرضيِّ وبنتي بين ذراعي وأنا ما زلتُ أصرخ ، رحتُ أجوب غرفة الجلوس محاولةً العثور على مفاتيح سيارتي . من المحتمل أنَّني قضيتُ بضع دقائق أبحث عن المفاتيح ، لكنَّها بدَت لي كسنةٍ . بعد أن دقّقتُ في الأسطح كلِّها ، وركلتُ وسائد الأرائك ، وقفتُ في وسط الغرفة للحظة قصيرة ، وطفلتي الهامدة لصق صدري .

أتذكَّر أنَّني رفعتُ سمّاعة الهاتف وطلبتُ مكتب أكين . أعرف أنَّني خاطبتُه ، إنَّما لا أتذكَّر ما قلتُه له . أتذكَّر أنَّني رميتُ السَّماعة ، وتركتُ البيت وأنا أجري خارج العقار إلى الشَّارع حيث أوقفتُ سيارة أجرة أخذتني إلى المستشفى .

I9

رأيت يجيده جالسة في بهو المستشفى عندما وصلتُ . ليس على أحد المقاعد بل على الأرضيَّة المبلطة .

تمكّنتُ من رؤيتها حالما غادرتُ موقف المستشفى . لم أكن متأكِّدًا من أنَّها هي في البداية لأنَّني لم ألمح حذاءً في قدميها . كان يجدر بي أن أدركَ عندما رأيتُ القدمين الحافيتين بأنَّ خطبًا جسيمًا قد حدث .

جلستُ القرفصاء أمامها حينما أصبحتُ قربها ، وضعتُ ذراعي حول كتفيها ، بل حتَّى لوَّحت بيدي محييًا ممرضة أعرفها .

«قُومي ،» ناشدتُها . «أنا واثق من أنَّها ستكون بخير . أقالَ الطَّبيب أيَّ شيء؟»

افترضتُ أنَّ أولاميد قد أدخِلت إلى المستشفى ، وتراءى لي أنَّهم ربَّما اكتشفوا ما سبب المشكلة أيًا ما هي ، وبلّغوا يجيده بالتَّطورات قبل وصولي .

«أعليَّ أن أدفع لِقاء أيِّ شيء؟ يجيده قومي رجاءً . لا تبقي جالسة على الأرضيَّة . استرخي ، ستكون بخير . تعرفين أنَّهم يقولون إنَّ الأطفال مرنون . هيَّا ، قفي .»

حملقَت بي بعينين متسعتين وفمٍ فاغر .

«يجيده؟»

طرفَت بعينيها وازدردَت ريقها .

هززتُها قليلًا ؛ لأنَّني خمّنتُ أنَّها ليست حاضرة معي تمامًا . كان

شعرها أشعث ، فوضعتُ يدي على رأسها ، ودفعتُ خصلاتها إلى الوراء .

«ماذا قالوا؟ أتحدثْتِ مع أيٍّ من أطبائها؟»

«أخذوا أولاميد إلى المشرحة .»

سقطَت يدي عن كتفيها ، وجثمتُ أرضًا إلى جانبها . «ما تعنين بالمشرحة؟» قلتُ .

«أنا آسفة ،» قالت يجيده وهي تمسكُ رأسها بيديها كما لو أنَّ وزنه أصبحَ فجأة أثقل بكثير من أن تتحملّه رقبتها النَّحيلة .

«أكين ، أنا آسفة جدًا . أنا لم أستغرق وقتًا طويلًا . كنتُ جائعة ، أردتُ فقط إعداد شيء آكله . . . لم أعرف . . . أنا آسفة جدًّا .»

«لا ،» هتفتُ . أنا حتمًا لم أستوعب جيّدًا ما قالته . لم أجد أيَّ منطقٍ في أن تذكُر أولاميد والمشرحة في الوقت نفسه . «انتظري ، انتظري . اهدئي رجاءً . أولاميد ، أين أولاميد؟»

مرّرَت يديها خلال شعرها ، لطمَت رأسها ، ثمّ مدَّت ذراعيها . «أخذوها إلى المشرحة يا أكين ، يقولون إنّها ميتة ، يقولون إنَّ بنتي ميتة ، يقولون إنَّ أولاميد ميتة ، يقولون . . .»

نهضتُ ، فركتُ عيني بظاهر يدي ؛ لأنَّ كلَّ شيء أمامي بدا مائلًا . مشيتُ في البهو بعيدًا عنها ، وقفتُ عندما ما عاد يمكن أن أسمع صوتها ، ثمَّ استدرتُ لأنظرَ إليها . لم تكفَّ عن لطم رأسها ، لكن لا دموع هناك . لم تولول ، فقط ظلَّت تلطمُ نفسها ، تلطم صدرها ، فخذها ووجهها .

لا أعرف ما المدَّة الَّتي وقفتُها في آخر البهو ، أراقبها فحسب ، محاولًا بطريقة ما أن أستوعبَ أنَّه بعد كلِّ ما فعلتُه أنا ويجيده لنرزق بطفلٍ ، فقدنا ، بلا سابق إنذارٍ أولاميد . لم يخطر لي أنَّه يمكن أن ينقلبَ العالم هكذا فجأة . كنتُ واعيًا بالنَّاس الآخرين يتحركون على

طول البهو؛ سمعتُ وقع كعوب أحذية، وأناس يتحدثون، أحسست ببعض الأجساد تدفعني وهي تمرّ. مع ذلك شعرتُ أنّني وحيدٌ للغاية، كما لو أنّني ضمن الفترة الزّمنية الّتي استغرقتْها يجيده لتقولَ لي أنّهم أخذوا أولاميد إلى المشرحة، نُقِلتُ إلى كوكبٍ خالٍ من الحياة البشرية.

في النِّهاية، عدتُ إلى يجيده، مسكتُ يدها وهي تنهض، قدتُها إلى السّيارة، ساعدتُها لتدخل.

ما زلتُ لا أدري من أين جاءتني القوّة لأمشي إلى عنبر الطّوارئ. أعرف فقط أنّني وجدتُ نفسي أمام الرّئيسة المناوبة.

«أنا السّيد أجاي،» قلت. «بنتي جُلبَت قبل بضع ساعات – أولاميد.»

اقتادتني من العنبر إلى كبينة، عرضَت عليّ كرسيًا وهي تفتح بعض الأدراج. وضعَت أمامي مجموعة من الوثائق. استغرقتُ بضع دقائق لأدركَ أنّ «كلمة الجثة» يُقصد بها أولاميد. هززتُ رأسي لأنّني عجزتُ عن النُّطق بشيءٍ وبدأتُ أوقِّع الوثائق. لم أقرأ كلمةً واحدة في النُّصوص، بحثتُ ببساطة عن مربّعات التّوقيع في كلّ صفحة وذيّلتها بتوقيعي.

عزّتني الرّئيسة المناوبة عندما نهضتُ لأغادر، مؤكِّدة لي أنّ الأطبّاء بذلوا جلّ جهدهم، لكنّ الرّضيعة كانت ميتة ساعة وصولها. صافحتُها، قلتُ شكرًا، أعلمتُها أنّني أقدِّر ما فعلوه.

وجدتُ يجيده جالسة هامدة كصخرةٍ لمّا عدتُ إلى السّيارة. وما استطعتُ أن أتأكّد من أنّها حيّة إلّا عندما طرَفَت بعينيها. افترضتُ أنّ عليّ توجيه كلماتٍ مواسية لها، أقول شيئًا يخفّف ألمها. سبق أن فعلتُ هذا في مناسباتِ العزاء، تحدّثتُ إلى زملاء فقدوا أزواجًا أو

أقارب ، أسعفتني المفردات لأخبرهم أنَّ كلَّ شيءٍ ، بطريقةٍ ما ، ما زال على ما يرام .

أدخلتُ مفتاح تشغيل محرّك السيارة ، قبضتُ على المقود وحدَّقتُ من خلال النَّافذة الأماميَّة في النَّاس يمشون جيئة وذهابًا في الموقف المشمس ، كما لو أنَّ اليوم مثل أيِّ يومٍ آخر . بذلتُ ما في وسعي لأفكِّرَ في شيءٍ أقوله لزوجتي ، بل حتى وُفِّقتُ بكلمات كافية لأجمعها معًا في جملة أو جملتين . ولأنَّني أردتُ أن يكون لكلماتي أبعد تأثير ، لتمنح شيئًا من المواساة لِما لم أستطع بعد أن أستوعبه حقَّ الاستيعاب ، التفتُّ لأنظر إلى يجيده في عينيها .

ثمَّ لاحظتُ لطخة حليب على بلوزتها الخضراء . اتضح لي أنَّها لم تضع حمالة صدر ، وأن اللطخة أمام حلمتها اليمنى . لطخة حديثة ، صغيرة ، بحجم يد طفل رضيع ، يد أولاميد . نسيت أيَّ شيء تفتق ذهني عنه . وبينما راقبتُ لطخةَ الحليب تنتشر نزولًا ، أدركتُ أنَّ الأرض قد نُزِعت من تحت أقدامنا ، وأنَّنا نقف في الفراغ ، وأنَّ كلماتي أوهن من أن تقف حائلًا دون أن نسقط في الهوّة الَّتي انشقت تحتنا .

20

قالت مومي إنَّ أولاميد طفلةٌ فاسدةٌ ، بنتٌ شريرةٌ اختارت أن تموت . كدتُ أصفعها عندما قالت ذلك .

تلك كانت طريقتها في مواساتي ، في إقناعي أنَّ أولاميد أرادت أن تموت ، أن لا شيء هناك يمكن أن تفعله حيال ذلك أيُّ أُمٍّ أُخرى . طريقتها لم تجدِ نفعًا وهي أدركَت هذا . لم أستطع التَّوقّف عن التَّفكير في طفلتي ، وكم أنَّه من المجحف كونها قد حُصرت إلى الأبد في لونٍ أصفر غضّ ، وبشرتها لن تجاري لون أذنيها أبدًا .

لم أتأثر بوجوه النَّادبين المكتئبة الَّذين احتشدوا في غرفة جلوسي . صمتهم هو ما أثَّر بي ، عصر قلبي ، الصَّمت شبه الكلّي الَّذي كسره النَّادبون بكلمات رقيقة قُصد بها المواساة والتَّشجيع . لو كبرَت أولاميدتي ، لو تزوجَت وأنجبَت أطفالًا قبل أن تموت ، لو أنَّني أنا وأكين من مات ، كان يمكن أن ينوح النَّادبون بأصوات عالية ، لا أن يعضُّوا شفاههم ويهزُّوا رؤوسهم ويطلبون منِّي أن أنسى لأنَّني سرعان ما أُرزَقُ بطفلٍ آخر .

عصرني من الدَّاخل أن لا أحد ولولَ أو ناح . كان الجميع في منتهى التَّنظيم . لا فوضى ، لا تحطيم كراسي أو أدوات ، لا أحد يتمرّغ على الأرضيَّة أو ينتف شعره ، حتَّى مومي لم ترقص . لا أحد تلعثم ، عرفوا كلُّهم ما يقولون . لا تقلقي ، قريبًا تُرزقين بطفل آخر .

لم تكن هناك صورة مؤطَّرة على طاولةٍ مع سجل تعزية تحتها .

كأن لا أحد يفتقدها، لا أحد أسِف لأنَّ أولاميد ماتت. أسفوا لأنَّني فقدتُ طفلًا، لا لأنَّها ماتت. كان ذلك كما لو أنَّها - نظرًا إلى قضائها وقتًا قصيرًا جدًا في الدُّنيا - ليسَت مهمة حقًا، لم يَهمّ في الواقع رحيلها. وقد يظنُّ المرء أنّنا فقدنا كلبًا عزيزًا على قلوبنا. عصر أعماقي أن أرى النَّاس في غاية الهدوء، كأنَّ ما فُقِد ليس بالشَّيء الكثير. وعندما طلبَت منِّي أصواتٌ من جدول المعزّين المفرط في الهدوء أن أتخيَّل فظاعة حصول هذا في فترة لاحقة، عشيَّة تخرّجها مثلًا، أو عشيَّة زفافها، تمنيتُ لو أنَّني استطعتُ أن أولول، أصرخ، أتمرّغ على الأرض وأمنحها الحداد الَّذي تستحق. بيد أنَّني لم أستطع، الجزء الَّذي فيّ - القادرُ على فعل ذلك - رحلَ إلى ثلاجة المشرحة مع أولاميد لمؤانستها ولاستجداء مغفرتها على كلِّ الإشارات الَّتي سهوتُ عنها.

أقيمَتْ الجنازةُ في غضون ثلاثة أيام. لم يُسمح لي أنا وأكين حضورها، ولن نعرف مطلقًا بقعة الدفن. استمرّت حماتي تُذكّرني بأنَّني يجب ألَّا أزعج أحدًا بالسؤال عن مكان الدَّفن الَّذي اختير. همسَت في أذني أنَّني يجب ألَّا أرى قبرها أبدًا لأنَّ عينيّ ستريان الشرّ آنذاك، وبالتَّالي سأواجه أسوأ ما يمكن أن يحدث لأُمٍّ، وهو معرفة مكان دفن الطِّفل. لم أتجاوب مع كلمات حماتي. قبعتُ في أريكة غرفة الجلوس طوال الصَّباح، متماسكة بسكينة مثاليَّة، أنتظر اللحظة الَّتي سيضعون فيها تابوتها الصَّغير في الأرض. كنتُ واثقة من أنَّني إذا جثمتُ بلا حراك، سأعرف. قبعتُ ساكنة وراقبت السَّاعة إلى أن أصبحَت ضبابيَّة، والوقت مرَّ ضبابيًا. لا أكاد أتذكّر إلَّا بشكلٍ مبهم أكين وهو يلتقط مفاتيح سيارته ويقول لي شيئًا في لحظةٍ ما. بقيت لابدةً في الأريكة إلى أن تنبّهتُ إلى أن السَّاعة تشير إلى الثَّانية. لا

ريبَ في أن الدَّفن أخذ مجراه بحلول الثَّانية عشرة ظهرًا . الهمود الَّذي كنتُ عليه لم يجعلني متيقِّظة كما ينبغي . عندئذٍ صرختُ ، أطلقتُ صوتًا قصيرًا ثاقبًا سبَّب لي السُّعال . صوتٌ لم أستطع أن أعزِّزه بقدر ما أردت . حتَّى حينذاك لم تكن هناك دموعٌ ، ولا قطرة واحدة .

على الفور هبّت مومي إلى جانبي ، وأخذت تمرِّر إصبعها عبر فروة رأسي . «ستحبلين ثانيةً قبل أن تدركي ذلك . ستتعافين ، سترين ،» قالت كما لو أنَّني أعاني من نزلة برد ، ولم أحتج إلَّا إلى قليلٍ من الرَّاحة لأتحسَّن . تمنَّيتُ لو أنَّها هي الَّتي ماتت بدلًا من صغيرتي . أشحتُ بوجهي بعيدًا عنها ولم أخبرها أنَّني حبلى . حيطان الألم أطبقَت عليّ من كافة الجوانب ؛ حاولتُ زحزحتها ، بيدَ أن تلك الحيطان كانت خرسانيَّة وفولاذيَّة ، أمَّا أنا فمجرّد لحم وعظام بائسة .

*

لمَّح أكين ، نصحني ، تملّق ، وأخيرًا أصرَّ على ذهابي إلى صالوني بدوامٍ كاملٍ . ولم أكن قد أخبرته بعد أنَّني حبلى .

أنا في الحقيقة لم أخبره قطُّ ، عندما أصبح بطني أكبر من أن يتجاهله المرء ، اتكأ على إطارِ باب المطبخ وسألني . «أأنتِ حبلى؟»

تناولت سكينًا من رفِّ الصُّحون .

«ثانيةً؟» أضاف أكين ، كأنَّه تذكَّر توًا فقط أنَّني سبق أن كنتُ حبلى .

قطعتُ نبتة البقلة ، قبضتُ على السِّكين بإحكام وأعملتها في تقطيع الأوراق . أجهدتُ كلَّ عضلةٍ في ذراعي كأنَّني أقطعُ درنة بطاطا .

«يجيده؟»

طعنتُ لوح التَّقطيع الخشبيِّ بالسِّكين واستدرت لأواجه هذا الرَّجل الَّذي كان زوجي. شبكتُ يديَ على بطني البارز. «ما رأيكَ يا أكين؟ أخبرني ماذا تعتقد أنَّه يوجد في معدتي؟»

«لماذا لا تجيبين عن سؤالي فحسب؟»

«أتعتقد أنَّني ربطتُ قرعة إلى معدتي؟ أنتَ، يا هذا الرَّجل. أذلك ما يتراءى لكَ؟»

حكَّ حاجبيه ونظر بعيدًا، مثبّتًا نظرته على نقطة ما فوق رأسي... أوليته ظهري.

تنحنح. «أنتِ حبلى إذًا؟»

ما زال يطرح سؤالًا. اعتقد الرجلُ أنَّ دماغي قد تشتَّت، تشتَّت إلى حدٍّ أنَّني يمكن أن أربط قرعة فوق معدتي. لذلك ما زالَ يطرح سؤاله: لم يستطع أن يصدِّق. كان الجوُّ حارًا، والشَّيء الوحيد الَّذي ارتديته اقتصر على فانيلة واسعة تنتهي عند منتصف فخذي. أأراد أن يتفقّد بطني؟ ربَّما يحزُّ الجلد قليلًا، لمجرّد التَّأكد؟ انتزعتُ السِّكين من لوح التقطيع وتركتُ يدي تسقطان على جانبي. أومأتُ برأسي إيجابًا.

«نعم.»

ندَّ عنه صوت لم أستطع فهمه جيِّدًا. بدا وقعه مثل تهنئة، وبدا أيضًا كأن أكين يختنق ويحبس شهقة بكاء. حدَّقتُ في الخارج من نافذة المطبخ، والسِّكين الفولاذيَّة باردة على فخذِي العارية.

«أنا آسف،» قال بعد هنيهة، «آسف لموت الطِّفلة.»

«اسمها أولاميد،» صرختُ. التفتُّ لأتصدّى له، والأسماء العشرون الأخرى الَّتي مُنِحت لابنتي جاهزة لتتدفّق من لساني. كان مدخلُ الباب فارغًا؛ كان أكين قد رحل.

*

في يومي الأوّل بعد عودتي إلى الصالون، طلبتُ من إحدى الفتيات أن تقصّ شعري. رفضَت وهي تنظر إليّ شزرًا كأنّني طلبتُ منها أن تقطعَ رأسي. رفضَت الفتيات الأخريات كلهنّ لمس المقص، بل حتّى إيا بولو رفضَت.

«لكن أنتِ حبلى ثانية،» قالت.

قصصتُ جدائلي بنفسي وتركتُ بقية شعري قصيرًا بطولٍ غير متناسق. لاح الذُّعر على زبوناتي. لو أنّ أكين هو من مات لما صُدمن كثيرًا لرؤيتهنّ لي أجزُّ شعري. فلماذا إذًا حملقن بي كما لو أنني فقدتُ عقلي؟

كانت سيارتي قد أُخِذت للصيانة في ذلك اليوم، ولذلك جررتُ نفسي إلى البيت بعد أن أغلقتُ الصّالون. شعرتُ أن قدمي بثقل الرّصاص. لم أرغب في العودة إلى البيت، إلى المهد الفارغ الّذي ما زال إلى جانب سريرنا أنا وأكين.

وجدتُ أكين في البيت عندما وصلتُ. كان يعمل على مائدة الطّعام. يحسب أرقامًا في الآلة الحاسبة وأمامه تنتشر عشرات الأوراق البيضاء.

«ماذا حلّ بشعركِ؟ «سألني وهو يدفع الحاسبة جانبًا.

«مضغَه طائر من رأسي وأنا في طريقي إلى البيت. ماذا يمكن أن يحدث له ما عدا ذلك؟»

عاد إلى الحاسبة ينقر الأرقام.

جلستُ على أريكة وظهري إلى طاولة الطّعام.

«ما الطُّول الَّذي تريدينه؟» سألني أكين .

«إلى فروة الرَّأس ،» أجبتُ وأنا أحاول انتزاع بقعة شمعٍ من البساط بإصبع قدمي الكبيرة . كانت هناك عدة لطخات عليه . والبساط لم يُكنس منذ أسابيع .

فجأة ، شعرتُ بيد أكين على رأسي . مرَّر يديه عبر شعري الأشعث ، ثمَّ سمعتُ تكتكة المقصِّ الحادِّ ، سقطَت خصل شعرٍ على وجهي ، والتصقَت ببشرتي عندما التقَت بدموعي المنهمرة بصمت على وجنتي . وخزَ الشَّعر جلدي ، لكنَّني لم أحاول تنحيته . أردتُ إبقاءه طوال الليل ، أردته أن يخز جلدي ويخزه إلى أن أشعر أنَّني فركتُ وجهي بشريحة من البطاطا النِّيئة .

«اذهبي واغتسلي ،» قال عندما انتهى .

عجزتُ عن الوقوف ، خنق الشَّهيق صدري ، وجعل التَّنفّس عسيرًا علَي .

جثم أكين قربي وأسند رأسه على بطني ، إحدى يديه متمسّكة بثوبي ، والأخرى متدلّية بارتخاء على حافة الأريكة ، وما زالت قابضة على المقصّ . لن يعترف أبدًا بذلك ، لكنَّني شعرتُ بدموعه في ذلك اليوم ، لأنَّها يبّسَت ثوبي ونفذت إلى بطني وآزرت تفجعي . أرجعتُ رأسي إلى الوراء وندبتُ بصوتٍ عالٍ ، لعنتُ ، صرختُ ، بكيتُ ، اعتذرتُ من ابنتي ، استعطفتُها لتغفرَ لي إهمالي ، رجوتُها أن تسمعني أينما كانت ، بكيتُ على مدار الليل بأشدّ ما يكون البكاء ، طوّقتُ رأسي بيدي وحاولتُ أن أطلق سراح التفجع بصراخي . في الليلة التَّالية نمت فورًا ، لم أحلم بأطفال موتى يتفسّخون تحت الأرض ، بل لم أحلم نهائيًا . ولمدةِ ستِ ساعاتٍ بعد أن استيقظتُ ، تهيَّأ لي أنَّ دموعي قد غسلت وجعي وشعوري بالذَّنب . لم أعرف آنذاك أنَّ هذا كان مستحيلًا .

21

وُلد سيسان في يوم أربعاء . كنتُ في الصّالون عندما انفجر ماء الرّحم ، وإيا بولو هي الّتي ذهبَت بي إلى المستشفى . كان زوجها قد ابتاع سيارة أخرى مستعملة ، فورثَت أخيرًا المازدا القديمة الّتي تخصُّه ، وبدأت تتعلّم القيادة . اقتصرَت خبرتها في قيادة السّيارة على الذّهاب من بيتها إلى الصالون وبالعكس ، ورفضَتْ أن تضع لافتةً تدلُّ على أنّها مبتدئة أمام لوحة الأرقام أو في أيِّ مكانٍ على السّيارة . جلستُ على المقعد الأمامي إلى جانبها ، وحاولتُ أن أعطيها النّصائح ما بين الانقباضات . كان يمكن أن آخذ سيارة أجرة ، إلّا أنّني تركتُها تأخذني إلى المستشفى ، ربّما لأنّني ، على مستوى ما معين ، آمنتُ أنّني أستحقُّ شيئًا من العقاب بسبب ما جرى لطفلتي .

حضر احتفال تسمية سيسان قلّة من النّاس . مجرّد تجمُّعٍ صغير في غرفةِ جلوسنا . جلسَ الضّيوف على كراسي استعرناها من جيراننا ، أكلوا يخنة الأرز ، وعادوا إلى بيوتهم بعد ساعةٍ من المراسم . حتّى مومي لم تأتِ . فابنتها أرينولا الّتي انتقلتْ للإقامة في «إينوغو» أنجبَتْ أيضًا طفلًا في الوقت نفسه تقريبًا ، ومومي غادرت إلى «إينوغو» قبل أسبوعٍ من إنجابي سيسان . لا أحدَ سافر إلينا من «أيفي» أو «لاغوس» . لا فرقة موسيقية حيّة ، ولا خيمةَ مشمّع في الخارج ، ولا مكبِّر صوت ، ولا منسِّق أغانٍ . ولم يكن هناك رقص .

كان اسم سيسان الأوسط أيجي لأنّه نزل إلى هذه الدُّنيا بقدميه

أولًا . كانت قدماه سليمتين ، وبعد بضعة أسابيع لم يخامر ذهن أحد الشّك في أنَّ قدمي ابني كانتا جيّدتين بقدر ما يمكن أن تصل إليه جودة الأقدام . ومثل حال جميع النّاس من ذوي الأقدام الجيِّدة ، تبعَت انضمامه إلى عائلتنا مختلف أنواع الأشياء الطّيبة الّتي حدثت لنا . فأكين ، على سبيل المثال ، ابتاع أربع قطع أرض بنصف سعر الشوق ، لأنَّ مالكها كان غارقًا في الدُّيون واضطرَّ إلى بيع الأصول الّتي لديه . ذاك طبعًا ، ليس بالأمر الجيِّد للرجل المسكين ، لكن ، كالعديد من مفارقات الحياة ، أحيانًا ، يأتي الحظُّ السَّعيد لشخص ما ، كنتيجةٍ مباشرةٍ لخرابِ عيشِ شخصٍ آخر .

بقيتُ متيقِّظة مع سيسان . رأى أكين أنّني على قاب قوسين من الإصابة بجنون الارتياب . حذّرني أنَّ ابني سيكبر ولن يتمكّن مطلقًا من الزَّواج بسبب تعلُّقه بي أكثر مما ينبغي . وتساءلتُ كيف بحقِّ السَّماء يمكن أن يتعلّق بي سيسان أكثر مما ينبغي بينما حياته تعتمد على ارتباط فمه بثديي . ما بدا لي ، أنَّ الخطر على أيِّ طفلٍ هو كونه غير مرتبط على الأطلاق ، أو مرتبط بشكلٍ غير كاف . كنتُ مستعدّة استعدادًا كاملًا إلى ربطِ رسغ سيسان بخيوطِ دثاري وسحبه معي لما تبقّى من حياتي .

كان سيسان طفلًا مسالمًا . لم يبكِ إلّا عندما احتاجَ أن يأكلَ ، بل حتّى آنذاك يتقطَّع بكاؤه بمُهل مهذَّبة . أحيانًا أنهض لأتفقّده في منتصف الليل ، فأجده صاحيًا في مهده ، يُناغي نفسه ويداه ورجلاه في الهواء ، متمتعًا بصحبةِ نفسِه ، غيرُ مطالِب بالانتباه إليه .

اشترينا بيتًا في شارع «إيمو» ، غير بعيد عن العقار الّذي سكنّا فيه . عندما اشتريناه لم يكن مسوّرًا ، فبنينا واحدًا قبل أن ننتقل إليه . جعلناه يعلو عن سقف البيت ، وعزّزنا قمته بلفائفَ من السِّلك

الشّائك. فالسّرقات بقوةِ السِّلاح أصبحت شائعة عبر البلاد، والأسوار صارت تظهر في كافة أنحاء المدينة، بعضها أعلى من تلك الّتي تُبقي المُدانين في السِّجن. معظم الأحياء استخدمَت حارسًا على الأقلّ يجوب الشّوارع في الليل، ويطلق النّار ما بين حين وآخر ليطمئن السّكان. لكن، حتّى خلال النّهار تسلّل اللصوص إلى البيوت وسطَوا على كل ما يتوافر لهم قبل عودة ضحاياهم. لذا بدأتُ أترك المذياع دائرًا كلّما غادرنا البيت، لأوهم أيّ لص مُنتظَر أنّ هناك أناسًا في البيت. لاحظتُ أن أغلب النّاس فعلوا الشّيء نفسه، وفي عديد من البيوت لعلعَت المذاييع بلا انقطاع إلى أن يتوقّف بثُّ المحطات اليومي.

قبل أن تتلاشى رائحة الطِّلاء من بيتنا الجديد، تحوّل صالوني شيئًا فشيئًا من صالون بخمسة مجففات شعر إلى صالون بعشرة مجففات شعر. وبعد فترة قصيرة، ادّخرتُ أنا وأكين مالًا وافيًا واشترينا المبنى المؤلّف من طابقين الّذي يقع ضمنه صالوني. على الرّغم من أنّ سيسان جلب لنا الكثير جدًا من الحظِّ الميمون، كانت أولاميد هي الّتي فكّرتُ فيها ليلًا قبل أن يجرفني النّوم. وعندما أستيقظ صباحًا، قبل أن أفتح عيني، أراها حيّة ترضع وعيناها في عيني مثل شخصٍ عرفني قبل الزّمن.

22

بعد فترة قصيرة من انتقالنا إلى بيتنا الجديد ، فقد دوتون عمله في «لاغوس» وانتقل ليقيمَ معنا . هو في الواقع لم ينتقل حقًا ، بمعنى أنَّ الرَّجل المتزوج مع ثلاثة أطفال ، لا يمكن أبدًا أن يعيشَ مع عائلة أخرى إلَّا في حال افتراقه عن زوجته . لكن ، على أي حال ، ظهر أمامنا في أحد الأيام ولم يرجع إلى «لاغوس» . زعمَ أنَّه يحتاج إلى إعادة ترتيب أوضاعه ليتسنى له الحصول على عمل آخر .

في الحقيقة ، كان قد فقدَ عمله قبل سنة من قدومه إلينا ، وصرف مدَّخراته في افتتاح مخبزٍ باء بالفشل خلال بضعة شهور . حاول العثور على عمل آخر بعد ذلك ، لكن المجالات الوحيدة الَّتي توافرت له اقتصرت على حرَّاس الأمن أو المراسيل . وظائف رفضَها لأنَّه مع شهادة الماجستير في إدارة الأعمال شعرَ أنَّ مؤهلاتِه تفوقها . بعدَ أنْ بلي نعلَا حذائه الأخير في «لاغوس» ، باعَ سيارتَه وسيارة زوجته ، استلف شيئًا من المال وحاول إنعاش المخبز . هذه المرَّة خدعه بعض المحتالين في ظروف ادَّعى أنَّها محرجة جدًا ليشارك أحدًا بها . أسرَّ لي بهذا كلِّه قبل أن يخبر أكين .

جاءَ إلى «إليسا» هربًا من الدَّائنين . وحتَّى عندما أعطاه أكين قسمًا من مدّخراتنا ليدفعَ للدائنين ، لم يرحل . خلال الأسابيع القليلة الأولى من إقامته معنا ، لا بدَّ من أنَّه كان لدى دوتون ثلاثة صناديق على الأقل من الجعة المخمرة محليًا . لم يفعل الكثير

في هذه الأثناء بمعزلٍ عن أكل اللحم من قدر اليخنة الَّتي أعدَّها ، والتَّصريح فجأة كم أبدو مثيرة وأنا أحضِّر العشاء قبل عودة زوجي من عمله .

تغنّى بالثَّناء عليّ يوميًا ، مُزعزعًا صبري ، محطّمًا دفاعاتي إلى أنْ اتضحَ لي أن ما اعتقدت أنّه من الفولاذ ليس إلَّا من الخشب . لو قال إنَّني جميلة لنجحْتُ في مقاومته . فأكين يقول لي ذلك دائمًا ، بنبرةِ خشوعٍ لم تفارق صوته قطُّ على مرِّ السِّنين . دوتون ، من النَّاحية الأخرى ، أثنى على اكتناز صدري المثالي ، على استدارة ردفي ، وعلى الإغراء في عينَي .

«أعشق طريقة حرقكِ الحساء ،» قال في أحد الأيام ، وهو يراقبني من فوق زجاجةِ جعة .

كنتُ خارجة من المطبخ . وكنت قد أحرقتُ قدرًا من يخنة الخضار الَّتي أعدَّها ليأكلها أكين مع الأرز في تلك الليلة .

وضع دوتون الزُّجاجة قرب قدميه . «خصوصًا عندما يحدث ذلك وأنتِ تهرعين نزولًا من الطَّابق العلويِّ ، وعندما تفعلين يترجرج نهداك . وأنا لا أكفُّ عن التَّفكير فيكِ ، عن التَّفكير في عطلة نهاية الأسبوع تلك عندما زرتكم وأنا في طريقي إلى أبوجا .»

لم أحبّ التَّفكير في عطلة نهاية الأسبوع تلك . حدث ذلك بعد ولادة أولاميد بشهرين ، إذ اضطرَ أكين إلى السَّفر إلى «لاغوس» في عمل طارئ بعد وصول شقيقه . وبقيتُ أنا ودوتون وأولاميد وحدنا طوال تلك الفترة . والبيت لم يكن على ذلك القدر من الاتساع ليحولَ دون أن ألتقي بدوتون . كنَّا نتناول وجبة الصَّباح يوم السَّبت عندما مدَّ يده ليزيحَ الشَّعر عن وجهي ، ثمَّ لمسَ أذني ولم يبعد يده . لم يحدث ما حدث خلسة وبسرعة كالمرَّة الأولى ؛ لم ينتهِ أيضًا في وقت قصير .

والشُّعور بالذَّنب الَّذي هيمن عليَ دفعني إلى تجنّبه بقية العطلة ، وعاهدتُ نفسي ألَّا أسمحَ لهذا أن يحدث ثانية أبدًا .

«أنا أفكّر دائمًا في عطلةِ نهايةِ الأسبوع تلك ،» قال دوتون .

راحت ضربات قلبي تتسارع بينما انبرى يتكلَّم ، وأحسستُ بحلمَتي تبرزان . شعرتُ بالامتنان للأشياء الجديدة في الحياة ، مثل حمالة الصَّدر المبطنة الَّتي لبستها في ذلك اليوم .

«اسمع ، هذا لن يحدث مجدَّدًا .»

«لا تحاربيه ،» قال . «من الطَّبيعي لكِ أن تسعي إليه .»

ابتعدتُ عنه ، على الرَّغم من تيقّني أن دوتون لن يحاول أبدًا أن يلمسني عنوة . وأنَّ عليّ أنا عرضَ نفسي عليه ؛ فهو لن يبادر مطلقًا إلى السَّعي ورائي . «عن أيِّ شيء تتحدث؟»

«أعلميني حينما تكونين مستعدَّة . أنا مستعدٌّ دائمًا ،» قال وعاود التقاط زجاجة الجعة ثانية .

قلتُ لنفسي إنَّ المشروب هو ما جعله بهذه الجرأة الكبيرة . كان شبهَ مخمور ، ويتعتع في كلامه .

أفادني قوله ما قاله بذلك الأسلوب - كما لو أنَّ النَّوم معه ليس إلّا صفقة عمل . ساعدني هذا على رؤية الأمور من وجهة نظر معينة ، وإخماد النَّار المتأججة في هوّة بطني ، واستئصال البلل المتجمِّع بين ساقي .

كان يجب أن أطلبَ منه الامتناع عن مخاطبتي بتلك الطَّريقة . الامتناع عن الإشارة إلى أنَّ نهديَّ ما زالا مكتنزين فعلًا بعد إرضاع طفلين . كان سيمتنع ، على الأقلّ سيفعل إذا هدَّدته بإخبار أكين ، لكنَّني لم أرغب في أن يصمت . أحبَّت أذناي طريقة كلماته في مطاردتي ، ونشرها الدِّفء في جميع أوصالي . وبدلًا من إبلاغ أكين

عن الملاحظات الفاسقة ، ومطالبته بطرد دوتون من بيتنا ، تظاهرت بتجاهل تعليقاته . في الليل ، أعيد استرجاع كلماته في ذهني ، متكاملة مع النَّبرة المبحوحة الَّتي ينطقها بها ، وأكين منبطحٌ إلى جانبي يشخر بفم مفتوح . وهكذا بدأت أجد أعذارًا تعيدني إلى البيت بعد أخذ سيسًان إلى المدرسة .

شعرتُ برأسي يغدو ثقيلًا . والثِّقل يتضاعف مع كلِّ خطوة أخطوها نحو غرفة دوتون ، الغرفة الَّتي خُصّصت يومًا للطفل الَّذي لم أنجبه ، قبل أن تصبح غرفة فنمي . كان دوتون متربِّعًا على الأرضيَّة وظهره إلى الباب عندما دخلتُ الغرفة ، يكتب رسالة التماس . وعلى الأرضيَّة تناثرت دزينة من المغلفات ، معظمها مختومة ومعنونة . لم أعرف قبل ذلك الحين أنَّه كان يبذل جهدًا ليحصلَ على عمل . افترضتُ أنَّه يعاقر الجعة ويأكل اللحم من قدري طوال اليوم . وأكين أخبرني أنَّ دوتون باق عندنا إلى أن يتدبّرَ أموره .

تساءلتُ لماذا حدَّث أكين عن مخططاته الكبيرة بدلًا من مصارحته بطلبات الوظائف الَّتي بدا أنَّه يكتبها يوميًا . أردتُ التَّراجع والخروج من الغرفة . شعرتُ كما لو أنَّني ضبطته وهو يفعل شيئًا خاصًا ، ولو راقبته لجررتُ نحو نوع ما من الألفة معه . رفع رأسه ، أدركتُ أن لا تراجعَ أمامي الآن . جمع المغلفات في كومة ، لكن نظرته بقيَت مثبتة على وجهي .

«ما الحكاية؟» سألني .

«أنا . . . لا شيء . . . حسنًا . . . لا شيء .»

وقف . «أهناك خطب ما؟ أنتِ في غرفتي .»

«جئتُ كي . . . جئتُ إلى هنا كي . . . هل هي مثمرة طلبات الوظائف؟ أثمّة من أجابكَ إلى حدّ الآن؟»

جلس على السرير ووضع رأسه بين يديه يحدّق في كومة المغلفات . كان هادئًا ، وتلك كانت إشارتي لأخلع بلوزتي أو أفعل أيَّ شيء يفعله المرء ليقول أنا مستعدّ لممارسة الجنس معكَ ثانية . شعرتُ فجأة أنَّني غبيَّة . لماذا دخلتُ؟ أيُّ شيء أعرفه عن إغواء رجل؟ بل حتَّى عن إغواء رجل راغبٍ فيَ . كنتُ عذراء عندما اقترنتُ بأكين .

«وقعتُ في شِباك عملية احتيال في العمل ، ولهذا طُردتُ . الكلام ينتشر عن مثل هذه الأمور . لا أحد سيوظفني الآن ، لا أحد .» تكلَّم بسرعة كأنَّ الكلمات أحرقَت لسانه .

تمنَّيتُ لو أنَّه بقي وحده في عالمه المعذَّب ولم يقل شيئًا . لم أرغب في الاطلاع على ألمه الخفي ومعاناته . لم أكترث ولم أُرِد . ما سعيتُ إلَّا وراء شيءٍ واحد منه .

«أنا لم أخبر شقيقي . . . لا تخبريه رجاءً ، لا تفعلي . . .» قال .

أومأتُ برأسي .

«أنا لم أشارك في عملية الاحتيال ، كنتُ غبيًا فقط لأرخِّص بعض الوثائق المتعلّقة بالعملية . في الحقيقة امرأة هي من ورطتني ؛ كنتُ أضاجعها .» رفع رأسه . عيناه كئيبتان ومتضرِّعتان .

أومأتُ برأسي . طبعًا كان يضاجع امرأة في مكتبه ؛ ووفقًا لزوجته ، كان يضاجع كلَّ النِّساء في شارعهم .

تنهَّد . «زوجتي ، لا تصدِّقني . تظنُّ أنَّني أخفي المال في مكان ما ، وأنَّ فتاة جميلة تنتظرني لتنفقه معي .» استرسل في الضَّحك . «أتمنَّى . أوه ، لا تخبري شقيقي أكين . رجاءً . . . لا تفعلي . . . لا تفعلي . ربَّما يجب أن أخبره بكلٍ . . .» استلقى على السَّرير ، وحجب وجهه بيديه . «انتهيتُ . . . لا يمكنني أن أدبِّر أيَّ وظيفة . . . لا أحد سيستخدمني . لقد قُضي عليَ .»

«ستتحسن الحال.» قلتُ متمنية أنْ يصمتَ، متمنيةً أن أغادرَ الغرفة قبل أن يعرِّي المزيد من روحه أمامي.

جلستُ إلى جانبه على السّرير. «تخرّجتَ بمرتبة الشّرف الأولى... ستتوصل إلى شيءٍ ما.»

كفّ عن الضّحك، أنفاسه الثّقيلة قاطعت الصّمت. «أشكركِ.» قال. وبينما غادرتُ الغرفة اصطكت ركبتاي.

*

كنتُ أنا وسيسان نهمُّ بالخروج من البيت لحضور قدّاس المناولة عندما علمتُ عن انقلاب أوركار. ومع أنَّ سيسان ما بدأ إلاّ مؤخّرًا بالمشي، كان ثابتًا على قدميه، وأصرَّ على نزول الدَّرج من دونِ مساعدتي. وبينما تبعتُه سمعتُ الإعلان عن الانقلاب من المذياع الَّذي أصبحنا نبقيه شغَّالًا طوال الوقت. وبمجرّد أن أعلن الصَّوت في المذياع عن سقوط نظام بابانجيدا، حملتُ ابني، هدّأتُه عندما احتجَّ، وهرعتُ إلى غرفة الجلوس.

لم يكن الوقت قد شارف الثّامنة صباحًا بعد، وأكين ما زال نائمًا في الطابق العلوي، ودوتون في غرفته، وعلى الأرجح مخمور. ما يعني أنّني كنتُ وحدي مع سيسان حينما استمعتُ إلى ما جاء بثًا مُعادًا لخطاب السّيطرة. أومأتُ برأسي والمتكلّم يكرُّ سبحة الاتهامات الموجهة إلى حكومة بابانجيدا، لكن عندما أعلن تنحية خمس ولايات شماليَّة عن البلاد، صُدمتُ، وقرّرتُ انتظار تكرار البثّ من جديد، لمجرد التّحقق مما سمعته.

خلعتُ وشاح رأسي والمحطة تبثّ موسيقى عسكريّة ؛ إذ لا معنى للذهاب إلى الكنيسة الآن . وقبل أن أُنهي طَي الوشاح انقطعت الكهرباء . تنهّدتُ . . . قد تمضي ساعات أو أيام قبل عودة الكهرباء ؛ إذ ما عادت هناك توقّعات في هذا الشّأن .

أخذتُ سيسان إلى الطّابق العلويّ ، وحاولتُ تنحية ربطة عنقه . كان ينوح معترضًا عندما استيقظ أكين .

«ما حكايته؟»

أفلتُّ سيسان فجرى ليقف قرب جهة أكين من السّرير .

«ألستِ ذاهبة إلى الكنيسة؟» سألني أكين ، وهو يحدُّ النّظر بساعة الحائط . «إنّها التّاسعة تقريبًا .»

«أسقطوا بابانجيدا ،» قلت . «حصل انقلاب .»

انتصبَ أكين في السّرير . «بجدّ؟»

«سمعتُ البثَّ الإذاعيّ قبل انقطاع الكهرباء .»

«قلتُ لدوتون أنَّ شخصًا ما قد يُقصي ذلك الرّجل . قضيّة ديلي جيوا تلك كانت مريبة جدًا .» لوّح بساقيه نحو الأرضيّة . «إنّما لا أحد يستطيع أن يثبتَ أنّه هو الفاعل ، ثمَّ ألَمْ يعِد بإجراء انتخابات هذه السّنة ، وأنّنا سنعود إلى الدّيموقراطيّة؟ فأين الدّيموقراطيّة الآن؟»

«ذاك جزءٌ مما يقوله هؤلاء الجدد ، إنّه كان سيسعى إلى تكريس نفسه رئيسًا مدى الحياة لو لم يستولوا على الحكم .»

«غير محتمل في هذه النّيجيريا .» وقف أكين وعانق سيسان إحدى ساقيه . «هذه ليست جمهوريّة من جمهوريات الموز .»

«مع ذلك ، ثمّة شيء غريب قالوه .» تقدّمت نحو أكين وأمسكت يد سيسان ، تباكى بينما فككتُ أزرار قميصه . «قالوا إنّهم يعزلون بعض الولايات الشّمالية من الاتحاد -سوكوتو وبورنو وكانو- هناك

المزيد لكنّني لا أتذكّر بقيَّة أسماءِ الولايات .»

«يفعلون ماذا؟»

«أنا لا أفهمُ هذا الجزء . إنَّه غير ممكن . أهو كذلك؟»

رنَّ جرس الهاتف فقفزنا معًا . إذ كنَّا نعرف النَّمط : بمجرد أن يحدث انقلاب تنقطع الخطوط طوال النَّهار . تناول أكين السَّماعة . استمعتُ إلى ما يقوله ، وفهمت أن أخته هي الَّتي في الطَّرف الآخر من الخطّ . تحدّثا برهة ، وأكّد لها أكين أنَّه لا يعتقد أنَّ هناك أيَّ مشاكل في المدينة وأننا كلّنا بخير . وعلى الفور تقريبًا بعد أن أعاد السَّماعة إلى مكانها تعالى الرَّنين ثانية . هذه المرَّة كانت المتحدّثة أجوك ؛ زوجة دوتون .

«تريدنا أن نصلِّي .» قال أكين بعدَ أنْ أنهى المحادثة مع أجوك . «هناك مواجهات في لاغوس ؛ يستطيعون سماع الطَّلقات النَّارية من بيتهم .»

«يا إلهي ، أطفالها . هل هم بخير؟»

«نعم ، لكنَّها خائفة . أصوات الطَّلقات النَّارية عالية .» ضغط أكين جبينه براحته . «مع ذلك أظنُّ أنَّهم سيكونون بخير . لن تحدث هناك إصابات بين المدنيين .»

جلستُ على السَّرير ، أتخيَّل أجوك وأطفالها متكوّمين في زاوية غرفة . «ليكن الله معهم .»

«في حال أنَّهم ما زالوا يتقاتلون الآن ، لا أعتقد أنَّ بابانجيدا ذاهب إلى أيِّ مكان .»

«يجب أنْ تخبرَ دوتون بأنَّ أجوك اتصلت .»

«نعم ، نعم .» أجاب وهو يحمل سيسان على ظهره خارج الغرفة .

«هناك فطورٌ في المطبخ ،» صحتُ من ورائه . «أعددتُ حلوى ماين ماين .»

بقيتُ في الغرفة ، قلقة من الحال الّتي ستسفر عنها الأيام القليلة القادمة . كلّما أمعنتُ في التّفكير ، تمنيتُ أكثر أن ينجح بابانجيدا في التّمسُّك بالسُّلطة ، ليس لأنّني أحببتُ طريقة إدارته للبلاد ، بل لأنَّ الوضع الرّاهن كان الشّيطان الذي نعرفه . إذا استولى الضُّباط الجدد على السُّلطة وأقصوا الولايات الشمالية فعلًا ، من المحتمل أن يتطورَ الوضع إلى حرب أهليّة أخرى خلال بضعة أسابيع .

هتف أكين بكلامٍ ما فذهبتُ إلى رأس الدَّرج .

«ماذا قلتَ؟»

«يظنّ دوتون أنّه جلب معه المذياع الترانزستور ،» قال . «وهو يبحث عنه في غرفته .» كان أكين يقف في وسط غرفة الجلوس . وسيسان يمتطي كتفيه ، ويمدّ ذراعيه ليلمس السقف .

نزلتُ إلى الطّابق الأرضيِّ . طالما أن دوتون هو صاحب المهمة ، فتحديد مكان المذياع والبطاريات المناسبة سيستغرق منه دهرًا . وعندما شغّل الترانزستور أخيرًا ، كانت المحطات كلُّها تبثّ مقطوعات موسيقية ، دلالة على أنّ الوضع ما زال مضطربًا ولا أحد منها على درجة كافية من التيقّن للعودة إلى البرامج المعهودة . استقرّ دوتون على محطة تبثُّ ما بدا أنّه موسيقى كلاسيكية . جلسنا صامتين ، يحيط بنا صوت الموسيقى ، ننتظر الأخبار . فجأةً ، صمت المذياع ، وللحظة ظننتُ أنَّ البطاريات قد فرغَت ، لكن ما لبثَ أن طقطق مع خشخشة وخاطبَنا صوت .

أنا ، المُقدَّم غاندي تولا زيدون ، أطمئنكم بموجب هذا أنَّ المُنشقين

قد دُحروا . ننصحكم بالتّحلي بالصّبر وانتظار بلاغات أخرى . شكرًا لكم .

توجّه دوتون إلى الهاتف وتحدّث إلى أجوك والأولاد ، ثمّ تابعنا الاستماع إلى المذياع حتّى فرغت البطاريات . كانت هناك بلاغات أخرى ، خطابات وبثٌّ إذاعيٌّ أعلمتنا أنّه ، نعم ، أريقت الدِّماء ، إنّما لا شيء في النِّهاية قد تغير .

*

أصبحَت إيا بولو الآن مستأجِرة عندي . تمسّكت بصالونها بعد أن اشتريتُ المبنى ، ويدفعَ زوجها الإيجار في أوّل يوم من كلِّ شهر . بالكاد حظيَتْ بزبونات ، لذا لم يكن من الممكن أن تتحمّل كلفة الإيجار من دون مساعدة زوجها . بيد أنّها رفضَت إغلاق صالونها .

«لا أُطيق البقاء جالسة في البيت فحسب ،» تقول كلّما اقترحتُ عليها أن تتخلّى عن الصّالون . «أفضِّل أن أستيقظ وآتي إلى هنا إلى أن أحظى بأيِّ عملٍ آخر أحسنُه .»

داومَتْ على قضاء معظم وقتها في صالوني ، وبدأتُ أمنع الزّبونات من الجلوس على الكرسيّ الّذي بتُّ أعتبره كرسيَّ إيا بولو . عندما تعود بناتها من المدرسة عصرًا ، يتناولنَ غدائهنَّ في صالونها وينجزنَ واجباتهنَّ المدرسيّة هناك . إذا تجولنَّ وقصدنَ صالوني ، تَصرفُهنَّ بالكلمات نفسها دائمًا : اذهبنَ واقرأنَ كتبكن .

«بولو تلك ستصبح طبيبة بفضل الرّب ،» تنبري إيا بولو إلى القول بعد انصراف البنات المتذمرات إلى الممر .

عادةً ، تردّد زبوناتي من بعدها «آمين» بينما تختفي بولو وشقيقاتها

في نهاية الممر . ثمّ في يومٍ ما ، كانت إحدى زبوناتي المنتظمات ، العمّة ساديا ، في الصّالون عندما أدلت إيا بولو بدلوها ذاك . وبدلًا من قول آمين ، ضحكت العمّة ساديا .

«لماذا تضحكين؟» سألتها إيا بولو وهي تقف . «ما المضحك؟»

كنتُ آنذاك أنزع وصلاتِ شعر العمّة ساديا ، مستخدمةً شفرةً لأقطع الخيط الّذي يربط الوصلات بشعرها . نظرتُ في المرآة وهي تردُّ على إيا بولو .

«ابنتكِ تلك ذات البشرة الدّافئة؟ ألا ترين؟ تبدو جميلة من الآن . أتظنين أنَّ الفتيان سيتركونها في حال سبيلها؟»

قالت كلمة «جميلة» بطريقة أوحت أنَّ الجمال عادة سيئة طوّرتها بولو ، شيء ما يكاد يقترب من السُّلوك الإجرامي الّذي يمكن في يوم ما أن يبرّر معاقبتها .

جاءت إيا بولو لتقف إلى جانبي ، ويديها على خصرها . «آها! يعني إذا كانت بولو جميلة ، ألا تستطيع القراءة؟ ألا تستطيع ارتياد الجامعة؟»

ابتسمَت العمّة ساديا للمرآة . «انتظري فقط إلى أن يصبح نهداها كالبرتقال الحلو ، وجميع الرِّجال الّذين يشاهدونها تنتصب آلاتهم كالجنود . وقت قصير ويأتي الحمل ، حينها تفهمين ما أقوله .»

«ليس بنتي . لا سمح الله .» انحنتْ إيا بولو على مقربة من العمّة ساديا ورفعتْ صوتها . «بنتي ستذهب إلى الجامعة .»

حدَّقتُ في العمّة ساديا ، أنتظرُ منها أن تعتذرَ أو تقولَ شيئًا يهدئ إيا بولو . لكنَّها لم تفعل .

«لا شيءَ يمنع فتاة جميلة من الانكباب على كتبها يا عمَّة ،» قلتُ أخيرًا ، وأنا أربّتُ كتفَ إيا بولو . كنتُ قد انتهيتُ من نزع وصلات

شعر العمّة ساديا ، لذا أشرتُ إلى إحدى العاملات كي تفكّ صفوف جدائلها .

مضيتُ إلى زاوية الصّالون حيثُ ينام سيسان في مهده ورفعتُ رسغه بضع لحظات ، متحسسة إيقاع نبضه المطْمْئن .

«لا أقول سوى أن ذاك الشّيء المنتصب ممتع . صح؟ بل حتّى أنتِ أمّها ، لو أنه ليس كذلك أكنتِ أنجبتها؟» كانت العمّة ساديا قد التفتَت وهي على كرسيها ورنَت إلى إيا بولو مبتسمةً . بدا لي هذا أنّه أقرب شيء إلى أيِّ اعتذار يمكن أن تعرضه .

هزّت إيا بولو رأسها . «بنتي ستصبح طبيبة . بعد ذلك في وسعها أن تستمتعَ بكلِّ تلكَ الأشياء المنتصبة كما تشاء .»

«حسنًا ، ستصبح طبيبة إذًا قبلَ أن يحصل عليها الجنود المنتصبون . لا يعني هذا أنَّ العالم سينتهي إذا حصلوا عليها أوّلًا ثم أصبحَتْ طبيبة بعد ذلك .» ضحكَت العمّة ساديا وصفعَت يد إيا بولو . «نحن على الأقل نشكر الرّب أن ذلك لا يهلك النّاس .»

شاركتها إيا بولو الضّحك . «لكان بعضنا مات لو أنَّ ذلك يهلك . نشكر الرّب أن المدقة لا تحطّم الهاون ، لو فعلَت ، كيف سيتاح لنا التّلذذ بالبطاطا المهروسة الشّهية؟»

«أوه ، إنَّ هذا الرّب ربٌّ عظيم . أتعرفين يا إيا بولو أنَّ ذاك الشّيء عندما يكون نائمًا ، رخوًا كما هو ، لا يسعك إلّا أن تحتقريه عمومًا . لكن ، بمجرّد أن ينتصب هكذا!» نهضَت العمّة ساديا ووقفت وقفةَ استعداد . «صلبٌ هكذا! لا أريد سوى أن أشكرَ الإله لأنّه صنعه بهذه الطّريقة .»

صفّقَت إيا بولو . «إنها تلك الصّلابة الّتي تمنحه القيمة والشّرف ، أوه ، لسنوات .»

«أليس كذلك؟» جلسَت العمّةساديا . «ما نفع مدقة رخوة لنا؟ أيمكن أن تهرس البطاطا؟»

بينما تحدثتا ، شعرتُ بالانزعاج . فكّرت في آخر مرة مارست خلالها الجنس مع أكين ، وأردت أن أطرح على العمّة ساديا أسئلة . بدت لي أنّها ذلك النّوع من الأشخاص الّذين قد يصفعون ظاهر يدي ويعطونني أجوبة مباشرة وبسيطة ، لكنّني عضضتُ لساني ؛ لأنّني لست تلك المرأة الّتي تناقش حياتها الجنسية مع النِّساء في صالون .

انتهت العاملة من العمّة ساديا . توجّهتُ نحوها وغرزتُ مشطًا في شعرها . «والآن ، ما التّسريحة الّتي تريدين؟» سألتُها .

«سيدتي ، ما سبب انقباض وجهك هكذا؟ ألا تأكلين البطاطا المهروسة في منتصف الليل؟»

«لا تكترثي لها ؛ هذه طريقتها في العبوس كما لو أنّها عذراء .» أشارت إيا بولو إلى مهد سيسان . «لكن لدينا دليل على أنّها تتدبر أمرها بشكل جيد جدًا .»

«سيدتي ، ما التّسريحة الّتي تريدين؟»

أحدّت العمة ساديا النّظر إليّ فترة ، وثمّة ابتسامة ما زالت تلعب عند زاويتي فمها . شعرتُ بالضّيق من نظرتها وخشيتُ أن تستمرّ في الكلام عن الجنس .

«حسنًا ،» قالت . «ضعي الوصلات فقط ، من الخلف . صِلي الشّعر من الخلف .»

بدأتُ أفرك شعرها بالمرهم ، ممتنة لأنّها تخلّت عن الموضوع . دفعتُ الأسئلة الّتي أردتُ طرحها بعيدًا ، وتركتُ خصلاتها النّاعمة تنزلق من بين أصابعي .

ابتسمَتْ للمرآة وأنا أفرِق شعرها . «أعرف نوعكِ ،» قالت . «تجعلين

وجهك يبدو كما لو أنَّه وجهُ مريم العذراء ، لكن حالما يُغلق باب غرفة النَّوم هكذا ، تشتعلين .»

عضضتُ شفتي السُّفلى ولذتُ بالصَّمت .

23

بعد حوالي شهر من دخول سيسان إلى روضة الأطفال ، أخذه أكين إلى المستشفى لإجراء بعض الفحوصات الرُّوتينية . كان ذلك من الأمور الَّتي درج أكين على فعلها ، كشراء مئات الأسهم لسيسان في أعياد ميلاده ، أو إيداع المال شهريًا في حساب توفيرٍ خاصٍّ بمصاريف مدارس الأطفال منذ اليوم الأوَّل لزواجنا ، أو القيام بفحصٍ طبيٍّ سنويٍّ لنفسه ومراجعة طبيب الأسنان . لذا لم أتفاجأ عندما عاد ابني إلى البيت وبكلِّ فخرٍ أراني البقعة غير الظَّاهرة حيث وُخِز إصبعه من أجل أخذ عينات دم . أخبرني أنَّه لم يبكِ ، مع أنَّ إبرة الطَّبيب آلمته . قبَّلتُ الإصبع وقلت له إنَّه أشجع صبيٍّ في العالم . طفر بعيدًا ودخل غرفة دوتون ليواصل تباهيه .

عندما أصبحَت نتائج الفحوصات جاهزة كان أكين في «لاغوس» لحضور سلسلة اجتماعات تستغرق أسبوعين . ذهبت إلى المستشفى لأخذ النَّتائج . حتَّى في ذلك الوقت كنتُ أكره المستشفيات ، أكره رائحة المواد المطهرة الَّتي تعلق في خياشيم المرء مدَّة طويلة بعد مغادرة المكان . أكره الملابسَ البيضاء المروّعة والمعاطف الَّتي يرتديها أغلب العاملين هناك ، بيضاء كالأكفان . والدَّم الَّذي يداهمُ العيون في أقلِّ الأماكن الَّتي يتوقعها المرء . صرخات الألم والخسارة الَّتي تتصاعد في الممرّات . لم أرغب في أن أكون هناك .

«أين زوجكِ سيدتي؟» سألني الطَّبيب بيلو قبل أن يتسنى لي

الجلوس .

«ليس هنا . هو في لاغوس حاليًا ،» قلتُ . كان المكتب مقصورة تفوح برائحة اليود .

«في الحقيقة أفضِّل مناقشة هذا معه .»

«ماذا؟»

«قلتُ أفضِّل - »

«سمعتكَ . هذا ابني وأنتَ ترفض أن تعطيني نتائج الفحوصات؟ ماذا تعني؟»

«حسنًا ، سيدتي ، اجلسي رجاءً ،» قال وهو يرجع إلى الوراء في كرسيِّه . «لكن يجب أن تطلبي من زوجكِ أن يأتي لرؤيتي .»

«لا بأس ،» قلتُ ، وأدركتُ آنذاك أنَّه لن يخبرني بكلّ ما لديه .

«إذًا سيدتي ، بخصوص ابنكِ . . . أتعرفين شيئًا عن خلايا الدَّم الحمراء؟»

انجرفتُ نحو تجاويف ذهني لأسترجع شيئًا من صفِّ علم الأحياء . تذكَّرتُ السَّيد أولايا ، أستاذ علم الأحياء الَّذي انزلق بنطلونه الواسع جدًّا عليه إلى ركبتيه في بضع مناسبات فأبهجَ بذلك صفَّه المملّ . لم أتذكَّر شيئًا عن خلايا الدَّم ، ولا أيّ شيء عنها ؛ حمراء أو خضراء أو زرقاء . هززتُ رأسي نفيًا .

«تحمل خلايا الدَّم الحمراء الأوكسجين إلى . . . »

«لحظة يا دكتور ، أثمَّة خطب؟ أثمَّة خطب في ولدي؟» لم أحتج إلى درس في علم الأحياء . هذا إضافة إلى أن قلبي راح ينبض بسرعة كبيرة ، كنتُ متأكِّدة من أنَّني سأموت قبل أن يدخل الطَّبيب صلب الموضوع ، إذا لم يتجاوز ما هو بصدد البدءِ به .

«أتعرفين شيئًا عن مرض فقر الدَّم المنجلي؟»

توقّف قلبي ، توقّف عقلي ، توقّفَت جميع أعضاء جسمي . بدَت الغرفة خالية من الهواء . «نعم .»

«ابنكِ عنده مرض فقر الدّم المنجلي .»

«لا ،» صحتُ . «لا ، يا إلهي لا!» وعلى مدى السّاعات الأربع والعشرين ما برحتُ أغمغم بهذه الكلمات ، أهمس بها .

«أنا آسف ، لكنّها ليسَت حالة ميؤوس منها . هناك أشياء يجب أن تعرفيها ، وأوّلًا عليكِ أن تحضريه من أجل فحصٍ شامل . . .»

استمرّ فم الطّبيب يتحرّك ، يلتفُّ حول الكَلمات الّتي تدلّت عند أذني بدلًا من أن تنزلق فيها . عندما أغلق فمه ، وقفتُ وغادرتُ مكتبه . أوقعتُ مفتاحي عدّة مرات قبل أن أفلح في فتح باب سيارتي . كان الوقت الثّانية بعد الظُّهر . قدتُ السّيارة عبر الطّريق إلى روضة وابتدائيّة الفرانسيسكان ؛ لأجلب ولدي .

أراد أن يمشي إلى السّيارة حينما أخذتُه من الصّف . حملتُه ، عصرتُه إلى صدري حتى نعقَ ، ضممتُه بمزيدٍ من القوّة ، واصلتُ التّطلع إليه خلال رحلة العودة إلى البيت ، مبعدةً عيني عن الطّريق لفتراتٍ خطرة . كان يخبرني شيئًا عن المدرسة بلسانه الّذي ما زال يغرّد . كان فرحًا بخصوص ذلك الشيء . ابتسم ، أشار بيديه ورسم أشكالًا في الهواء . وثبَ في مقعده وهو يثرثر . حاولت أن أسمع ما يقوله ، أن أسمع عن هذا الّذي أفرحه كثيرًا . . . لم أسمع شيئًا . كنتُ أراه فقط ؛ أظفار يديه القذرة ، وجنتاه السمراوان بغمازتيهما ، بنطلونه القصير الأصفر وقميصه الملطخ ثانيةً ببقع العشب . كان الطفل الأكثر جمالًا في العالم . أردتُ أن أعيد دسّه في بطني ، وأبقيه بمأمن من هذه الحياة ، من المستشفيات ، من القبّعات البيضاء المنشّاة ومعاطف الممرضين .

«مامي، ما بكِ؟» سألني سيسان وهو يمسك مجموعة مفاتيحي... بدا منزعجًا.

«لا شيء،» أجبتُ بعد أن أصبحنا في الدّاخل.

أطعمتُه وجبة الغداء وساعدتُه في واجباته المدرسيّة، راقبتُه وهو يتفرّج على التّلفزيون، قدّمتُ له العشاء وحممتُه، جلستُ على بساط الأرضيّة، راقبتُه يتفرّج على مزيد من برامج التّلفزيون إلى أن نام على أريكة غرفة الجلوس. لم يكن عليه الخضوع لحظر تجوّل في تلك الليلة.

«لماذا تبكين؟» سألني دوتون الّذي جاء إلى البيت في هذه الآونة.

تحسستُ وجنتيّ، كانتا نديتين. متى شرعتُ في البكاء؟!

«سيموت هو أيضًا... سيسان يحتضر.» فرقعَت في داخلي ضحكات عصبية. أطبقتُ شفتَي لأكتم تلك الفرقعة. لو ضحكتُ، أعرف أنّني سأضحك إلى الأبد.

هرع دوتون إليّ، وضع أذنه على صدر سيسان وجلس قربي مقطّبًا.

«إنّه بخير.» قال ورائحة نفسِه مزيج من الكحول والتّبغ.

«إنّه مصاب بفقر الدّم المنجلي، المنجلـــــي.» تحرَّرَت الفرقعة المعتملة في صدري. انهمرَت الدّموع، لا الضّحك، غبشت عيني وزكمت أنفي. الأصوات الوحيدة الّتي تناهت إليّ كانت شهقات بكائي الّتي وقفَت عقبة أمام سماع شخير سيسان الوديع. احتجتُ إلى سماع ذلك الشّخير، ذلك الصّوت هو حياتي. زحفتُ إلى الأريكة لأسمعه، لكن نشيجي أصبح أعلى وكانت عيناي ضبابيتين. بالكاد رأيتُ ابني. بكائي ابتلع شخير سيسان، ابتلعني.

«لا بأس، لا بأس. هو بخير.» شعرتُ بيد دوتون على عنقي. تمسّد، تهدّئ.

أحسستُ بذراعيه حول خصري. كنتُ أنهار، أغرق في نحيبي.

وهو كان هناك ، يحتجزني بين ذراعيه ، وفمه يهمس بأنَّ كلَّ شيء سيكون على ما يرام .

قبّلتُه لأبتلع عبارة على ما يرام ، لألتقطها من شفتيه وأدسّها سالمة في جوفي ، في المكان الّذي انتُزعَت منه أولاميد عند سرّتي . أردتُ تلك العبارة ، حصلتُ عليها ، ثم أردتُ المزيد ، احتجتُ إلى المزيد ، اشتهيتُ المزيد ، على نحو محموم ، أكثر ، أكثر ، أكثر .

لسانه ، يداه ، صلابة انتصابه في داخلي مجدَّدًا . عندما أصبحَت صلابته رخوة لاحقًا ، شعرتُ أنّني لم أكتفِ بعد . تعطشتُ إلى المزيد والمزيد أكثر من أيٍّ وقت مضى .

انقلب متدحرجًا من فوقي . زحفتُ إلى الأريكة ، وضعتُ وجهي إزاء وجه ابني . كانت عيناه مغمضتان .

هل رآنا؟ كيف عرَّضتُه لهذا؟ أتراه رآنا؟ آه يا ربي ، رجاءً ، رجاءً اجعله ، إذا رآنا ، يعتقد أنَّ ذاك ليس حلمًا . آه يا ربي ، رجاءً . رجاءً . رجاءً .

بقيتُ قابعة هناك إلى الفجر ، عارية ، أستمع إلى شخير ابني ، وأحتقر المرأة الّتي أصبحت عليها .

24

كنت قد لُقِّنتُ بل وآمنتُ أنَّ التَّعليم هو أفضل ما يمكن أن يشتريه المال ، وكان تلقي العلم أعظم ما أستطيع تقديمه لابني . كنتُ مستعدَّة لإلزام نفسي إذا استدعت الضَّرورة أن أوفِّر لسيسان تعليمًا جيدًا . احترمتُ دائمًا الدَّرجات الأكاديمية والأشخاص الَّذين يحرزونها ، والأكثر هو الأفضل . ولحظة شعرتُ أن عمره أصبح مناسبًا ، أرسلتُ ابني إلى أرقى مدرسة ابتدائيَّة في البلدة ، مدرسة كاثوليكية تعلِّمه أيضًا خشية الله .

بعد يوم من تشخيص حالة سيسان ، أردتُ أن أبقيه في البيت ، في السَّرير حيث يمكن أن أُغذِّيه ، أهوّي له وأراقبه . لم أكترث إذا بقي طوال حياته يجهل أن اثنين زائد اثنين يساوي أربعة . ما عاد من المهم مطلقًا إن لم يتحدث إنجليزيَّة خالية من لكنة «إيجيزا» الثَّقيلة ، اللكنة الَّتي رفضت مفارقة ألسنة بعض عمَّاته وأعمامه ، لم أبال إذا لم يصبح قطُّ مهندسًا أو محاميًا ، أو محاسبًا كأبيه . إذا لم يفعل شيئًا في حياته سوى البقاء على قيد الحياة ، يمكن أن أكتفي بذلك .

في وقتٍ ما خلال الليل ، ألقى دوتون دثارًا فوقي ، ثمَّ غادر البيت من غير أن يخبرني عن وجهته ، وأنا لم أسأل . وبينما تسرَّب شعاع الشَّمس من بين فتحات السَّتائر ، لففتُ الدثار حول صدري وأيقظتُ ابني ؛ إذ حان وقت تجهيزه للمدرسة . تركته يذهب في ذلك

اليوم ، على الرَّغم من أنَّني لم أشأ إبعاده عن نظري ، لأنَّ الأمَّ لا تفعل ما تريد فعله ، الأمُّ تفعل ما هو الأفضل لابنها .

اهتزّت يداي على مقود السَّيارة وأنا أقود بسيسان إلى المدرسة . ركنتُ السَّيارة في مكان الوقوف وراقبتُه يجري إلى صفِّه . لم يحاول ابني أن يلتفتَ لينظر إلي .

قدتُ السَّيارة إلى الدوّار ، ركنتها أمام قصر العدل قرب قصر «أوا» وقصدتُ المكتبة العامة . لم أعثر ولا على مجلّد واحد عن الخلايا المنجلية . طالعتُ كتب علم الأحياء التَّعليمية . قرأتُ عن الدَّم ، خلايا الدَّم الحمراء والهيموغلوبين . قرأتُ الكتب التَّعليمية مرارًا وتكرارًا إلى أن شارف الوقت الثَّانية وكان لا بدَّ من أن أذهب وأحضر سيسان . نقلتُه من غرفته في تلك الليلة ، أعدتُه إلى غرفتي أنا وأكين . سينام قربي حيث أحرص على مراقبته بدقّة .

جاءني دوتون ليلة سبت . ليلة كان ينبغي أن يقضيها في الخارج يعاقر الخمر في نادي «إيجيزا» الرِّياضيِّ مستفيدًا من عضويَّة أكين فيه . لم يقرع الباب ؛ بل دخل كما لو أنَّه رآني من جهة الباب الأخرى جالسة في السَّرير وظهري إلى الحائط . لم ألتق به منذ تلك الليلة الَّتي أثار فيها جسدي من هزَّة جماع إلى هزَّة جماع بينما نام ابني على الأريكة . كان شقيقه الَّذي سيحين وقت عودته خلال أيام ، ما زال غائبًا .

كانت عينا دوتون محتقنتين ، وحدقتاهما بارزتين وسط الاحمرار .

«علينا أن نتكلم ،» قال وهو يقف عند الباب نصف المفتوح .

«اذهب رجاءً .» لم أرغب في التَّحدث إليه .

جلس قرب قدمي . بدا آسفًا ، مذنبًا وخائفًا إلى حدٍّ ما . عجزَ حتَّى عن مواجهة عينَي . بدلًا من ذلك ركَّز على جبهتي كما لو أنَّها

شاشة تلفزيون . ما تخيلتُ قطُّ أن دوتون الصَّاخب ذاك على دراية بمعنى الذَّنب . توقَّعتُ بعض النَّدم ؛ فأنا في النِّهاية زوجة شقيقه . لكن طريقة تقوّس زاويتي فمه اقترحت الشُّعور بالخزي . الخزي شيءٌ ما سبق مطلقًا أن ربطتُه به ، لطالما ظهر أرفع شأنًا منه بابتسامته المستهترة ، بملاحظاته غير اللائقة ، وطريقة نقره أنفه ، وحكِّ خصيتيه علنًا .

«ما فعلناه -- »

«لن يتكرّر ،» قاطعته .

«أنا فقط . . . لا أدري ما حدث . . . الشَّيطان . . . أكين . . .»

كانت تلك أوّل مرّة أسمع دوتون يذكر اسم شقيقه هكذا ، الاسم فقط ، معرّى من الاحترام الواجب تُجاه شقيقه الكبير ، غير مسبوقٍ بكلمة شقيقي أو شقيقي الكبير ، ولا شقيقي أنا ، ولا الشَّقيق أكين ، إنَّما أكين فقط ، كما لو أنَّ زوجي بطريقة ما أصبح نظيره في السِّنّ في مرحلةٍ ما خلال هذا الأسبوع . ربَّما بينما ضاجعني دوتون على بساط غرفة الجلوس .

انحنيتُ إلى الأمام وقبضتُ على ذقنه . «لن يعرف أخوكَ أبدًا أبدًا عن هذا .»

شفتاه المتخاذلتان ارتعشتا وبدا كأنَّه يهمّ بالبكاء . هسهستُ مُحكِّمة يدي على ذقنه إلى أن غرزتُ أظفاري في جلده . «أوه ، كفَّ عن الارتعاش مثل حزام خرزات تحتكّ ببعضها .»

لعلَّ الشُّعور بالذَّنب هو ما حلَّ عقدة لسانه ، حاجة إلى تبرير الرَّغبة الَّتي قفزت إلى عينيه لحظة لمَست يدي ذقنه ، طريقة لخلق العذر للشهوة السَّافرة الَّتي جاهد ليبتلعها . لعلَّه افترض أنَّني أعرِفُ الأشياء الَّتي سيقولها ، الأسرار الَّتي أخفاها أكين عنِّي بينما هو يغذّي بعناية عدم شعوري بالأمان .

لم أرِد تصديق دوتون ، لكنّني لم أستطع إنكار الحقيقة ، عجزتُ عن تكذيب كلامه علنًا والظُّهور بمظهر الحمقاء ، استمرَّ دوتون يعتذر . ابتسمتُ وأخبرتُه أنْ لا بأسَ عليه . أخيرًا أطبق فمه وتراجع خارجًا من الغرفة ورأسه متدلٍ مثل مجرمٍ مدان .

كان كلامه أشبه بخبطةٍ علىّ رأسي ، أصابني بالدُّوار والارتباك . أعدتُ غمغمة ما قاله لنفسي ، حاولتُ جمع جمله معًا من جديد . حاولتُ ملاءمتها بالصُّورة الَّتي لديَّ عن زواجي ، عن علاقتي بأكين منذ أوّل لحظةٍ وقعت فيها عيناي عليه . فتح الماضي نفسَه أمامي مثل ألبوم عائليٍّ شنيع ، كاشفًا عن صورةٍ مألوفةٍ بعد صورةٍ مألوفةٍ أخرى ، ملقيًا الضَّوء على الأشياء الظَّاهرة بوضوح ، الأشياء الَّتي ما رأيتُها قطُّ . أشياء رفضتُ أن أراها .

25

قابلتُ أكين وأنا في سنتي ما قبل الأخيرة في جامعة «أيفي» . تلك الليلة ، ذهبتُ إلى صالة «أودودوا» لمشاهدة فيلم مع فتى دفع ثمن تذكرتي واشترى لي سُويا بالشطة الحارّة لآكلها أثناء العرض . كنتُ في ذلك الوقت أرى هذا الفتى يوميًا تقريبًا .

وقعَت عيني على أكين في طابور شراء التّذاكر أمامنا . كان يبتسم لشيءٍ قالته الفتاة الّتي معه ؛ شفته السفلى بلونها الورديّ الدّاكن برزَت واضحةً أمام بشرته السّمراء . شعرتُ برغبة في لمس تلك الشفة لأكتشف إن كان يضع أحمر الشّفاه . شعورٌ جاء من مكانٍ عميقٍ في أحشائي ، مكانٌ لم أعرف أنّ له وجودًا قبل تلك الليلة .

في الصّالة جلستُ على بُعد مقعد واحدٍ منه . الفتاة الّتي جاء بصحبتها احتلّت المقعد الّذي بيننا ، إلّا أنّها لم تكن حاضرة في تلك الليلة ، كانت مجرّد هواء رقيق ، بل حتّى المقعد الّذي شغلَته لم يكن له وجود . شعرتُ بحضور أكين إلى جانبي كأنّه قربي تمامًا . أكلتُ الـ سُويا ، مضغتُ قطعة تلو قطعة من لحم البقر الحارّ من غير التّريث لأشرب من زجاجة المشروب غير الكحولي الّتي اشتراها لي مرافقي النّبيه .

«ياه ، أنتِ جسورة بأكلكِ ذلك الفلفل اللاهب كلّه! لو فعلتُ مثلكِ لشبّ الحريق في فمي الآن .» علّق فتى الموعد .

ألقيتُ عليه نظرة قبل انطفاء الأضواء مباشرة إشارةً إلى بدء العرض ،

وأنا أُجهِد فكري لأتذكّر مَن هو ولماذا بحقّ السَّماء يخاطبني . بذلتُ ما في وسعي لأبقي عيني على الشَّاشة . . . بدا ذلك مستحيلًا . جُذبت عيناي نحو أكين كما يجذبُ المغناطيس المعدن ، مقاومةُ الجذب تلك كانت مستحيلة . هو أيضًا لبثَ يراقبني في وهج الضَّوء الخافت المنبعث من الشَّاشة . عمدتُ في كلِّ مرّة إلى إبعادِ عيني عنه خشية الغرق في نظرته الثَّابتة . انتهى الفيلم بسرعة ، تحاملتُ على نفسي ووقفتُ لأمضي وراء فتى الموعد ، وأنا أناضل لأتذكَّر اسمه . أبقيتُ رأسي منحنيًا ليتسنّى لي استراق النَّظر إلى أكين من غير أن ألتفتَ .

كان فتى الموعد ذاهبًا إلى قاعة محاضرات ليقضي الليلة في الدِّراسة . أكّدتُ له أن لا ضرورة لمرافقتي إلى غرفتي . توجَّه إلى كلية الآداب وتابعتُ المشي نحو قاعة «موريمي» .

لحق بي أكين . شعرتُ بيده على ذراعي لحظة داست قدماي الرَّصيف .

«أتحتاجين إلى توصيلة؟» سألني .

«تريد حملي على ظهركَ؟»

ضحك . «سيكون ذلك رائعًا . سيارتي أمام الصالة ، يمكن أن أحضرها إلى هنا ، أو يمكن أن نذهب معًا إلى حيث هي . لكن في حال فضَّلتِ الرُّكوب على ظهري ، فهو لكِ .»

«لا ، شكرًا .» كان لعابي يسيل عليه طوال الوقت ، بيدَ أنَّ دماغي لم يسقط بعد من فمي ، فنحن في منتصف الليل ، ولا شيء يمنع من أن يكونَ خاطفًا .

«أنا أكينيل ، وجميعُ النَّاس يدعونني أكين ،» قال .

لسبب ما تجذَّرت قدماي بالأرض . «يجيده .»

حكَّ حاجبه . «يـ . . جيـ . . ده . . اسمٌ جميل .»

فجأة غدوتُ عاجزةً عن نطقِ أكثر من كلمةٍ واحدة في كلِّ مرَّةٍ .
«شكرًا .»
«لاحظتِ إذًا أنَّني لم أشاهد الفيلم بسببك .»
«تريدني أن أعيد لكَ ثمنَ التَّذكرة؟» آه! عاد لي لساني .
ابتسمَ . «أنا لا أمانع ، إنَّما ليس المال . أودُّ أن أعرف رقمَ غرفتك . . . أرغب في رؤيتكِ ثانية ، زيارتكِ .»
«وهل ستأتي مع رفيقتكَ؟»
«رفيقتي؟ أوه ، بيسادي . كانت رفيقتي ، وقد انتهت علاقتنا .»
حنيتُ رأسي لأخفي ابتسامة . «منذ متى؟»
«منذ أن رأيتكِ ، اللَّيلة .»
«أتعرف بيسادي هذا؟»
حكَّ أرنبة أنفه . «لن تلبث أن تعرف .»
«رقم غرفتي في قاعة موريمي ف 101 .» خرجَت الكلمات من فمي وفق إرادتها الخاصَّة .
فركَ يديه معًا وابتسم . «رافقيني إلى سيارتي .» قال .
مشيتُ معه إلى سيارته ، الفولكسفاغن الخنفساء الَّتي ستصبح لي بعد زواجنا . حرص على إبقاء الباب مفتوحًا بينما دخلتُها .
«أتعرفين ما يُقال عن رجلٍ من اليوروبا يفتح باب السَّيارة لزوجته؟»
«ماذا؟»
«حسنًا ، عندما يفتح رجل من اليوروبا باب السَّيارة لزوجته ، إمَّا أن تكون الزَّوجة جديدة أو السَّيارة جديدة .»
«أوه ،» هتفتُ كالحمقى .
«ف 101 ،» قال وهو يطفئ محرك السَّيارة ، إذ كنَّا في موقف سيارات قاعة «موريمي» .

أومأتُ برأسي إيجابًا ، وأنا أحاولُ انتزاع عيني عن شفتيه . . . فشلتُ . بدلًا من ذلك شعرتُ بشفتَي تنفرجان . وفي السَّيارة السَّاكنة سمعتُ نفسي أتنفّس من فمي . كان يمكن أن أبعدَ يده عندما لمسَت ذقني ، وأمالت رأسي حتَّى التقت عيوننا ، وعيناه متسائلتان ، تنشدان الإذن بصمت . لم أبعدْ يده . جذبني نحو حقلِ طاقته ، ولمسَت شفتاه شفتي .

تلك كانت قبلتي الأولى .

أنا طبعًا سبق أن ابتلعتُ اللعاب من أفواه بعض الفتيان ، وهُرِسَت شفتاي بطريقة غير مريحة ، وغالبًا ما تساءلتُ لماذا يتوارى الكثير من الأشخاص تحت الأشجار في بقع مختلفة من الحرم الجامعي ، يعصر بعضهم شفاه بعض كلَّ ليلة . ثمَّ فهمتُ السَّبب عندما التقت شفتاي بشفتي أكين . لجمَت شفتاه الزَّمن . داعب لسانه لساني إلى أن رقص على إيقاع لسانه . عندما تراجع إلى الخلف ، ما عدتُ قادرة على تذكّر اسمي أو أيِّ شيءٍ آخر .

«سأمرّ عليكِ غدًا ،» قال .

ترنَّحتُ خارج السَّيارة ، وعلى الدَّرج الذي يقود إلى قاعة «موريمي» .

ظهر في اليوم التَّالي ، جلس على سريري ورجع إلى الوراء إلى أن استند رأسه على اللوح الخشبيِّ المحاذي للحائط . بدا كأنَّه في بيته ، في منتهى الاسترخاء كما لو أنَّه درج على المجيء يوميًا ، واتكأ بظهره على سريري هكذا . تملَّكني الارتباك . لم يقل شيئًا ، اكتفى بالنَّظر إليّ ، وثمَّة ابتسامة ترقص على شفتيه . اكتسحتني حاجة ملحّة لأملأ الصَّمت بالكلمات . الصَّمتُ بالنِّسبة لي ليس إلَّا فراغًا في الكون يمكن أن يشفطنا كلَّنا . رأيت أنَّ مهمتي تقتضي سدَّ هذا الفراغ المميت بالكلمات لأنقذَ العالم . حدّثته عن نفسي من غير

أنْ يسألني . اعتدل في جلسته ، مال إلى الأمام وتشرَّب كلَّ كلمةٍ نطقتها . بدأتُ أشعر كما لو أنّني أوضِّح له حقائق أبدية .

يمتلك أكين موهبة الإصغاء للناس ، لديه القدرة على تركيز عينيه وأذنيه على المتكلّم بطريقة تجعله يشعر أن أيًا ممّا يقوله مهم ، بل حاسم . كانت السّاعة العاشرة مساءً ، وقتٌ مبكر ، لكنَّه اضطرَّ إلى مغادرة المهجع مع غيره من الزُّوار الذُّكور الآخرين . وأنا أمشي معه إلى سيارته ، أدركتُ أنَّه قد قضى أربع ساعات في غرفتي ، وما زلتُ لا أعرف شيئًا عنه باستثناء اسمه . مع ذلك ، بطريقة ما شعرتُ كما لو أنّني أعرفه .

لاحقًا سأكتشف أنَّ أكين يتمتعُ بالمقدرة على إبقاء ما في سريرته طيَّ الكتمان ، بينما يستخلص الأشياء من النَّاس . كان شخصًا يزعم الكثيرون أنَّه صديقٌ عزيز . العديد من أولئك النَّاس لم يسبروا أغواره ، ما عرفوا قطّ أنَّهم لا يعرفونه . هذا جعلني أشعر بالتَّميز ، الإدراك بأنَّ أكين ما سمح مطلقًا لأيِّ مخلوق أن يعرفه حقًا .

حينما ازداد تقاربنا وأصبح هو الَّذي يسترسل في الحديث على مدى أربع ساعات ، تراءى لي كما لو أنَّني أُدعَى إلى النَّادي الأكثر خصوصية ، نادٍ غير مسموح لأحد أن يدخله سواي أنا ودوتون . ولن أدرك إلَّا بعد فترة طويلة جدًا أن أكين قادر على التَّحدّث لساعات من غير أن يقولَ شيئًا . وبتلك المهارة نجح في جعلي أعتقد أنَّني بطريقة ما جزء من حلقته الدَّاخلية .

أخبرتُ أكين عن خطّتي . الخطّة الَّتي رسمتها يوم دخلتُ المدرسة الثَّانوية . كانت إيا أبيكي ، أصغر زوجات أبي والمفضّلة لديه آنذاك ، قد عاينتني من الأعلى إلى الأسفل بالزّي المدرسيِّ الجديد ، وقالت لي أن لا داعي لارتياد المدرسة ، لأنَّني سأنتهي كعاهرة مثل أمّي ،

أحمل جنين رجلٍ لن يتزوجني أبدًا . لم تعلّق بشيء أيٌّ من الزّوجات الأخريات ، فأيقنت أنَّ إيا أبيكي ، المتبجحة بمكانتها عند أبي ، تكلّمَت نيابة عنهن كلّهن ، وبالتّأكيد يمكنها التّملّص من المشكلة في حال قرّرتُ تكرار ما قالته أمام أبي . حتّى في تلك الفترة راودتني رغبة ملحّة في التّدرّب على يد إحدى الضّليعات بتصفيف الشّعر بعد المدرسة الثّانوية ، لكنّني يومها عزمتُ على ارتياد الجامعة ، وعلى المحافظة على عذريتي إلى أن أتزوج ، وأرسل المنديل الأبيض الملطخ بدم العذرية إلى أبي كبرهانٍ في ليلة دخلتي . على الرّغم من أنَّ قلّة من النّاس حافظوا على هذا التّقليد في تلك الأيام . مع ذلك صمّمت على اتباعه لأقحم المنديل في وجوه زوجات أبي عندما يحين الوقت . في ذهني رأيتُ أنَّ خطّتي هذه إعلان ، شرط أضعه على الطّاولة أمامَ أيِّ رجل يسعى إلى مصاحبتي ، نوع من اتفاقيةِ قبول أو رفض . إنّما مع أكين ، أنا من استعطفته ليقبل بشرطي . صحيح أنّنا تبادلنا القبلات مرّتين قبل أن يطلب منّي أن أصبحَ صديقته ، لكنّني تأكّدتُ من البداية أنّني واقعة تحت رحمة شفته الورديّة .

وافقَ على الانتظار .

كان الانتظار عديم الجدوى . مات أبي قبل فترة قصيرة من زفافنا ، وزوجات أبي اختلقن أعذارًا كي لا يحضرن مراسم الكنيسة ، مع أنّهن فشلن في التّهرّب من الزّفاف التّقليدي بما أنّه أقيم في مجمّع العائلة . عندما عدتُ إلى البيت بعد حفل الاستقبال بانتظار وفدٍ من عائلة أكين لاصطحابي ، كان البيت خاليًا من سكّانه . لم تحضر قريبة واحدة لترافقني إلى «إليسا» ، ولا أختٌ أصغر منّي لتبقى قربي في ليلتي الأولى بصفتي زوجة . بدا ذلك أنّني لستُ يتيمة فحسب ، بل أيضًا كما لو أنّني بلا أقارب مطلقًا .

ليلة دخل دوتون غرفتي من غير أنْ يستأذن ، وأطلعني بلا مواربة على ما تعاميتُ عنه ، وقبل أن يخرج برأسٍ منكسرٍ كرأسِ أيِّ مدان بجرمٍ ، شعرت مجدّدًا بالوحشة نفسها الّتي اجتاحتني يوم زفافي .

أيقظتُ سيسان .

«حدِّثني عن مدرستك ،» طلبتُ منه .

«أحان وقت المدرسة مامي؟» سألني وهو يغالب النَّوم .

«لا ، أريد فقط الدَّردشة معكَ .» احتجتُ إلى سماع صوته ، هذا المخلوق الَّذي يعود لي أنا ، ابني . وأنا أنتمي إليه بطريقة غير قابلة للتغيير أو التَّبديل . أنا أمّه ، أعرف من هو ، ولا يمكنه أن يخونني بالأساليب نفسها الَّتي انتهجها أكين . وما زال لا يستطيع خداعي ، وحتَّى لو فعل سأبقى دائمًا له وحده .

«أريد أن أنام .»

«اجلس هنا .» جذبتُه إلى حضني وعانقتُه بحرارة .

«أخبرني ، من صديقكَ في الصَّفّ؟»

«اتركيني .» احتجّ وهو يتلوّى ليتحرّر منِّي بعزم مفاجئ . تدحرج إلى الطَّرف الآخر من السَّرير ونام .

طوّقني الشُّعور بالوحشة مثل كفن .

26

يوم أخبرَتني يجيده أنَّ سيسان مصاب بمرض خليَّة الدَّم المنجلية كنتُ في غرفة فندق في «لاغوس» ، في مكان ما في «إكيجا» . ولو استطعتُ المغادرة إلى «إليسا» فورًا لفعلتُ ، إلّا أنَّه كان ما زال لدي برنامج اجتماعات عمل خلال الأيام القليلة القادمة . افترضتُ عندما قالت يجيده إنَّ الطَّبيب بيلو يريد رؤيتي حالما أعود إلى «إليسا» ، أنَّه يودُّ مناقشة خيارات العلاج معي . ما كنتُ أعرف الكثير عن هذا المرض لينتابني الفزع الَّذي تجلّى في صوتها عبر الهاتف . كنتُ أثق بالعلوم الطِّبيَّة ، مؤمنًا بأنَّها قادرة على معالجة سيسان إذا أنفقتُ مالًا كافيًا . وكنتُ مستعدًا لصرف كلِّ ما أملكه .

ذهبتُ إلى المستشفى للاجتماعِ بالدُّكتور بيلو فور وصولي إلى «إليسا» . لم أعرج على البيت أوّلًا ، قدتُ سيارتي إلى المستشفى مباشرةً حالما دخلتُ المدينة . عندما أصبحتُ أمام مكتبه كان لحظتها عائدًا من العيادة .

«لا تتذكَّرني؟» سألني وهو يفتح باب المكتب .

حاولتُ جاهدًا أن أتذكَّر أين سبق أن التقينا . «لا ،» أجبتُ وأنا أتبعه إلى المكتب وأجلس على الكرسيِّ الَّذي أشار إليه .

خلعِ معطف المستشفى وقذفه على ظهر كرسي . «جئتُ إلى مصرفكَ من أجل قرضِ السَّنة الماضية ؛ وساعدتني كثيرًا ،» قال . «أمتأكّد من أنَّك لا تتذكَّر؟»

«معذرة ، لكن لا ،» قلت .

طوى كمّي قميصه . «لا بأس ، لا بأس . أخبرتني زوجتكَ أنّكَ في لاغوس . كيف كانت السَّفرة؟»

«جيدة ، جيدة جدًّا . أشكركَ على السّؤال .»

أخذ نفسًا عميقًا . «أخمّن أنَّ زوجتكَ أخبرتكَ أنَّ سيسان مصابٌ بمرض خليّة الدَّم المنجلية؟»

أومأتُ برأسي إيجابًا ، متوقعًا منه أن يطلعني على ما يمكن فعله ، أن يسلّحني بالمعرفة ، يعطيني قائمة قواعد نحتاج إلى الأخذ بها .

«سأتطرقُ إلى الموضوع مباشرة يا سيدي . أعتقدُ أنَّ عليكَ مناقشة الأمر مع زوجتك .» خلع نظارته وبدأ ينظّف عدستيها بمنديل . «هناك بعض . . . آآآ . . . التّناقضات في نتائج فحوص النّمط الجيني الّتي أجريناها لابنكَ .»

تقدَّمتُ إلى الأمام في مقعدي ، متحمِّسًا لأن يتابع ، وللحظة قصيرة جميلة تخيّلتُ أنّه قد اكتشف وجود خطأ في نتائج الفحوصات منذ أن غادرت يجيده مكتبه ، وأنّه يهمُّ بإخباري أنَّ ابننا في نهاية المطاف سليمٌ معافى .

«لذا ، اسمح لي أن أبدأ بتوضيح كيف يعمل مرض المنجلية . إنّه خلل وراثي ، ويحتاج المرء إلى وجود والدين لدى أحدهما في أدنى الأحوال جينة واحدة من الخلية المنجلية قبل أن يرثَها الطِّفل . ما يعني ، على سبيل المثال أن دم زوجتك «أ س» وهذا يعني أنَّ لديها جينة المنجلية ، لكنّها ليست مصابة بهذا المرض لأنَّ لديها جينة واحدة فقط ، هي مجرد ناقلة له . وما يعني بالتّالي أنّها يمكن أن تنقل الجينة إلى أطفالها ، لكن أطفالها لا يصابون بالمرض إلّا إذا كان الوالد الآخر ، أي الرجل ، ناقلًا له أيضًا . هذا يعني أنّك تحتاج

إلى شخصين يحملان النَّمط الجيني «أ س» أو يحمل أحدهما النَّمط الجيني «أ س» والآخر يحمل النَّمط الجيني «س س» قبل إمكانيَّة إنجاب طفل يظهر لديه النَّمط الجيني «س س» . أيبدو لكَ هذا منطقيًا؟»

أومأتُ برأسي إيجابًا .

«حسنًا ، هنا التَّناقض الآن الَّذي أتحدّث عنه . ألقيتُ نظرة على ملفّاتك بعد تسلّمي نتائج سيسان من المختبر ، وهذا ما اكتشفته : زوجتكَ هي الوحيدة الَّتي تحمل النَّمط الجيني «أ س» يا سيدي . أمّا أنت فالنَّمط الجيني لديك «أ أ» ، ما يعني أنَّ الطِّفل لا يمكن أبدًا أن يصاب بمرض المنجلية . يا سيدي أنا أخبركَ بهذا كرجل لرجل ، ولأنَّكَ ساعدتني كثيرًا عندما جئتُ من أجل ذلك القرض . أتفهم ما أعني؟ لذا ، أقول لكَ بكلِّ ثقة أن سيسان ليس ابنكَ .»

شُلّت أوصالي . حجبتُ وجهي بيدي وجهَّزتُه بتعبيرٍ أواجه به نظرة الطَّبيب المتعاطفة .

«أتعني هذا؟» صحتُ . «أتعني ما تقوله؟ أتعني أنَّ تلك المرأة تخونني؟ هل أنتَ جادّ؟ أتعني هذا؟ آه يا إلهي! سأقتلها . أقسم بالله .» سمحتُ لصوتي أن يرتفعَ إلى أعلى طبقاته وخبطتُ طاولة الطَّبيب بقبضتي .

«اهدأ ، يا سيدي ، عليكَ أن تعالج هذا معالجة الرِّجال ، حسنًا؟ رجاءً اهدأ . كُن رجلًا يا سيدي ، كُن رجلًا .»

تأكّدتُ جيدًا من أنّني بدوتُ غاضبًا كما ينبغي أمامَ الدُّكتور بيلو . تصرَّفتُ كما تهيّأ لي أنَّ الرَّجل قد يتصرَّف عندما يكتشف أنَّ الطِّفل ليس ابنه . ضربتُ الحائط ، صحتُ وصفقتُ الباب وأنا أغادرُ المكتب .

لكن سيسان ابني . أحببتُه . وما برحتُ أخطط لمستقبله ، اشتريتُ

أسهمًا باسمه. وغالبًا ما تطلّعتُ إلى اليوم الذي أشتري له فيه زجاجته الأولى من الجعة. وأكاد لا أطيق صبرًا لأعلّمه كيف يلعب كرة الطّاولة في النّادي الرّياضيّ. كنت واثقًا من أنّني أنا مَن سيفعل ذلك كلّه. لا أحد غيري سيفعله. هناك أشياء لا تُظهرها الفحوصات الخاضعة للعلم، أشياء مثل حقيقة أنّ الأبوّة أكثر بكثير من التّبرّع بالسّائل المنويّ. كنتُ أعرف أنّ سيسان ابني. ولا نتائج فحوصات واحدة قادرة على تغيير ذلك.

هذا إلى جانب أنّني كنتُ أعلم أن دوتون هو المتبرّع بالسّائل المنوي. على هذا النّحو فكّرتُ في ما قام به من أجلي، تبرعٌ بالسّائل المنوي. وما شككتُ قطُّ في أن دوتون قد يدّعي في يوم أنّه والد سيسان، وهذا هو سبب لجوئي إليه، عندما تقبّلتُ في النّهاية حقيقة أنّني أحتاج إلى شخص آخر ليخصّب زوجتي.

«شقيقي الكبير؟ ما هذا الشّيء الّذي تقوله؟» هتف دوتون بعد أن أعلمته بخطّتي.

«ما عليك إلّا أن تقضي عطلة نهاية أسبوع واحدة. الأسبوع القادم. ستكون يجيده في حالةِ إباضة.»

«ويجيده؟ وافقَت على هذا الّذي تقوله؟» بدا كما لو أنّه على وشك أن يتقيّأ مُلوّثًا البساط الأخضر بأكمله في غرفة جلوسه.

«نعم.» أجبتُ، مع أنّني في الواقع لم أناقش الموضوع قطُّ مع يجيده، أردتُه فقط أن يوافق على الخطّة لأذهب إلى فراشي كي أنامَ وأنسى ما دار بيننا.

نهض، ذهب ليقف إزاءَ نافذة، حملق في الليل الأدهم الّذي لم تُضئه النّجوم أو مصابيح الشّارع. لم أستطع رؤية وجهه بوضوح، الشّمعة الّتي في وسط الطّاولة راحت تحترق بسرعة.

«شقيقي أكين . . . أوه ، مع فائق احترامي ، هذا الشّيء الّذي تقوله هراء . ماذا لو؟ لا . لا ، لا أستطيع . لا أريد . هذا خطأ .» التفتَ ينظر إليّ عندما قال ذلك ، وراح يسوط الهواء بيديه كما يفعل عادة عندما يثور .

تملّكتني رغبة في الضّحك . دوتون؟ خطأ ؟ ماذا بحقِّ الجحيم . لقد واعد أُمًا وبنتها في الوقت نفسه . لديه صفٌ من الصّاحبات البديلات ؛ بل حتّى إحداهنّ كانت زميلة زوجته المسكينة في العمل . ويأتي الآن ليعلمني بما هو خطأ؟

«لا أطلب منكَ أن تغتصبها . . . تبًا . . . مرّة واحدة فقط ، اجعلها تحبل وهذا كلُّ شيء ، ساررتكَ بمشكلتي ، أتريد منّي أن أتوسّل إليكَ؟»

«هذه فحشاء ، إنّها زوجتكَ ، اللعنة ، زوجتك . أتطلب منّي أن أضاجع زوجة شقيقي؟ زوجة شقيقي الكبير؟ لا ، لا أستطيع ، لا بدَّ من وجود طريقة أخرى .»

«دوتون ، أنتَ الشّخص الوحيد الّذي أستطيع اللجوء إليه . أنتَ الشّقيق الوحيد الّذي لدي . أتريدني أن أستدعي رجلًا غريبًا؟»

لكَمَ عدّة أسطح : فخذه ، الحائط ، شاشة التّلفزيون البيضاء . تفجُّرُ ضميره فاجأني! لم أتوقّع أن يرحِّب بالفكرة ، لكن على نحوٍ ما لم يخطر لي مطلقًا أنّه سيتمزّق هكذا ، أن يرتعب كثيرًا . إنّما مِن ماذا؟ أليس هو دوتون الّذي أحفظه عن ظهر غيب؟

«تحبل إذًا ، ثم بعد ذلك ألا تريدُ طفلًا آخر؟»

«إذا رتّبنا الأمور ترتيبًا جيدًا ، تكفي عطلة نهاية أسبوع لكلِّ طفلٍ . كلُّ شيء يجري بنسق واحد ، لا بأس بثلاثة أطفال .»

نظر في عيني ، تحرّى وجهي وتهاوى على كرسيٍّ . «فكّرتَ في هذا . أدمت التّفكير فيه وقتًا طويلًا .» اتهمَني صوتُه بعديدٍ من الأشياء .

«أنا أفعل هذا من أجلها .»

«على الرَّغم من ذلك لا أستطيع ، ربَّما يكون رجلٌ غريب أفضل .»

لماذا رويتُ له الحكاية؟ لعلَّ جزءًا منِّي خمَّن أنَّ عذاب يجيده هو ما يمكن أن يؤثِّر فيه ، كثيرًا ما بدا لي من نظراته العميقة لها وعناقه المطول ، أنَّه في حال التقى بيجيده قبلي لاختلف الوضع . وربَّما لأنَّني عرفتُ آنذاك ما كان دوتون يخشاه ، ما يرفض أن يعترف به بينه وبين نفسه ، أنَّه مع يجيده مستحيل أن يقتصر الأمر على الجنس بالنِّسبة إليه ، لأنَّ جزءًا منه لطالما اشتهاها .

أخبرتُه عن طفل المعجزة : الاتصال من المستشفى ، والممرضة المسؤولة عن تدريبات ما قبل الولادة تتوسّل إليَ لآتي وأصطحب زوجتي ، أخبرتُه عن ذلك اليوم الَّذي ذهبتُ فيه إلى صفّ التَّدريبات ، وصفتُ النَّظرة المجروحة في عيني يجيده وأنا أحاول إخراجها من الصَّف ، طريقة تشبُّثها بالدَّرابزين المعدنيِّ في بهو المستشفى ، امتناعها عن رفع يديها عنه لتعيد ربطَ الدِّثار الَّذي سقط عندما حاولتُ سحبها . أخبرته بكلِّ ذلك إلى أنْ استطاع أن يراها ببلوزتها المزركشة وتنورتها التَّحتانية الحريريَّة ، والدِّثار عند قدميها مثل جلد أفعى مَسلوخ . رويتُ له كيف بقيَت كذلك إلى أن انتهى صفُّ التَّدريبات وبدأت النِّساء الحوامل تغادر إلى بيوتها ، وقسمٌ منهنَّ يتسلّل على مقربة منها بخطوات مستعجلة ، وقسمٌ آخر يستدير ويسلك وجهة أخرى حالما يدنو منها .

«هل ستجنّ؟» سألني .

«بدأت ترى طبيبًا نفسيًا . إنَّها على ما يرام الآن ، لكن قد تستيقظ غدًا وتقول إنَّها تشعر بغثيان الصَّباح .»

«لا أستطيع!» نهض ، وعاد إلى النَّافذة .

«دوتون أنا أتحدَّث عن ممارسة الجنس مع يجيده ، مع زوجتي الجميلة .» ازدردتُ ريقي ، شعرتُ كما لو أنَّني أدفع عنوةً قبضةً حديديةً في حَلقي .

نقّل شقيقي وقفته من قدم إلى أخرى . وتبيّنت من طريقة ارتداد وركيه المندفعتين تجاه النَّافذة ، أنَّه قد صار آنذاك في «إليسا» ، في غرفة نومنا ، يضاجع زوجتي .

«هذه فاحشة!»

«انصحني إذًا ، ماذا أفعل؟»

«يا شقيقي الكبير أتعلم يجيده أنَّكَ هنا السَّاعة؟»

«تعرف أنَّني في لاغوس . دوتون ، لماذا تطيل حوارنا؟ لماذا ترى أنَّ هذا يختلف عن جميع الفتيات الأخريات اللاتي تصاحبهن؟ لن يكون ذلك سوى ممارسة جنس ، خمس مرات في الغالب ، وبعدها تنتهي مهمتكَ .»

«سيكون ممارسة جنس فقط .» ردَّد ببطء ، كما لو أنَّه يختبر حقيقة الكلمات بنطقها .

27

غضب أكين من وجود سيسان في سريرنا، سواء بتشخيص أو بلا تشخيص.

«لا أروم سوى أن أكون قادرًا على ملامستكِ في أيِّ وقت، وكما أشاء. وهذا الطِّفل واعٍ، وسيتذكّر ما نفعله،» قال.

تملّكتني الرغبة في أنْ أضحك في وجهه. ماذا! كنّا نفعل؟

«صحة سيسان هي أولويتنا الآن، وليس التّلامس،» قلتُ.

عبس، لم أكترث. ما عدتُ أريد يديه على جسدي مطلقًا. خداعه كان يمزقني، مع ذلك لم أملك الوقت للتعامل معه أو مواجهته. سيسان يحتاجني، يحتاج كلّ شيء فيَّ قادر على إبقائه على قيد الحياة. الشِّجار مع أكين بسبب بوح دوتون ليس إلّا هدرًا غير ضروري للطاقة.

بعد تشخيص حالة سيسان تدفّق في جسمي الأدرينالين. قضيتُ أيامي أقرأ مجلات طبيَّة منسوخة استعرتها من طبيب سيسان. اكتظَّ رأسي بصور الهيموغلوبين والخلايا الَّتي تتخذ شكل المنجل. تعلّمتُ كيف أستعمل ميزان الحرارة لأتفقّد حرارة سيسان، ولفترة وجيزة فكّرتُ أن أتدرّب لأصبح ممرضة. الشّيء الوحيد الّذي منعني هو أنَّني حينها لن أحظى إلّا بوقت قصير خارج جدول التّدريب لأعتني كما ينبغي بابني. درجتُ على الاستيقاظ مرّات عديدة في غيهب الليل وأنا أتصبّب عرقًا، عاجزة عن تذكُّر أيِّ كابوس دفعني لأنتصب في

السَّرير. بعد بضعة شهور بدأت أتنفّس مجدّدًا. كان سيسان في حالةٍ صحيَّة جيِّدة، وما زال يتعلّق رأسًا على عقب بدرابزين الدَّرج ويجري في البيت بلا سبب معين. كان أيضًا يبلي بلاءً حسنًا في المدرسة، بل حتَّى حاز على المرتبة الثَّانية في صفّه.

قطعَت الأزمات الأولى أنفاسي. أخبرني سيسان بعد عودته من المدرسة في أحد الأيام أنَّه يعاني من الصُّداع. أعطيته شراب الباراسيتامول وجعلته ينام على أريكة غرفة الجلوس. لم يتجاوب معي لمَّا حاولت إيقاظه ليتعشّى.

تضرّعتُ إلى الله في قلبي بينما قاد أكين بنا السَّيارة إلى المستشفى. رجاءً، رجاءً، رجاءً توسَّلتُ. لم أستطع تركيز ذهني على أيِّ شيء أكثر تماسكًا. انطلقَت السَّيارة قدمًا أسرع فأسرع. في زاوية رأسي، وسوس لي شيطان بأنَّنا نسرع بعيدًا عن المستشفى وليس نحوها.

«أسْرَع، أسْرَع. قُد أسْرَع! أتعرف ما هي وجهتنا؟» زعقتُ في وجه أكين.

هدّدتُ سيسان. «أنت يا هذا الطِّفل، سأقتلكَ إن متّ.» تعثَّرتُ خارج السَّيارة قبل أن يوقفها أكين وعدوتُ نحو أقرب بناء.

حاولت ممرضة أخذ سيسان منِّي. تمسَّكتُ به وأنا أواصل الصُّراخ.

«أفلتيه،» هتف أكين.

سمحتُ للممرضة أن تأخذه. سدَّ الطَّريق علينا حارس عنبر عندما حاولنا اللحاق بها. أطلقتُ صوتي بصرخات التَّهديد وراء المرأة؛ العذاب الذي ستذوقه على يدي إذا أصاب طفلي مكروه.

ذرعتُ البهو جيئة وذهابًا. كنتُ وحدي. وأكين في مكان ما يملأ الاستمارات لإدخال سيسان. تضرّعتُ إلى الله ثانية. ثمّ انبريت أطلق تهديداتي: إذا أنت...؟...؟ إذا ابني...؟...؟.. أعدك

بأنّني سـ . في تلك اللحظة كرهتُ الرّب . تمنّيت أن أراه وأنتزع قلبه . ماذا فعلتُ له على أيّ حال؟ ألا أستحق شيئًا من السّعادة؟ أُمّي ، أولاميد ، والآن سيسان .

تتابعَت الأيام ببطءٍ ، كلُّ دقيقة حبلى بالأمل ، كلُّ ثانية مرتعشة بالمأساة . جاءت مومي إلى المستشفى وجلسَت قربي طوال الليل . قبل أن تغادر في الصّباح التّالي ، ذكّرتني أنَّ عليّ أن أكونَ قويّة لأنّني أُمّ . قبعتُ إزاء سريره أنظرُ ، أنتظرُ ، أبحث عن أوهى إشارة تدلُّ على أنّه قرّر العودة لي . لم أرَ أيَّ إشارة . وخشيتُ لمسه ، خشيتُ أن ترهقه لمستي وتجعل كفّته تميل نحو المجهول ، بعيدًا عنّي ، إلى الأبد . مع حلول اليوم الثّالث جثوتُ على ركبتي أصلّي له بكلمات هامسة لا أحد غيري يسمعها .

ارحمني ، لا ترحل ، أتوسّل إليكً . ابق معي . كنت أدخل الحمام جريًا وأعود جريًا . لم آكل ولم أستحم .

أفاق من غيبوبته في اليوم السّادس . صرختُ أنادي الطّبيبة على الرّغم من أنّها كانت أمام السّرير المجاور في جولة على العنابر عندما صحا سيسان .

«رائحةُ مامي كريهة .» تلك هي الكلمات الأولى الّتي نطقها ابني عندما استعاد وعيه . ما زلتُ أتذكرها إلى يومنا هذا .

*

جاءت حماتي تزورنا بعد حوالي أسبوع من خروج سيسان من المستشفى . رفضَت تقبُّل ترحيب أكين بها ، وهزّت رأسها نفيًا عندما عرضتُ عليها شرابًا .

«هذا طفلٌ محكومٌ بالموت ، هذا أبيكو» قالت مومي حالما استقرّت على كرسي . «فكّرت مليّا في مرض هذا الطّفل منذ أن جئتُ أعوده في المستشفى .»

«إنّه مرض ليس إلّا يا مومي ، ولديهم اسم له ودواء . إنّه ليس أبيكو .» اعترض أكين .

شخرت مومي . «أيستطيعون أن يشفوه؟ أيمكن أن يخلّصوه من هذا المرض؟»

«يمكنهم مداواته ،» قال أكين .

«ألديهم ما يشفيه؟ لا! أترى؟ أنت تهزّ رأسك نفيًا ، ما يعني أنّه أبيكو . لقد رأيت الكثير من أولئك الأشخاص في أيامي . هذا ، هذا ما هو فحسب . اسمع ، أطفال الأبيكو أولئك ، تعهّدوا لعالم الأرواح أن يموتوا صغارًا . أقول لك الحقّ ، روابطهم بعالم الأرواح أقوى من الفولاذ . أتظنّ أنّ مستشفياتك قادرة على مساعدتكَ في ذلك؟ يجب أن نفعل شيئًا .»

ضغط أكين جبينه كما لو أنّ داء الشّقيقة يداهمه . «إنّه مجرّد مرض يا مومي ، وهناك دواء . لا شيء روحاني فيه .»

«يعني أنّكَ دخلتَ مدرسة الرّجل الأبيض وأنا لم أفعل . لقد رأينا منكم ما يكفي يا جماعة المدارس ، لنعرف أنّ تلقّي العلم لا علاقة له بالحكمة ، بالنّسبة إلى العديد منكم هذا غباء ، مثل الاكتفاء بمعالجة أعراض المرض بينما هناك شفاء منه .»

«مومي ، أتقولين إنّي أحمق؟» لاحظتُ أن انزعاج أكين بدأ يتحوّل إلى غضب .

ألقَت عليه مومي نظرة متمعّنة أفصحت عن أنّ ردّها كان «نعم» مُدوّية ، ثمّ التفتَت إلي .

«أجيبيني بالصِّدق يا بنتي . ما رأيكِ؟ أعلينا أن نتكتف ونراقب الأطباء يداوون ما يعجزون عن شفائه ، بينما لدينا دربٌ آخر يمكن أن نسلكه؟ دربٌ آخر يا بنتي! العالم بأكمله يعرف أنَّ هناك دروبًا مختلفة تؤدي إلى أي سوق . لكن الرَّجل الأبيض خدع بعضكم ، أقنعكم أنَّ دربه هي الدَّرب الوحيدة .» صمتَت لحظة ونظرَت شزرًا إلى أكين الَّذي راح يحدِّق في السَّقف . «بعضكم بلغ به الحمق درجة تصديق الرَّجل الأبيض من غير التَّحقّق بنفسه . عسى الرَّب يرحم الجميع .»

«قولي ما تشائين مومي ،» تصدَّى لها أكين ، «نحن لن نأخذ ابننا إلى أيٍّ من جماعتكِ الدّجالين .»

«انظري إلى هذا الأكين الَّذي لا يعرف كيف هو الحبَل ، اسمعي طريقته في الكلام . يا بنتي ، أوه ، لا تهتمي به . أنتِ مَن ستقرّر لأنَّكِ تعرفين كيف تبدو الحال عندما تنحنين لتضعي مولودك . أتظنين أنَّ شعبنا يقول جزافًا أن لا ربّ هناك مثل الأُمّ؟ أنتِ تعرفين طبعًا . لا أحد يبالي بإكمال الجملة في أيامنا هذه . يا أُمّ سيسان ، افتحي أذنيك واسمعي المثل بأكمله ، لا ربَّ هناك مثل الأُمّ ؛ لأنَّ أحدًا لا يمكن أن يساند الطِّفل مثلها ، عندما يداهم الألم ذلك الطِّفل . أنتِ الَّتي ستقرّرين عن ابنك ، ليس هذا الأكين الَّذي يريد مداواة الأبيكو بحقنة .»

جاء دوتون في تلك اللحظة ، ورائحة الكحول تفوح منه . «مومي ها أنت هنا!»

تلوّى سيسان متحرِّرًا من ركبتي جدته . شدَّ حاشية ثوبي . «ماهي الأبيكو؟»

«إنَّها لعبة ،» أجبتُ .

«أيمكن أن نلعب أبيكو؟»

«لا ، هي لعبة سيِّئة ،» قلتُ .

راح دوتون يتخايل أمام مومي ، ويردّد أناشيد الأطفال . «ماع ماع . . . خروف أسود ، ماع ماع . . . خروف أسود .»

«لماذا يُمأمئ ابني كالخرفان؟» تساءلتْ مومي .

«إنَّه ينشد أغنية ، أغنية إنجليزيَّة ،» ردَّ أكين .

تنهَّدت مومي ، وهزَّت رأسها .

«أستطيع أن أقفزَ كالضفدع ، أستطيع أن أقفز كالضفدع!» هذه المرة غنّى دوتون بلغة اليوروبا ولم تحتج مومي إلى أيٍّ تفسير .

«أكين ، لا تنظر إليَ هكذا . افعل شيئًا بخصوص أخيك .»

على الرَّغم من أنَّ زوجي ليس لديه شيء جديد يقوله ، أسرع وحوَّل دفّة الحوار من صحة سيسان إلى دوتون العاطل عن العمل وماذا يفعل وماذا يخطّط .

أخذ دوتون يقفز في غرفة جلوسنا مثل طفل ، يردّد أناشيد أطفال مختلفة . وتبعه سيسان وهو يجاريه في الغناء .

«مَن في الحديقة؟ بنت صغيرة لطيفة . أيمكن أن آتي وأراها؟ لا . لا . لا!»

وقف دوتون أمامي وفي معمعة سُكره جذبني من الكرسي نحوه بيد واحدة وضغط صدري باليد الأخرى . حاولتُ التملّص منه بَيْدَ أنّه تشبّث بي .

دفع أكين دوتون الّذي انهار على كرسيٍّ وهو يضحك .

«آه ، فاحشة!» صاحت مومي ووضعَت يدها على صدرها كأنَّها تريد منعَ قلبها من الانفجار عبر جلدها .

«إنَّه الكحول ،» قال أكين .

«يا زوجة ابني ، لا تغضبي رجاءً ،» قالت مومي .

«هي ليست غاضبة . إنَّه الكحول ، أليس كذلك؟» سألني أكين ، وإحدى عضلات فكيه استمرَّت في التَّقلّص كما لو أنَّه يمضغ أسنانه . قبضتاه مكوّرتان وعروقهما بارزة . بقيَت نظرته مثبتة عليَّ ، حتَّى على الرَّغم من أنَّ أُمّه انبرَت تقول له شيئًا . وقف ينتظر منِّي أن أجيب ، أنْ أؤكّد له أنَّ ذاك ليس إلّا مفعول الكحول . هبطتُ على الكرسي وأنا أفكّر أن ليس لديه أيُّ حقّ ليغضب ، ليس إذا كان ما أخبرني به دوتون صحيحًا . لكنَّني لم أمتلك الطَّاقة الكافية لأهتمَّ كثيرًا بمشاعر أكين . سيسان هو كلّ ما يهم ، ابني هو كلُّ ما تبقى لي .

28

أخذتُه من عيادة مدرسة الفرانسيسكان. ورافقَتني إلى المستشفى إحدى الممرضات المناوبات الّتي كانت في الوقت نفسه راهبة. حملَت ابني وهي تهمس بصلوات أجهلها. لم أميِّز إلّا العبارات المأخوذة من صلاة الرَّبّ:

أبانا الّذي في السموات، ليتقدّس اسمك...

سرعان ما طمس أنينُه كلماتها. تلوّى كما لو أنّه ينشد طريقة ليهرب من جسده. في أنينه تجمّع ألمٌ يفوق الاحتمال بالنِّسبة إلى مخلوق صغير جدًّا، ووقتما قُدنا عبر الطّريق إلى مستشفى نقابة ويزلي بحّ صوته. حملته الرّاهبة، وتبعتني وأنا أسابق الرِّيح أمامها إلى عنبر المرضى. عرفتني الممرضة المناوبة وقادتنا فورًا إلى سرير. بقيَت الرّاهبة معنا، تردّد صلواتها عند نهاية السّرير.

ليأتِ ملكوتك، لتكن مشيئتك، كما في السّماء كذلك على الأرض. أعطنا خبزنا كفاف يومنا....

وقفتُ إزاء السّرير بقدر ما استطعتُ أن أقترب. أردتُ تلقّف جرس صوته، أمتصّ الألم الرّهيب الّذي يعانيه. سبق أن سمعته مرّات

ومرّات، ولطالما كوى دماغي وتجسّد في أحلامي. كانت عيناه مطبقتين وهو متقوقع على شكل كرة مُحكمة بحيثُ أنَّ الطّبيب والممرضات حاولوا بقوّة فرد أوصاله. نشج باسمي «ما-مي. ما-مي. ما-مي.» وكلُّ صوت متقطّع كان مسمارًا يغرز في قلبي. أردتُ بجنون أن أضع حدًّا لوجعه، بأيِّ طريقة ممكنة، لكنّني لم أستطع.

واغفر لنا خطايانا...

«سيدة أجايا... سيدة أجايا، أمسكي يده رجاءً.»

دنوت من السّرير أكثر. تشبّثت يده بيدي بشدّةٍ مدفوعةٍ بالألم سحقَت مفاصل أصابعي. رحبّتُ بالألم المنتشر في يدي، مدركة أنّه ليس إلّا نقطة من بحر ما يكابده. أمِلتُ أنّه بالتّشبّث بيدي يمكن أن ينقل وجعه إلى جسمي ويتحرّر منه.

أتذكّر ذلك الوقت لأنَّ الرّاهبة رافقتنا إلى المستشفى. كان سيسان يُدخَل إلى المستشفى كثيرًا بحيث يصعب تمييز دخول عن دخول آخر. الرّاهبة ذات الرِّداء البيج تجعل هذه الذِّكرى تبرز. ما لبث الأطباء أن طلبوا منِّي ومن الرّاهبة الانتظار في الخارج، وهناك انضممنا إلى مجموعات الأقارب المختلفين، الجالسين منهم أو الّذين يذرعون المكان ذهابًا وإيابًا. رفاقٌ في وادي ظلّ الموت، وكلّنا ننتظر أحدًا برداء أبيض ليطلعنا على مصيرنا.

وضعَت الرّاهبة يدها في يدي، قادتني إلى مقعد خشبيٍّ، وجلست إلى جانبي. وهكذا انتظرنا؛ الرّاهبة تصلّي وأنا أفكّر إلى أيِّ حدّ يقع اللوم علَي. كان مجال الهروب من الشّعور بالذّنب ضئيلًا بالنِّسبة إلى مرض سيسان، بل حتّى لم أحاول الهروب. ما بدا لي هو أنَّ خمسين

بالمئة من معاناته بسببي . أنا من سبّبتُ له المرض . أنا الّتي نقلَت إليه جينة خليّة الدّم المنجلية ؛ جسمي هو الّذي خلق العيب في جسمه . لم أتجنّب اليأس ، لم أحاول النّأي بنفسي عن وجعه . كان من العدل أن أشاركه بما سبّبتُه له .

رفضتُ الاسترسال في التّفكير أنّه قد يموت . لم أتخلّ عن سيسان ، تمسّكتُ به في قلبي . أقنعتُ نفسي أنّه سينجو من ذلك كلّه - الوجع الّذي يجعله يصرخ إلى أن يبحّ صوته ، الحُقن ومضادات الألم الّتي تُضخ في جسده . ما تمنيتُ ولا للحظةٍ واحدةٍ أنْ يحرِّره الموت من عذابه . صلواتي الوحيدة تمحورت حول نجاته وبقائه على قيد الحياة . أخبرنا الأطبّاء أنّ هناك أشخاصًا عاشوا طويلًا ، واختبروا حياة كاملة على الرّغم من المنجلية ، وبقدر ما يتعلّق الأمر بي لم أجد سببًا يحول دون أن يكون ابني أحدهم .

أقنعتُ نفسي بأنّه سيعيش لأنّه يستحقّ أن يعيش ، لأنّه يريد أن يعيش ، كان في غاية الشّجاعة ، متعطشًا كثيرًا للحياة على الرّغم من كلِّ شيء . لكن أقنعتُ نفسي بذلك أيضًا لإدراكي أنّني لا أطيق فقدَ طفلٍ آخرَ - رفضتُ ولو مجرّد التّفكير في الأمر . أدركت أنّني لن أنجو إذا تعرّضتُ للخسارة .

عادت الرّاهبة سيسان يوميًا خلال الأسبوعين اللذين قضاهما في المستشفى . يومَ أُخلي سبيله ، حاول أكين أن يحمله عندما غادرنا عنبر المرضى ، إلّا أنّه أسرع يسابقنا إلى السّيارة . ضحك ومدّ ذراعيه المُنمنمتين محاولًا التقاط فراشة حمراء رآها تطير أمامه .

29

«السَّيِّد أجايا، أنتَ السَّيِّد أجايا، أليس كذلك؟ حسنًا جيّد،» قال الطَّبيب. «إنَّه يتجاوب مع العلاج الآن، في وسعك أن تراه خلال ساعة أو ما يقاربها. سأطلعكَ عندما يحين الوقت. اعذرني رجاءً.»

عدتُ إلى البهو حيثُ كنتُ أجلس مع يجيده على مقعد. رأيتها تذرع الأرضيَّة ويداها مشبوكتان حول بطنها الكبير.

«هيَّا، تعالي واجلسي. لا مشكلة هناك.» وضعتُ ذراعًا حول كتفيها، وقُدتها إلى مقعد. «قابلتُ أحد أطباء سيسان في طريق عودتي من المرحاض. يقول إنَّ سيسان يتجاوب مع العلاج. وسيتسنى لنا أن نراه قريبًا. لذا ما رأيكِ أن تسترخي الآن؟»

«الحمد لله،» تنهَّدَت وألقَت بثقلها علي. «لقد ركلني الجنين ثانية بعدما ذهبتَ.»

وضعتُ يدي على بطنها.

ضحكَت. «آسفة، لقد توقّف عن الرَّكل.»

«هذا ليس منصفًا.» تزحزحتُ ملتصقًا بها ليجلس إلى جانبي رجل مسنّ. «ألا تذهبين إلى البيت من أجل لقمة فطور؟ سأنتظر هنا.»

«لا، لا أريد. مستحيل. لن أذهب إلى أيِّ مكان من دون ابني.»

«سيكون بخير، لا تقلقي. تحتاجين إلى الطَّعام يا يجيده.» نهضتُ وأردفتُ، «سأحضر لك شيئًا من باعة الطَّعام خارج البوابة. ماذا تريدين؟»

«خبز ربَّما .»

«أعود خلال دقيقة .»

استيقظتُ أنا ويجيده في الليل لنجدَ سيسان يتلوّى من الألم ، انتهينا في المستشفى قبل الثّالثة صباحًا . كانت الشّمس في طريقها إلى البزوغ عندما مضيتُ خارج بوابة المشاة . اكتشفتُ أنَّ معظم الأكشاك الخشبيَّة المتجمّعة قرب المدخل ما زالت فارغة واضطررتُ إلى المشي نحو شارع «إيجوفي» قبل أن أصادف امرأة باعتني رغيفَي خبز طازجين . كانت يجيده تقضم الخبز عندما تقدّم منّا الطّبيب الّذي سبق أن رأيته ؛ وقفنا حالما اقترب .

«تعال معي رجاءً . أودّ محادثتكَ ،» قال .

أسقطَت يجيده رغيفها على المقعد وبادرنا إلى قطع البهو مع الطّبيب . وقف الطّبيب وألقى نظرة على بطن يجيده . «لا ، لا . عنيتُ زوجك فقط يا سيدتي . اذهبي واجلسي رجاءً ، أحتاج إلى التّحدث إليه فقط . وحده .»

«لماذا هو فقط؟ ماذا عنّي أنا؟ ألا تحتاج إلي؟» استفسرت يجيده .

«لا سيدتي . لا أريد سوى أن أطرح على زوجكِ بعض الأسئلة . ولن يلبث أن يعود إليكِ .»

جرجرَت يجيده رجليها عائدة إلى المقعد ، بينما مضيتُ أنا والطّبيب إلى نهاية البهو . كان وقع قدميها ما زال مسموعًا عندما وقف الطّبيب .

«سيد أجايا ، كيف أقول هذا؟» حدّق في الأرضيَّة لِما بدا أنّه دقيقة كاملة . عندما نظر إلى الأعلى كانت عيناه حمراوين . «هذا ندائي الأوّل في طبِّ الأطفال . لم أصبحْ طبيبًا إلّا في السّنة الماضية فقط . وأنا لست متخصّصًا في طبِّ الأطفال . الطّبيبة المسؤولة عنّي ،

الطَّبيبة المسؤولة المناوِبة كانت هناك أيضًا عندما جاهدنا من أجل إنقاذ سيسان. إلّا أنّها ذهبت إلى المرحاض ثانية. الطَّبيبة بولوس، هذا اسمها، أعتقد أنّها تعاني من الإسهال. ربّما يجب أن ننتظرها. أنا في غاية الأسف.»

«ماذا تقول؟»

فرك عينيه بظاهر يده وتنهّد. «لقد فقدناه. أنا في غاية الأسف، فقدناه.»

إلى يومنا هذا أفكّر في طريقة قوله إنّهم قد فقدوه، كما لو أنَّ هناك فرصة لاستعادتهِ، في العثور عليه مختبئًا في داخل خزانة ملفّات.

عدتُ إلى يجيده. «إنَّه يتحسّن.» قلتُ.

«متى يمكن أن نراه؟»

«ليس بعد. يريدون... يريدون مراقبته لساعتين أخريين قبل أن نراه.»

عبسَت. «ساعتان؟ لماذا أراد محادثتكَ على انفراد؟»

«ألديكِ ملوخية في البيت؟»

«ملوخية؟» حكّت رأسها. «نعم، لماذا؟»

«يريدنا أن نجلب له حساء ملوخية حتّى... لأن... عندما... إنّها مُغذية ويعتقد أنّها ستساعده. هيّا، لنذهب إلى البيت.»

«لأيِّ غرض؟»

«الملوخية يا يجيده الآن. لن نراه قبل ساعتين في جميع الأحوال. لنذهب بسرعة كي يجهز الحساء عندما يسمحون لنا بالدُّخول إليه.»

زمّت شفتيها. وبينما مضينا إلى موقف السّيارات، لم تكفّ عن الالتفات والنَّظر إلى الجناح الّذي أدخل فيه سيسان.

ونحن نعود بالسّيارة إلى البيت، فكّرتُ في أفضل طريقة لأخبر

يجيده أنَّ ابننا قد مات . أدركتُ حتَّى قبل أن نغادر المستشفى أنَّه سيكون أصعب من أيٍّ شيء فعلتُه في حياتي .

وضعَت يجيده يدًا على ركبتي وأنا أركن السَّيارة أمام بيتنا . «لم تقل شيئًا منذ أن غادرنا المستشفى . ما الخطب؟ ماذا قال الطَّبيب؟»

لا بدَّ من أنَّه كان هناك شيء ما في عيني ، في طريقة نظري إليها بينما حاولتُ أن أختلق شيئًا معقولًا أقوله .

«إنَّه سيسان ، أليس كذلك؟ قصَّة الملوخية تلك مجرّد كذبة . أردتَ فقط أن تخرجني من المستشفى . ماذا حدث؟» أحكمَت قبضتها على ركبتي . «هل مات ولدي؟»

لم أستطع أن أكذب ، ولم أستطع البوح بالحقيقة ، لم أمتلك الطَّاقة لأقول كلمة . بقيتُ أحدِّق فيها فحسب .

«أكين؟ مات سيسان؟»

عجزتُ حتَّى عن الإيماء برأسي . كنتُ ضعيفًا ، مستنزفًا . لم أحاول حتَّى أن أضمَّها عندما وضعت جبينها على لوحة العدادات وأجهشت بالبكاء .

*

جاءت مومي في اليوم التَّالي لتطلب إذنًا . قدّمَت تعازيها بإيجاز ، وجلسَت قرب يجيده على سريرنا . «بضع علامات فقط على جسده ،» خفضَت صوتها . «وبضع لسعات سوط .»

«مومي ، قلتُ لا ، لا حاجة لذلك .» لم أصدِّق ما انبرت تقوله ، وكنتُ على مسافة بوصة من مصارحتها بأنَّ عليها مغادرة بيتي .

«في المرّة القادمة نكون متأكّدين ، سنعرف على وجه اليقين عندما

تنجب يجيده طفلًا آخر.»

«قلتُ لا. ألا تسمعينني؟» كنتُ مطّلعًا على التّقليد. ولم تحتج إلى أن تشرحه لي. يُلسَع جسدُ الطّفل الأبيكو بالسّوط، حتّى إذا عاد وولد ثانية، ستخبرنا علامات السّوط على جسد الوليد أنّ الطّفل الميت قد عاد ليعذّب أمّه. رفضتُ أن يتعرّض جثمان ابني إلى ندوب الطّقوس؛ لأنّني لم أعتقد أنّه كان طفلًا يحمل في جنباته روحًا خبيثة. ما آمنتُ قطُّ بحكاية الأبيكو تلك.

«أبيكو. أبيكو.» قلتُها وكرّرتُها إلى أن نزف فمي. «لكنَّكَ قلتَ ماذا تعرف امرأة عجوز؟ أنتَ رجلٌ يا أكين. مجرَّد رجل. فماذا تعرف؟ أخبرني. أسبق أن حبلتَ؟ أسبق أن حملتَ طفلًا إلى صدركَ وراقبتَه يموت؟ جلّ ما تعرفه يقتصر على لغة إنجليزيّة غبية. ماذا تعرف؟ يجيده، ردّي علي يا بنتي، بالله عليك. إنّه إذنكِ الّذي أريد. أيمكنهم القيام بذلك؟ بضع علامات فقط حتّى نعرف على وجه اليقين؟»

«نعم،» أجابت يجيده وهي تغطّي نفسها ببطانية.

«يجيده؟ أيُّ هراء هذا، لا يمكن أن تسمحي لهم بفعل ذلك.»

«رجاءً، أريد أن أنام،» قالت. «اذهبا، كلاكما. فارقاني رجاءً.»

30

لم تظهر أيُّ شقوق على جسم بنتي ، ولا أيّ جروح أو ندوب ، ولا أثرًا واحدًا لجلدات السّوط من حياة سابقة . مع ذلك أطلقوا عليها اسم روتيمي ، اسم يشير ضمنًا إلى أنّها كانت طفلة أبيكو ، جاءت إلى الحياة وفي نيتها أن تموت بأسرع ما يمكنها . روتيمي - أي ابقي معي . هو الاسم الّذي اختارته حماتي ، اسم اعتقدتُ ، حتّى ذلك الحين ، أنّه يُمنح للصبيان فقط . تساءلتُ ما إذا كانت مومي قد اختارت هذا الاسم لأنّه قابل للتحوير . إذا أضيفت له البادئة الصّحيحة لاحقًا ، سيبدو وقعه طبيعيًا ، مُعرّى من الحكاية الّتي تقترحها أسماء الأبيكو . ويمكن بسهولة أن يصبح اسم روتيمي أولاروتيمي - الرّخاء باقٍ معي . لم تكن هناك بادئات أو لاحقات مناسبة لأسماء مثل ماكو - أي لا تموتي ، أو كوكو وي - أي الموت يرفض هذه المخلوقة . دقّقتُ في كلّ شبرٍ من جسمها ، بما في ذلك راحتيها وباطن قدميها . لا شيء . حملقتُ في وجنيتها النّاعمتين غير المخدوشتين وفكّرتُ في سيسان ، جثمانه الّذي تعرّض للضرب ، المُعلّم إلى الأبد . تمنيتُ لو أستطيع فرك النّدوب وإزالتها بأطراف أصابعي ، كما فركتُ مرّة دموعه ومحوتها عن بشرته إلى أن اختفت . إنّما أوّلًا ، عليّ أن أعرف أين دفنوه - إذا كانوا قد دفنوه - إذا لم يكن جثمانه قد تُرك وسط أجمة بعيدًا عن المدينة ، بعيدًا عن أيِّ مكان يعيش فيه البشر .

ما كان هناك أبدًا من سبيل لي لأعرف . لمْ تردّ مومي على

أسئلتي . رفضَت أن تقول أيَّ كلمة عن سيسان رفضًا قاطعًا . بالنِّسبة إليها كان الأمر كما لو أنَّ سيسان مجرّد حلم سيِّئ ، يجب أن ننساه بسرعة ، وبالتَّأكيد لا نأتي على ذكره . ومثلي ، لم يُسمح لأكين الاقتراب من جثمان سيسان أو حضور جنازته ، وبما أنَّ زوجي لم يوافق على الجَلد في المقام الأوَّل ، لم يذهب إلى «أيسو» لمّا عُلِّم جسد سيسان .

يوم سُميّت روتيمي ، في احتفال هادئ لم يتضمن سوى عشرة أشخاص ، خلعتُ سلسلتي الذَّهبية قبل أن يبدأ الاحتفال ولففتها حول عنقها ثلاث مرات لأشكِّل سلسلة متعددة الطَّبقات . وأخفيتُ الصَّليب المتدلي منها تحت لباسها الأبيض . كان هذا الشَّيء الوحيد الَّذي فعلته لبنتي في ذلك اليوم . حماتي اهتمّت بتفاصيل الحمَّام واللباس ، بل حتَّى دعمَت رقبتها بينما أرضعتها . بذلَت مومي جهدًا لتتصرَّف معي برقَّة ، لكنَّني شعرتُ بنفاد صبرها وانزعاجها منِّي ، على الرَّغم من أنَّني بقيت بمنأى عن كلِّ شيء ، أهتمُّ بسيساني ، وأحاولُ إبقاءَه على قيد الحياة ، أحارب الصُّور المشوَّشة الَّتي ما برحت تحولُ بيني وبين رؤيته . مومي كانت صورة أخرى مشوَّشة ، صورة مربِكة وهي تطوِّق وجهي بيديها وتمررهما على وجنتي لتلتقط الدُّموع - باستثناء أنَّني لم أكن أبكي . كنتُ وَسِنةً فقط ، متلهِّفة لأتقوقع على نفسي في السَّرير وأحلم بأولاميد وسيسان .

«يجب أن تتسلحي بالقوَّة من أجل هذه الطِّفلة ،» قالت مرارًا وتكرارًا إلى أن سددتُ أذنيَّ بيدي . غادرَت منزلنا في اليوم نفسه ، مع أنَّه ليس هناك حفيد آخر عليها أن تساعد في الاعتناء به . «إنَّها بنتكِ ، اهتمِّي بها . أنتِ لستِ ميتة ،» قالت قبل أن تمضي لتوافي أكين في السَّيارة . كان هناك المزيد مما لا بدَّ من أنْ تقوله ؛ رأيت الغضب

والازدراء في عينيها . العينان اللتان أدانتاني بسبب استمرائي الحزن مدّة طويلة ، لأنّني أضعف من أن أكون أمًّا لمولودتي الجديدة ، لمكوثي مع الموتى . لم أكترث بما فكّرت فيه ، أو بما راحت عيناها المحتقنتان بالدّمع تزعقان به ؛ ففي النِّهاية لم تكن سوى صورة أخرى مشوّشة تمنع عنّي الرُّؤية . سررتُ عندما فارقتنا ، إلى أن بدأت روتيمي تصرخ واضطررتُ إلى النُّهوض من السّرير لألتقطها من مهدها . ولو بقيَت مومي لتولّت هي هذه المهمة ، ولهدهدَت الطِّفلة لتسكتها بينما أنا غارقة في أحلامي .

لم أعرف ما عليّ القيام به مع المولودة الباكية الّتي كنّا نتوسّل إليها ، كلّ يوم ، كلّ لحظة نناديها باسمها روتيمي - ابقي معي . أغمضتُ عيني عندما رضعَت من صدري ، حذرةً كي لا تلتقي عيناي بعينيها . اتفقتُ مع عاملة تأتي ما بين يومٍ وآخر لتغسل حاجيات الرَّضيعة . فقدتُ القدرة على الحبّ ما دام من الممكن أن أفقد مَن أحبّ مجدّدًا . لذا عمدتُ إلى حملها بإهمال ، بأمل ضئيل ، واثقة من أنّها بطريقةٍ ما هي أيضًا ستنزلق من بين يدي . أبقيتُ لها السِّلسلة الذهبية الّتي وضعتُها لها في احتفال التّسمية ، وكلّما غادرنا البيت ، لففتُها حول رقبتها ، وخبأتُ الصّليب تحت ثيابها ، على جلدها مباشرة ، مثل تعويذة سحر .

*

حدث ذلك في صباح الاثنين وروتيمي نائمة . كانت تنام كثيرًا ، ولا تكاد إلّا نادرًا تتململ قيد أنملة في نومها .

في صباح الاثنين ذاك لم يكن جسمها باردًا كثيرًا أو ساخنًا .

أنفاسُها ضعيفة ولكن منتظمة ، وما بين حين وآخر تضحك في نومها . أبسببها حدث ما حدث على النَّحو الَّذي حدث به؟ ألأنَّني أردت البقاء في الغرفة معها ولم أنزل إلى غرفة دوتون؟ في بعض الأوقات أفكِّر أنَّني لو كنت في غرفة دوتون في الأسفل ، لسمعتُ السَّيارة وهي تتوقّف أمام المنزل . ولا بدَّ من أنَّني سأسارع عندئذٍ إلى ارتداء ملابسي والتَّسلل خارج غرفته . لكن ، لطالما أردتُ أن يحدث ما حدث كما حدث . في مكان ما في أعماقي أردتُ أن يدخل أكين علينا . أردتُ أن أنظر في عينيه لحظة يفعل ؛ أردتُ رؤيته ينفجر في نوع من الانفعال العاطفي ، وفي ذلك الاثنين نلتُ مبتغاي بالضَّبط .

عندما دخل أكين عليّ أنا ودوتون . شفيتُ غليلي منه في تلك اللحظة وأصبتُ بالخيبة . أصبتُ بالخيبة لأنَّني رغمًا عن أنفي شعرتُ أنَّ الألم في عينيه ما زال يهمّني . أغمضتُ عيني لأستجمع الشَّجاعة ، وباعدتُ بين ركبتيَ لأعدّل وضعية دوتون فوقي ، والشَّيء الوحيد في تركيزي هو زوجي وما يراه - تقوُّسُ ظهر دوتون ، اندفاع وركيه المحموم ، القشعريرة والانهيار .

وقف أكين إزاء الباب ، صامتًا ومتسمّرًا إلى أن تنحّى دوتون من فوقي ، وعَوى لحظة أبصر شقيقه أمامنا . عندئذ استدار أكين ، أقفل الباب ودسَّ المفتاح في جيبه .

خلع سترته ، طواها ووضعها على السَّرير .

ثمّ تدفّقَت نيران الجحيم على الضِّفاف ، وانسكبَت حممُها في غرفة نومنا .

الفصل الثّالث

31

إليسا كانون الأوّل 2008

أَصلُ أنا وسائقي إلى «إليسا» بعد منتصف الليل ، نطرقُ الدروب ونجول من فندقٍ إلى فندق إلى آخر بحثًا عن مأوى ، يتهيّأ لي أنَّ أهل البلاد كلّهم في «إليسا» هذه الجمعة . لا نجد أيَّ غرفةٍ شاغرة إلّا بعد أن نبلغ «أيسو» ، آخر قطاع في المدينة أحبِّذُ الإقامة فيه ؛ لأنَّه قريب جدًّا من بيت أبيكَ . لكن عليّ أن أنام في مكان ما ، وهكذا ، أستأجرُ الغرفة الوحيدة الشّاغرة في مضافة البوّابة الجميلة . أستعطفُ المُضيف ليسمحَ لموسى بالنّوم على الأريكة في ما يبدو أنّه كان سابقًا غرفة جلوس ، والآن خُصِّص كردهةٍ استقبال .

أنا مرهقة ، بيد أنَّ النّوم يجفوني . أخرجُ من الغرفة إلى الشُّرفة المُلحقة بها ، وأتمكّن من رؤية بيت أبيكَ ؛ عبر الشّارع تمامًا ، بعد البقعة الّتي ينخفض فيها الطّريق المؤدي إلى الوادي . تمييزه سهل ، إذ بغضِّ النّظر عن هذه المضافة ، هو البيت الوحيد الّذي تشعُّ فيه الأضواء ، بفضل المُولِّد . هناك عدّة سيارات خارجه مركونة بصفّين مزدوَجين في الشّارع الرّئيس ، ثمّة رهط يأكلون في الشُّرفة ؛ وهناك أناسٌ في كلِّ مكان . وعلى الرّغم من أنّني لا أرى الفناء من حيثُ أقف ، ألمح الدُّخان يتصاعد من ناحيته . كان ينبغيَ أن أكون هناك الآن ، أسهر على غلي الحساء ، وأخبر الطُّهاة المُستأجَرين أنَّ عليهم تقليب اللحم

الَّذي يئزُّ قبل أن يحترق ، وأتأكَّد من مباشرتهم طبخ أرز الجولوف في الخامسة صباحًا ، والبطاطا واليخنة في السَّادسة ، حتَّى يتسنى للجميع أن يأكلوا قبل ذهابهم إلى الكنيسة لحضورِ قدَّاس الجنازة . هذا ما تفعله الزَّوجات ، وقد فعلتُه عدَّة مرَّات ، أتتذكَّر؟ بل أتُراكَ لاحظتَ كم تفانيتُ في ذلك؟

لماذا دعوتَني إلى هذه الجنازة؟ بل حتَّى كيف عرفتَ أين أنا؟ اعتقدتُ أنَّك مسحتني من طريقك كما يمسح معلِّمٌ الملاحظات القديمة عن اللوح بمسَّاحةِ طباشير . ثمَّ إذا بي أتسلَّم تلك البطاقة في البريد ، والكلمات المطبوعة دعتني لأكونَ ضيفة أكينيل أجايا . أراقب بيت العائلة ، متمنية لو أميِّز أحدًا ، شخصًا واحدًا على الأقل من النَّاس الَّذين درجتُ على الاعتقاد بأنَّهم عائلتي في هذا المكان الَّذي دعوتُه مرَّةً ملاذي . لكن المشهد أبعد من مرمى بصري . أرى النَّاس إنَّما لا أرى وجوههم ، قد يكون أيُّ واحد من الرِّجال أنتَ . ما زالت السُّرادقات في الخارج ؛ أفترض أنَّها أقيمت لمراسم السَّهر على الميت التي جرت في المساء . لم أنو بأي حال حضورها لأستمع إليك أنتَ وأنسبائك تسردون أكاذيبَ مفبركة بعناية عن أبيك الميت ما بين التَّراتيل .

في وسعي أن أتخيَّل الكلمات المدروسة الَّتي لا بدَّ من أنَّكَ قد نطقتها الليلة ، البديهيات المتوقَّعة من الابن البكر . لا ريب في أنَّك برعتَ في عرضها ، محفِّزًا رغبةَ بعض الحضور في البكاء . ومحرِّضًا أولئكَ الَّذين لم يعرفوا أباك على استنزاف قلوبهم ؛ لأنَّ العالم فقد مثل تلك الجوهرة التِّسعينية في وقت مبكر . ولا ريب في أن أمُّكَ ، كالمعتاد ، تباهَت بكَ . وبما أنَّك أوَّل الخطباء ، لم يستطع أحد من إخوتكَ مجاراة مهاراتكَ الخطابيَّة ، لا أحد منهم ، حتَّى لو أتيحت لهم

سنة ليستعدُّوا . أنا في الشُّرفة إلى أن تنطفئ الأضواء في بيت أبيكَ ، ثمّ أعود إلى غرفتي وأستغرق في النّوم حالًا .

أستيقظ قبل السّادسة صباحًا . الأرضيَّة باردة والقشعريرة تتسلّل إلى ساقي وأنا أمضي إلى الشُّرفة . يبدو كما لو أنَّ أحدًا لم يخلد إلى النوم في بيت أهلكَ . لعلّكَ أغلقتَ البيت في «إيمو» وقضيتَ ليلتكَ هنا أمس . أستقرُّ على كرسيٍّ بلاستيكيٍّ وأراقب ، لستُ في عجلةٍ من أمري لأتجهّز لأنّني لن أحضرَ صلاة الكنيسة .

يصل منشدُ المدائح حوالي السّابعة مع مكبِّر الصّوت الصّغير . يبقى في الشّارع وينشد ، مادحًا أوّلًا أهل «إيجيزا» الّذين ينتمي إليهم أبوكَ . حفظتُ أبيات هذه الأرجوزة قبل أن نتزوّج . علّمتني أمُّك كلّ بيتٍ تحفظه منها ، وأنا بدوري حفظتها عن ظهر قلب بلهفة . طلبَتْ منّي أن أوقظكَ في الصّباح وأنا جاثية على ركبتي ، أنشدُ لك الأبيات الّتي تمجّد نسبكَ . اخترتُ بدلًا من ذلك أن أعانقَ جسمكَ ، وأهمسُ الكلمات في أذنيكَ ، لكنّكَ لم تحبَّ الاستماع إلى الشِّعر في الصّباح ، أو في أيِّ وقتٍ آخر ، سيسان هو الّذي درج على الاستمتاع بأدائي . المنشد يمدح الآن عائلة أجدادك . تلك الكلمات ما زالت تجعل رأسي ينتفخ ، كلماتٌ عن أشخاصٍ ماتوا قبل أن نولد .

تترقرق الدّموع في عيني عندما يصل الهتاف أخيرًا إلى المقاطع الّتي تخصُّ أبيك . لا أدري ، أأنا أبكي نفسي أم أبكيكَ أم أبكي أباكَ! أم السّنين الّتي مرّت كلّها! أو لأنَّ منشد المدائح يردِّد الأبيات بأسلوبٍ جميل . هناك امرأة تقف قرب المنشد ، ذراعاها مرفوعتان في الهواء . ألاحظُ أنّها تبكي ، جسمها يهتزُّ ويترنّح إلى أن ينزلق دثارها ويحطّ على الأرض . لا تلتقطه . يداي باردتان على وجنتي ، وأنا أجفّف دموعي .

يتصاعد عويلٌ عالٍ عندما يُخرَج تابوت أبيكَ من البيت ، يبدو أبيض اللون من حيثُ أجلس . ترتفع وتيرة العويل بينما يقوم حاملو التّابوت برفعه على أكتافهم ، يقف النّاس كلٌّ اثنين أو ثلاثة في صفٍّ واحد ، وبعضهم يتوكّأ على بعض ، كما لو أنّهم قد ينهاروا إذا لم يتشبّثوا بأحد . يخرق صوت امرأة الضّجيج ويصل إليّ . «أبي ، يا أبي ، أحقًا انتهى الأمر؟ أأنتَ راحل عنّا حقًا؟ ألا تستيقظ؟ ألا تلوّح لنا مودّعًا؟ أبي؟ أبي؟!»

يبدأ حاملو النّعش بالتّقدّم نحو العربة ؛ يقود الطّريق عازف بوقٍ وحيد ، يعزف «عسانا نجتمع عند النّهر» . وفي الوقت نفسه يتابع منشد المدائح أنشودته .

لا تأكل أمّ أربعة وأربعين ولا الدّود ،
بل انضمّ إلى أيِّ وجبة متوافرة في السّماء .

يتفرّق الحشد الصّغير المتجمّع أمام بيتكَ . يستقلُّ عديد من الأشخاص السّيارات المركونة . تباشر السّيارات التقدّم ببطء ، مُشكّلةً قافلةً وراء العربة . من شاحنةٍ صغيرةٍ يتدلّى رجلٌ خارج نافذتها وعلى كتفه آلة تصوير فيديو ، وهي السّبّاقة إلى استجماع السّرعة . تتبعها العربة ، صفارة الإنذار المنبعثة منها تعلن مغادرة أبيكَ الأخيرة للحيِّ الّذي قضى فيه معظم سنوات رشده . لن يعود إلى هنا ثانية ؛ بعد الصّلاة ، سيُدفَن في مقبرة الكنيسة في «إيجوفي» . تتبع عدة سيارات العربة ، سيارات جيب لمّاعة ، وسيارات رياضيّة تعود لأبناءِ المُتوفّى وأقاربه . أنتظرُ إلى أن تختفي آخر سيارةٍ قبل أن أعودَ إلى غرفتي .

أرتدي ثيابي بينما أنتَ تقريبًا تقف أمامَ قبر أبيك الّذي حُفر

مؤخرًا ، تحيط بك العائلة ورجال الدِّين . ستكون الأوّل من بين جميع الأولاد مَن يلقي حفنة تراب في القبر ، وسيبدأ العويل مجدَّدًا ، وبينما تراقبون كلُّكم يشرع حفَّارو القبور في طمر القبر بالتُّراب ، والدَّمع سيترقرق حتَّى في عيون الرِّجال . الأزواج الَّذين لم يتبادلوا كلمة خلال أسابيعَ ستتشابكُ أيديهم . كان فجعي أعظم من أن أبكي في جنازة أبي ، أمَّا أنتَ فترقرقت عيناك بالدُّموع مع أنَّكَ لم تسمح لدمعة واحدة بالنُّزول . وضعتُ يدي في يدك ، وأنتَ تشهق وتطرف عينيكَ بسرعة .

أكين ، من سيمسكُ يدك اليوم إذا بكيتَ بصمت؟

32

1992 وما بعد

أوّل مرّة مارس خلالها دوتون الجنس مع زوجتي ، وقفتُ أمام باب غرفة النّوم وبكيتُ . حدث هذا يوم سبت ، وفنمي تزور أقاربها أو ما يشبه ذلك . كان يُفترض بي أن أذهب إلى النّادي الرّياضيّ . ظننتُ آنذاك أنّني أملك القدرة على لعب التّنس ، أو شرب الجعة بينما يحاول أخي تخصيب يجيده ، خطّطتُ للأمر جيّدًا ، بحيث حينما أعود إلى البيت يكون دوتون قد خرج من غرفةِ نومنا ، ويجيده ارتدت ثيابها ، وأتصرّف عندئذٍ كأنّني لا أعرف شيئًا عمّا جرى .

لكن في منتصف طريقي إلى النّادي ، أدرتُ السّيارة ، وعدتُ أدراجي إلى البيت ، يحدوني الأمل بأن أجدهما في غرفة الجلوس ، يتفرّجان على شيءٍ ما في التّلفزيون ، يجلسان متقابلين في الغرفة . جال في نفسي أنّ يجيده قد لا تكون بالهشاشة الّتي أتخيّلها ، وأنّ دوتون ليس مقنعًا كما اعتقدتُ ، وسأحظى بفرصةٍ لأعلِم أخي أنّني عدلتُ عمّا قلته ، لم أعد واثقًا من الخطّة ، ولا أستطيع تحمُّل فكرة وجود يديه على زوجتي .

لم أجد أحدًا في غرفة الجلوس .

كان يمكن أن أعود أدراجي عندما وقفتُ أمام باب غرفة نومنا ، بعدما بدا واضحًا أنّه فات الأوان لأضعَ حدًّا لما جعلتُه موضع التّنفيذ .

كان يجب أن أنزلَ إلى الطّابق الأرضيِّ ، وأغادرُ البيت من جديد . لكنّني اكتشفتُ أنّني عاجزٌ عن الحركة . شعرتُ أن جسدي أصبح فجأة بلا عظام ، وأنّه قاب قوسين من التّداعي . لذا ، تعلّقتُ بمقبض الباب الفولاذي بيدي الاثنتين ، وضغطتُ جبيني بالباب . بدأتْ الدُّموع تنهمر على وجنتي وأنا أتخيَّل ما يحدث في الطّرف الآخر من الباب .

حتَّى ذلك اليوم ، الدُّموع الّتي ذرفتها وأنا راشد كانت كلُّها بسبب يجيده . أوّل مرّة عندما سألتني هل أظنُّ أنّها مسؤولة عن موت أمِّها . أنا متأكدة من أنَّ أُمِّي كانت ستبقى حيّة لو أنّها لم تحبل بي ، أردفَت وهي تلفُّ ضفيرتها حول سبابتها . حِرتُ في الردِّ بأيِّ شيءٍ ، لكن جسدي استجاب لليأس المطلق في عينيها بالدُّموع الّتي لسعت مقلتيَ . طرفَت يجيده وانمحى اليأس من العينين ، بهذه البساطة . ثمَّ ابتسمَت وطلبتْ منِّي أن أنسى ما قالته . إنَّه ليس ذنبي طبعًا ؛ لست أنا من كوّنتُ رأسي ، غمغمَت وهي تفلت الضّفيرة من يدها . ثمَّ انتقلَت إلى موضوعٍ آخرَ بينما رحتُ أفرك عينيَّ بظاهر يدي ، وبما أنّها لم تلقِ بالًا لدموعي شعرتُ كما لو أنّني لستُ سوى شاهدٍ على نقاشٍ تجريه مع نفسها . أدركتُ أنّها لم تنظر في عيني ؛ لأنّها ظنّتني سأعطيها أجوبة . هي لم تنظر في اتجاهي إلّا لأنّه صدف أن كنتُ هناك .

بعد أسبوعين مات أبوها . عند قبره صُدمت من طريقة تنحي زوجات أبيها بعيدًا عنها ؛ ليتأكّدن من وقوف يجيده وحدها بلا أيِّ فرد من العائلة إلى جانبها . تحركن كلّهن من أحد جوانب القبر إلى الطّرف الآخر بحيث بقيت يجيده واقفة وحدها كالمنبوذة . عندما وكزتُها وطلبتُ منها أن نتبع زوجات أبيها وإخوتها ، ابتسمَت وأخبرتني أنّهم غيّروا مكانهم بسببها ، ولو انتقلنا إلى جانبهم ،

سيغيِّرون مكان وقوفهم ثانيةً .

ذكَرَت يجيده لي قبل ذلك أنَّ زوجات أبيها اتخذن من نبذهنَّ لها وسيلة تسلية . لكن قبل ذلك اليوم في المدفن ، لم أمعن التفكير كثيرًا في ما لا بدَّ من أنَّها قد قاسته لتكبرَ في عائلةٍ لا حليفَ لها فيها سوى أبيها . أبوها ، الرَّجل الَّذي قال لها أكثر من مرَّة أنَّ حبَّ حياته لربَّما بقيَت حيَّةً إلى الأبد لو لم يكن حجم رأس يجيده ضخمًا ساعة الولادة ، لو كان أصغر قليلاً لتدفعها أمُّها إلى هذا العالم من غير أن تفقد الكثير من الدَّم . الدُّموع الَّتي استطعتُ لجمها في الجنازة لم تترقرق من أجل والد يجيده . قابلتُ الشَّيخ مرَّة واحدة قبل وفاته ، غبَّشتْ دموعي نظري حزنًا على البنت الصَّغيرة الوحيدة الَّتي أصبحَت امرأة ، والَّتي شددتُ على يدها ، وهي تنحني لتلقي حفنة تراب على تابوت أبيها .

لم يخامرني الشَّكُّ في أنَّ دوتون سيوافق على ممارسة الجنس مع زوجتي ، قبل فترة طويلة من طرح الموضوع عليه . استبقتُ الزَّمن بتحصين نفسي ، وافترضتُ أنَّه عندما يحدث ذلك في النِّهاية ، ستبقى العاطفة الوحيدة الَّتي تتنازعني هي شعوري بالشَّفقة على يجيده . حاولَت أن تمارس دور زوجة الأخ الطَّيبة في حضور أخي ، لكنَّني عرفت أنَّها تحتقره ، وتعتقدُ أنَّ زوجته سيِّئة الحظِّ لارتباطها به . مرَّة ، زلَّ لسانها بقولها إنَّها لا تكاد تصدق أنَّنا شقيقان . لم تشرح لي ما عنته ، بيد أنَّني فهمتُ أنَّ ما تحاول قوله هو أنَّني أنا الدُّكتور جيكل ، وهو السَّيِّد هايد . اعتقدتُ أنَّني سأشفقُ عليها بسبب الخطيئة الَّتي ستقدِم عليها ، أشعر بالأسف لأنَّها ستجد الفرَجَ في رجل تحتقره . لم أتخيّل أنَّ لمسة دوتون ستكون في أيِّ يوم شيئًا يمتعها . لكن في ذلك السَّبت ، بدلًا من شعوري بأيِّ عاطفة تُجاه زوجتي ،

بكيتُ نتيجة شعوري بالمذلّة، باليأس، بالغضب. لم تكن لدموعي أيُّ علاقة بيجيده. لم أعزُ مشاعرها أدنى ذرّة اهتمام في ذلك اليوم. لفَّ الغضب نفسه حول حنجرتي مثل الحيَّة العاصرة، جعل عينيَّ تدمعان، سبَّب لي ألمًا حادًا في صدري كلَّما أخذت نفسًا.

لحظة خرج دوتون من الغرفة كانت الدُّموع قد اختفَت. خرج بلا قميص، وحبَّات العرق حول عظم ترقوته مثل قلادة ذائبة. وأنا لا شيءَ يعتلجُ في نفسي سوى الغضب الَّذي يخنقني.

«هي في الحمَّام،» قال وهو يغلق الباب خلفه. «قلتَ يا شقيقي الكبير إنَّك ذاهب إلى النَّادي. أأنت بخير؟»

استدرتُ عندئذ، تخبَّطتُ على الدرج، قدتُ السَّيارة قبل أن تدركَ يجيده أنَّني عدتُ إلى البيت. قضيت بقيَّة اليوم أقود السَّيارة في المدينة على غير هدى، وما رجعتُ إلى البيت إلَّا بعد منتصف الليل تقريبًا.

عندما دخلتُ غرفة نومنا وجدتُ يجيده مستيقظة. حينما دنَت منِّي ولفَّت ذراعيها حولي، أتذكَّر أنَّني فكَّرت أنَّها المرَّة الأولى الَّتي تراودني فيها رغبة إيذائها، رغبة إذاقتها الألم. ارتعشَت يداي لمَّا لمستُ شعرها. لطالما اعتقدتُ بأنَّني لا أستحق يجيده، وذاك اليوم، وأنا أفتح نوافذ غرفة النَّوم ليدخلَ بعض الهواء النَّقي، أيقنتُ أنَّني لن أصبح مطلقًا ذلك النَّوع من الرِّجال الَّذي يستحقُّ الحصول عليها.

في المساء التَّالي عاد دوتون إلى يجيده في الطَّابق العلويِّ كما اقتضَت الخطَّة. قدتُ السَّيارة إلى نادي «إيجيزا» الرِّياضيِّ، حاولتُ تناول حساء سمك السّلور الحارّ. عندما عدتُ إلى البيت، وجدتُ يجيده في السَّرير، متقوقعة على نفسها، تبكي بسبب شيءٍ لم أستطع تبيُّنه. نزعتُ قميصي والقميص الدَّاخلي، حضنتها بينما نشجت ذاكرةً كيف

أنَّها كانت متأكِّدة من حبلها في تلك المرَّة الأولى . شعرتُ بالجنين يركل ، قالت . ومع أنَّ كلَّ ما شغل ذهني وأنا أقبِّل وجهها ، هو وجود دوتون معها في ذلك السَّرير نفسه في فترة سابقة من ذلك اليوم ، نجحتُ في طمأنتها ، أخبرتُها أنَّها ليست إلَّا مسألة وقت قبل أن تحبل حقًّا .

ذاك ما اقتضاه الأمر لتأتينا أولاميد - عطلة نهاية أسبوع واحدة . كانت الخطَّة الأساسيَّة تنصُّ على إنجاب أربعة أطفال ؛ ولدين وبنتين . وكان يُفترض بدوتون أن يقضي عندنا عطلة نهاية أسبوع مرَّة ما بين سنة وأخرى ، يخصِّب زوجتي ، ويعود إلى «لاغوس» . لطالما آمنتُ أنَّني المحرِّض ، الشَّخص الَّذي يقرِّر متى يحين الوقت ليذهبا إلى غرفة ويصنعا الأطفال . بعد الحبل بروتيمي ، قرَّرتُ إلغاء الخطَّة . أيقنتُ أنَّه من القسوة جلب طفلٍ آخر إلى هذا العالم مع احتمال أنَّه هو أو هي سيمرُّ بذلك النَّوع من العذاب الَّذي كابده سيسان . أخبرتُ دوتون أنَّ ترتيبنا قد انتهى . ولم يخطرْ لي قطُّ أنَّني سأعود إلى البيت في أحد الأيام وأجده يعاشر زوجتي من دون أذني .

عندما دخلتُ عليهما اضطرب الغضب الَّذي بقي ملتفًا حول حنجرتي ، ومحكِمًا الخناق عليها منذ ذلك السَّبت الأوَّل . التقَت عيناي بعيني يجيده وتلبّسني الشعور بالعار . العينان اللتان نظرتا إليّ مرَّة كما لو أنَّي كلُّ ما لديهما في العالم ، حدّقتا إليَ باحتقار ، شزرتني كأنني حشرةٌ تودُّ سحقها . لم تأتِ بحركةٍ لتلجمَ دوتون ، اكتفَت بإشاحة وجهها عنِّي . أدركتُ أنَّني بينما اعتقدتُ أنَّني وشقيقي يمكن أن نتبادل الأدوار ما بين حين وآخر ، ظهر أنَّه منذ ذلك السَّبت الأوَّل استولى على آفاق لا أحلم ولا حتَّى بلمحها .

انتظرتُ إلى أن تدحرج دوتون عنها ورآني . . . قفز من السَّرير . خلعتُ سترتي ، أخذتُ وقتي في فعل ذلك ، طويتها ، ثمَّ وضعتها على

السَّرير. لم يكن هناك سلاح جاهز في المتناول ينتظرني لأقبض عليه، لا مدقّة هاون، ولا سكينة ماضية. تقدَّمتُ نحو دوتون، مُدجَّجًا بالسلاح الوحيد الَّذي أحتاجه؛ بغضبي الهائج، وقبضتيَّ المكورتين.

«شقيقي أكين... مهلًا، مهلًا، شقيقي أكين... لا تسمح للشيطان أن يستخدمك، شقيقي الكبير... رجاءً، لا تكن... انتظر... أداة الشَّيطان...» زعق دوتون وهو يلفُّ ملاءة سرير حول جذعه.

ضحكتُ، خمش الصَّوتُ طريقه وهو يخرج منِّي، وخدش حنجرتي. «أداة الشَّيطان؟ أنا؟ أيُّها اللقيط!» لكمتُ فمه، أنفه، عينيه. أحسستُ بجلده ينسلخ، سمعتُ عظامه تقعقع ورأيت الدَّم ينفرُ من أنفه. القصف في رأسي ازداد حدَّة كلَّما صوَّبت قبضتي نحو وجه دوتون. واصل الابتعاد عنِّي إلى أن تعثَّر بالملاءة الَّتي يستترُ بها جسمه. وقع، خبط رأسه بطاولة السَّرير الَّتي من جهة يجيده وهو يتهاوى، وأوقع مصباحها. حطَّ على ظهره، وملاءة السَّرير انزاحَت عن جسده.

جثمتُ فوق بطنه العاري ولكمته؛ لكمتُ رقبته، صدره، اليدين اللتين حاولتا صدِّي. تلطَّخَت يداي بالدم؛ دمه، دمي. سال الدَّم على بساط الأرضيَّة، وانتشر مشكّلًا بقعة تشبه الخريطة، لن تزول أبدًا.

«وثقتُ بكَ!» نهضتُ من فوقه، ركلتُ صدره إلى أن بدأ جرح ينزف تحت حلمته. كحَّ دمًا على البساط. دم وسِنٌّ؛ لمعت السِّنُ في البركة الحمراء الصَّغيرة. حاول أن يقول شيئًا، ثمَّ كحَّ دمًا، وبصق المزيد من الدَّم.

أغضبني مشهدُ قضيبه المتهدِّل الَّذي ما زال رطبًا بين ساقيه.

تخيَّلتُ أين كان ذلك القضيب ، وتأجَّج في رأسي غضب عمرٍ بحاله . صوره هو ويجيده الَّتي قضيتُ ساعات يقظتي ، وأنا أحاربها لسنوات ، صورٌ جذبتني إلى القاع في أحلامي كلَّما وضعت رأسي على الوسادة ، انفلتَ ذلك الغضب من قفص الإنكار الَّذي بنيته له .

جثمتُ بين ساقيه المنفرجتين ، قبضتُ على قضيبه المرتخي ولويته . ولو سمعتُ صراخه لأصبتُ بالصَّمم ، لكن الصَّوت المتفجر في رأسي صمَّ كلَّ شيءٍ آخرَ .

شعرتُ بيدين ناعمتين على كتفي ، تحاولان سحبي . بقيتُ ألوي وألوي .

«بحقِّ الرَّب يا أكين . لا تقتله ، رجاءً .» كانت يجيده على ركبتيها إلى جانبي وما زالت عارية .

رفعتُ يدي عن دوتون . «اخرسي يا عاهرة .»

«أنا؟ أكين ، أنا عاهرة؟ سيأكل كلب فمكَ لقولكَ هذا .» كان صوتها غاضبًا وليس متوسِّلًا .

تناولتُ المصباح الَّذي سقط أرضًا ، نزعتُ سلكه من المقبس .

«ماذا تفعل؟» خرج صوت يجيده مشحونًا بالرُّعب . «أكين ، أكين؟»

رفعتُ المصباح بكلتا يدي .

لفَّت يجيده يديها حول صدري ، حاولت جرِّي بعيدًا عن دوتون . «أكين ، أكينيل ، أستحلفك باسم الرَّب ، لا تجعل الشَّيطان يستخدمك .»

حاول دوتون النُّهوض ، حاجبًا عينيه بيديه . ضربته على ذقنه بالمصباح ، ضربتُه وأعدتُه إلى الأرض . قالت يجيده شيئًا ، لكن كلُّ ما استطعت سماعه هو القصف في رأسي ، وصوت زجاج يتكسر ،

حطّمتُ غطاء المصباح على رأسه ، كسرت ألواحه الزُّجاجية ولمباته على جلدة رأسه إلى أن همد بلا حراك .

نهضتُ ، ورحتُ أهدهدُ ما بقي من المصباح على صدري . «قتلتَ شقيقكَ ،» همست يجيده من ورائي . «قتلتَ شقيقك ابن أُمِّك .»

وأنا تمنَّيتُ أن تكون محقّة .

33

خلال الأسبوعين التّاليين قضت يجيده فترات الصّباح في المستشفى مع شقيقي، ما عادت توجِّه لي الكلام، اكتفت بترك الفطور لي على طاولة الطّعام كما لو أنّها تترك الطّعام لكلب، وبعدئذٍ، تربط روتيمي إلى ظهرها وتتوجه إلى المستشفى.

تمنَّيتُ لو أنَّ دوتون ميت، لو أنّه لم يولد.

لكن هذا كذب. ما تمنيتُه هو لو أنّني أنا ميت، أنّني لم أولد قط. أنا أحضرتُ دوتون إلى بيتنا، دعوته، داهنته، هدَّدته، فعلتُ كلَّ ما في وسعي فعله لإقناعه. ما تخيلتُ مطلقًا أنّني ولا في سبع حيوات قد اضطر إلى رؤية أخي يضاجع زوجتي، يشخر كخنزيرٍ وهو يصل إلى ذروة النّشوة. فأنا، بينما حلّلتُ عوامل الظّروف غير المتوقّعة في خطّتي، لم ألقِ بالًا إلى الأشياء الّتي قد تفسدها: الخليّة المنجلية، خسارة دوتون لعمله، وفوضى الحبّ والحياة كلّها الّتي لا تظهر إلّا والمرء يمضي قدمًا في حياته.

في اليوم التّالي بعد معركتي مع دوتون، ظهرَت مومي في مكتبي قبل استراحة الغداء. لم تردّ على تحيتي، لم تجلس، تقدَّمت مباشرة إلى جانبي عند طاولة المكتب واتكأت على كرسيٍّ.

«حملتكما معًا في جوفي،» صاحت وهي تلطم بطنها. «وكلاكما رضع من هذين الثّديين اللذين في صدري. أمَا كان حليبي حلوًا؟ أهذا جذر الشّر في قلبك؟ أكان حليبي حامضًا؟ أكين، أجبني. ألا تسمعني؟ أأصبحتَ الآن أصمّ؟»

كانت واثقة من أنَّ هناك تفسيرًا ، أنَّ هناك شيئًا ما أستطيع قوله لأساعدها على استيعاب ما حدث . خمَّنتُ أنَّها يمكن أن تتقبّل أيِّ شيء أقوله لها في تلك اللحظة ، أيَّ شيء مهما كان ، ثمَّ تشكِّله بالطَّريقة الَّتي تناسبها . تشكّله إلى سبب يوضح القضيَّة . لم تحتج إلّا إلى جواب ، أي جواب .

«تريد قتلي ،» قالت ، شدَّت قميصي من ياقته بكلتا يديها . «اجعلني أفهم لماذا يحاول ولداي أن يقتل أحدهما الآخر ، أخبرني الآن وأنا أقف هنا!»

رأيتُ قلبها يتحطَّم ، لكن ماذا توجَّب عليَ أن أقول؟ الحقيقة؟ عرفتُ أنَّها يمكن أن تقضي عليها ؛ هذه الحقيقة .

تركَتني بعد أن عاهدَتْ نفسها على ألَّا تتكلمَ معي أبدًا إن لم أبيِّن لها لماذا حاولتُ قتل ابنها الغالي على قلبها . كنتُ واثقًا من أنَّها لن تخلَّ بما عاهدت نفسها به ، فأمِّي تملك القدرة على أن تكره بعنفٍ كما تحبُّ بعنفٍ .

لازمتُ مكتبي إلى أن أصبحتُ تقريبًا أشدّ تعبًا من قيادة السَّيارة إلى البيت . تعثَّرتُ في البيت بما أنَّ المصابيح كانت مطفأة ويجيده نائمة ، لكنَّني وجدت روتيمي صاحية ، وعيناها تعلَّقتا بي لحظة دخلتُ الغرفة بصوتها الخافت . وقفتُ إزاء مهدها ، استمعتُ إلى ثرثرتها الوديعة ، تركتها تطوِّق إبهامي بأصابعها الصَّغيرة . في عينيها كنتُ مخلوقًا جديدًا ، مخلوقًا مغفورًا له ، غير ملوَّث . انتظرتُ إلى أن استسلمَت إلى النَّوم قبل أن أضطجع في السَّرير .

على الرَّغم من إنهاكي استعصى عليَ النَّوم . حدَّقتُ في زوجتي الغافية ، وأنا أتساءل أيمكن أن يبلغ الغضب الَّذي يقصف في دماغي مرحلة من الحدَّة تدفعني إلى تحطيم مصباحٍ على رأسها . كرهتُ

نفسي ؛ لأنّني أدمتُ تأمّل وجهها الدّقيق إلى أن غلبني النّوم ، راسمًا كلّ سمة من سماته في ذهني خشية ألّا أجدها هناك عندما أستيقظ .

خلال الأسابيع الّتي تلت ، ما برحتُ أتوقّع أن تهجرني ، بدا لي أنّه الشّيء الوحيد الّذي بقي لتفعله . في بعض الليالي تتبعتُ شفتيها بأحد أصابعي ، وهمستُ أنا آسف في المسافة الصّامتة الّتي تفصلنا .

كرهت نفسي لهذا أيضًا .

*

يوم أُخْرِجَ دوتون من المستشفى ، خاطبتني يجيده لأوّل مرّة بعد أكثر من شهر ، وناولتني فاتورة المستشفى ، فكتبتُ حوالة مصرفية . في ذلك المساء انتقلَت من غرفة نومنا .

«أنا باقية من أجل طفلتي . وإلّا ، وإلّا ، فــ . . .» تركَت تهديدها غير منطوق ، مثل سحابة مظلمة بيننا .

«أيتها اللعينة . . . يا لعينة . . . ضاجعتِ شقيقي من وراء ظهري . أنت زوجة غير مخلصة .» ارتعدتُ عندما قلت هذا ، أبقيتُ قبضتيَ في جيبي ، قاومتُ الرّغبة الملّحة في زرعهما بوجهها المتعجرف ، إذ لو بدأتُ لن أتوقّف أبدًا .

«أكنتَ تفضّل حصول ذلك أمامكَ؟ تحت إشرافكَ الدّقيق؟ أنتَ محتال . أنت خائن وأكبر كذّاب في السّماء والجحيم والأرض .» بصقَت على قدمي ، دخلَت غرفتها الجديدة ، وصفقَت الباب .

أفلتَ مني زمام الغضب ، لكمتُ الباب المغلق إلى أن تكدّم جلدي ونزف . وحتى آنذاك ، لم أشفِ غليلي ، ولم أستطع أن أتوقّف .

لم تقفل يجيده الباب ، لم أسمع طقطقة ، ولا صوت مفتاح في

الجانب الآخر. خطر لي أنّني أستطيع أن أدير المقبض وأدخل، أواجهها. أسألها ماذا تعرف، ماذا أخبرها دوتون عنّي بينما هما يثبان فوق بعضهما. ما كنتُ مضطرًا إلى الوقوف وحدي في الرَّدهة، أتجادل بقبضتي مع بابٍ خشبيٍّ لا يمكن أن يجيب، وأنا أرفع كتفي لأجفّفَ العرق المتصبّب على وجهي بكمٍّ قميصي. لأجفّفَ العرق لا الدُّموع.

34

عندما استدعاني والدُ أكين أنا وهو إلى اجتماعٍ عائليٍّ ، عرفتُ قبل أن نصل إلى «أيسو» أنَّ مومي بلا شكّ هي الَّتي حرّضته على استدعائنا للاجتماع الطّارئ المزعوم . حملتُ روتيمي أمامي كدرعٍ ونحن ندخل غرفة الجلوس ونجلس جنبًا إلى جنب على أريكة بُنيّة . كانت الأريكة ضيّقة ، ولأوّل مرة منذ أن ضبط أكين دوتون فوقي ، جلستُ وإياه متجاورين ، كنّا متقاربين جدًا إلى درجة أنّني سمعتُ أنفاسه . كان دوتون هناك قبلنا ، يجلس إلى جانب أبيه . لم أره منذ أن أُخرِجَ من المستشفى .

بادرَت مومي إلى الكلام : «ولداي هنا ليوضحا لماذا تقاتلا ، لماذا لم يستطيعا أن يجلبا أيَّ خلاف بينهما إلى العائلة لتفضّه . هما هنا ليفسّرا لماذا يريدان أن يُلحِقا العار بعائلتنا ويجعلاننا مادةً للثّرثرة في السّوق .»

«لا ، تمهّلي هنا . تقصدين يجلبان العار لكِ يا أموبي ، لقد سبّبا لكِ الخزي ، أمّا أنا فالدُّنيا بأسرها تعرف أنَّ سمعتي جيِّدة في منطقة إيجيزا .» قاطعها والد أكين .

«الأمر كذلك الآن يا بابا؟ الآن هما ولداي؟ يا لكَ من رجل عديم الفائدة ، هما ولداي طبعًا ، بما أنّك ما أنفقتَ عليهما درهمًا واحدًا . أنا دفعتُ تكاليف المدرسة ، اشتريتُ الأزياء الرّسمية ، وعندما تخرّجا في الجامعة لم ترنا وجهكَ إلّا من أجل الصُّور ، والآن أصبحا ولديّ أنا مجدّدًا؟»

«أليسا ولديكِ؟ هل اختطفتهما من المستشفى؟» هزَّ والد أكين إصبعًا في وجه مومي. «ها! ذاك إذًا سبب وجودكِ هنا، لتعترفي لنا أنّك سرقتهما من عنبر الولادة، أليس كذلك؟» ضحك من طرفته الخاصّة.

هسهسَت مومي. «هذا ليس ذنبكَ. إنَّهم أطفال شجرة البرتقال الّذين يرضون أن تُقذف أمُّهما بالهراوات والحجارة. أطفال حمقى، هيَّا برِّرا نفسيكما. فسِّرا. انطقا بالكلمات الّتي تُعشش في فاهيكما.» نظرَت شزرًا إلى أكين ثمَّ إليَّ، وهي تلوِّح بيديها المُصابتين بالتهاب المفاصل مثل المخالب الضَّخمة.

تنحنحَ دوتون. يده اليسرى ما زالت مضمَّدة بحمَّالة كتف، وثمَّة ضماد حول رأسه، وغرز صغيرة عند أحد طرفَي وجهه.

«تجادلنا بسبب المال.» قال دوتون.

قُربي، استرخى جسد أكين، وتهيَّأ لي أنَّه تنفّس الصُّعداء. كان يجب أن أحسن الاستماع، وأودع في ذاكرتي رواية دوتون، أن أتقن حفظ كلِّ تفصيل فيها، لأعيد سردها على الأقارب الّذين سيسألونني لاحقًا حتمًا، وعلى وجوههم تعابير القلق بينما هم توّاقون إلى مادة للثرثرة يضيفونها للبطاطا المهروسة خلال اجتماعاتهم العائليَّة. لكن، آنذاك كنتُ قد كففتُ عن الاهتمام بما تفكِّر فيه عائلة أكين. صرفتهم من ذهني. ولو أنّني لم أدرك ذلك بعد. ولذا رحتُ أهدهد روتيمي وأتلهَّى بسلسالها، ضاغطة إبهامي على أطراف الصَّليب القاسية تحت بلوزتها. أصغيتُ عندما بدأ أكين يتكلَّم. دُهشت من السُّهولة الّتي سدَّ بها الثَّغرات في رواية دوتون. بدا ذلك كما لو أنَّهما تدرَّبا على تلك الأكاذيب معًا مرارًا وتكرارًا.

«لم يكن المال لي. استلفتُه من المصرف. بعد كلِّ ما قدَّمتُه له،

بعد كلِّ تضحياتي ، كيف يجرؤ دوتون على تبديده في القمار؟» صاح أكين وهو يصفع ركبته .

«يا شقيقي الكبير ، أنا لم أقامر . كان ذلك مشروعًا لم يُكتب له النَّجاح ، كان يفترض أن يجلب لي مالًا فائضًا لأسدّد القرض ، بيد أنّ الكثير من الأشياء باءت بالفشل .» لم ينظر دوتون ناحيتنا وهو يردّ على شقيقه ، كان رأسه محنيًا وبدا أنَّه يحملق في الأنماط المتقاطعة الَّتي على المشمّع الأزرق الَّذي يغطِّي الأرضيَّة .

«ذاك ليس عملًا ؛ لو لم تكن غبيًا جدًّا لخمّنتَ أنَّهم محتالون . أمَا كنّا سنصبح كلُّنا أغنياء لو أنَّ للذين يضاعفون المال وجود؟»

«المال شيء تافه ،» قال والد أكين وهو يربّتُ كتف دوتون .

واصل أكين ودوتون نسج خيوط أكاذيبهما إلى أن أصبحت روايتهما متينة كحبل الحقيقة .

«يجب ألّا تسمحا للمال أن يفرّق بينكما . في عروقكما يجري الدَّم نفسه . أي مثال تريدان تركه لأطفالكما إذا سمحتما للمال أن يفرّق بينكما؟» قال والد زوجي عندما سكتا .

نخرَت مومي وهزَّت رأسها ، لكن زوجها تجاهلها وتابع ما يقوله .

«يجب أن تتصالحا ، ويعتذر أحدكما من الآخر .» مال الشَّيخ إلى الأمام وأشار بيديه . «الاتحاد - يجب أن تكون أيُّ عائلة متّحدة . أنسيتما؟ عصا المكنسة وحدها لا فائدة منها ، لكن عندما توضع فيها حزمة قشّ ، ماذا تفعل؟»

«تكنس البيت إلى أن ينظف ،» أجاب أكين .

«ما يعني أنَّكما تستوعبان ما أحاول قوله؟» قال والد زوجي .

لمس دوتون طرف وجهه نصف المحجوب بالغرز . «أنا آسف يا شقيقي ، لا تغضب منِّي . سأجد طريقة لأردَّ لك المال .»

كحَّ أكين . «الشَّيطان هو من استخدمني يا دوتون . ذلك الغضب ، لا أدري من أين جاء .»

«انتهى هذا .» التفتَ والد زوجي لينظر إلى مومي . «إيا أكين ، أأنتِ بسلام الآن؟ أخبرتكِ أن لا علاقة ليجيده بما جرى ، هي لا يمكن أن تقف بينهما من أجل أيِّ سبب ، بل حتَّى كيف خُيِّل إليكِ أنَّها متورِّطة في مثل هذا الأمر؟»

«كلُّ ما أعرفه ،» قالت مومي وهي تنهض وتتقدّم لتقف أمامي أنا وأكين . «كلّ ما أعرفه هو هذا : أيُّ شيء جرى في أعماق الظَّلام سيأتي يوم يصبح فيه حديث الشّوق .»

نظرتُ إلى روتيمي ، ورأيت أنَّها قد أخرجت الصَّليب من تحت بلوزتها وراحت تمصُّه . نزعته من فمها بحرص لئلا تتأذى لثتها .

مالت مومي نحوي . «لا يمكنكِ أبدًا أن تخفي الحقيقة ، تمامًا كما لا يمكن أن يحجب أحد أشعة الشَّمس بيديه . لا يمكنكِ أبدًا أن تخفي الحقيقة .»

*

كلَّما ذهبتُ إلى الصَّالون كان أوَّل شيء أفعله هو تسليم روتيمي لإيا بولو . إيا بولو هي الّتي درجت على ربط روتيمي إلى ظهرها إذا بكت ، واللحاق بها إلى الممر عندما بدأت تزحف . وهي الّتي لاحظت عندما ظهرت سنّتها الأولى ، وهلَّلت يوم تشبَّثت برجل كرسيّ لترفع نفسها .

«لماذا تتصرَّفين هكذا؟» قالت إيا بولو وهي تحمل روتيمي عندما بدأت تبكي .

«كيف أتصرَّف؟» قلت وأنا أنظِّف مجموعة من لفافات الشَّعر وأضعها في مصفاة .

«أنت حتَّى لم تلقِ نظرة عليها عندما أخبرتكِ أنَّها وقفَت . ألا يعنيكِ هذا؟» ربتَت ظهر روتيمي وهدهدَتها .

ناولتها الرّضاعة الَّتي عصرتُ فيها حليبي في الصَّباح . «لعلَّها جائعة .»

«أنتِ ، يا هذه المرأة ، أخبرتكِ أنَّ الصَّغيرة أكبر من أن تكتفي بحليب الأمّ . لماذا تتصرّفين كما لو أنَّ أذنيك سُدّتا بالمسامير؟ روتيمي ، يا صغيرتي ، خذي حليب ثديها ، لا تكترثي لأمِّك ، اكتفي بحليبها هذه المرَّة .»

كنتُ ممتنة للسكون حينما بدأت روتيمي ترضع من حلمة الزُّجاجة . كانت الشَّمس تغرب ، وأنا أشكو من وجع حول ركبتي وكاحلي من الوقوف طوال النَّهار . تناولتُ حقيبتي ، وعددتُ بعض القطع المعدنية للفتاتين اللتين تخلّفتا عن الذَّهاب لتساعداني في التّنظيف . بعد أن قذفَت الفتاتان حقيبتيهما على كتفيهما وغادرتا ، جلستُ تحت مجفّف الشَّعر وأنزلتُ غطاءه ، وإيا بولو ما زالت تخاطبني ، لكن من تحت المجفف بدت كأنَّها تحكي من مكان بعيد جدًّا ، من غرفة أخرى ، من عالم آخر . لم أشعر أنَّ لكلماتها أيَّ أهمية بينما بقيتُ تحت المجفّف ، لم تكن أمورًا أحتاج إلى التَّفكير فيها ، أو أردُّ عليها بأيِّ طريقة . أغمضتُ عيني لأزيد تأثير كوني بعيدة عن كلّ شيء ، كوني وحدي .

«متى ستُعدّين سمكًا طازجًا وجريشًا لروتيمي؟ أو حتَّى تشترين لها غذاءً بديلًا وحليبًا؟»

«أنا مشغولة ،» قلت مشابكة ساقَي لأدلّكَ ركبتي .

«إيا روتيمي خافي ربّك بحقّ الله . أأنت أكثر انشغالًا من أن تشتري غذاءً بديلًا لطفلتكِ؟ أهناك ما يضايقكِ؟ لنتحدّث عنه ، أخرجيه من رأسك لتتفرّغي لبنتكِ .»

«هل انتهيتِ ، علينا أن نعود إلى البيت قبل أن يستفحل الظّلام .»

«تعالي وانتزعي الرضّاعة منها الآن . أنت لا تكلّفين نفسك سماع ما أقوله .» التفتَت إلى الطِّفلة ، «روتيمي ، لا تقلقي ، لن ألبث أن أشتري لكِ غذاءً بديلًا ، لا تكترثي لهذه المرأة ، سرعان ما تعود إلى رشدها . أنا متأكِّدة .»

تثاءبتُ .

في اليوم التّالي جاء دوتون إلى الصّالون ، وأنا أضفر شعر بنت صغيرة . طلبتُ منه أن يجلس وينتظر لأنّني ما سمحتُ قطّ للمتدرّبات عندي أن يلمسن شعر طفلة . رأيتُ أنَّ فروات رؤوسهن أكثر رقة من أن تستعمل للتدريب . عندما فرغتُ من ضفر الشّعر ، أخذت وقتي في فرك زيت وردي بين خطوط الضّفائر الفاصلة ، وانتظرتُ إلى أن طفرت الصّغيرة خارج الصّالون قبل أن أذهب وأجلس قرب دوتون .

«أتودُّ شرب شيء؟ كوكا كولا ، فانتا؟»

«لا ،» أجاب وتنهّد . «جئت لأودِّعكِ ؛ سأغادر إليسا غدًا ، إلى لاغوس .»

«أوه ، حسنًا . أحظيتَ بعمل في لاغوس؟»

«شيءٌ من هذا القبيل .»

لم أطلب منه الاستفاضة ؛ لأنّني حقًا لم أهتمّ . اقتصر اهتمامي به بعد أن أوسعه أكين ضربًا على التأكُّد من بقائه على قيد الحياة ، وتساءلتُ في سرِّي لماذا جاء إليّ ليودعني .

«سأفتقدكِ ،» قال .

عندئذ نظرتُ إلى وجهه ، نظرتُ حقًا . الضّمادة المحيطة برأسه كشفت بعد نزعها عن ندبة كبيرة ، حيثُ مكان الغرز اللمّاع لن يسمح أبدًا للشعر بالنُّمو ثانية . بدا أنَّه فقد المزيد من وزنه ، وعلى وجهه ترتسمُ ابتسامة متفائلة . تساءلتُ إن كان ينتظر منِّي أن أقول له إنَّني أنا أيضًا سأفتقده .

«رحلة آمنة . عليكَ أن تبلِّغ زوجتك وأولادك تحياتي ،» قلتُ .

التفَتَ بعيدًا ولمس ندبة رأسه . «ذهبتُ إلى مكتب أكين هذا الصَّباح . . . طلب من سكرتيرته أن تطردني .»

«شقيقكَ الكبير أكين ،» قلت . «لا يحقُّ لك أن تدعوه أكين فقط ، هو ليس صاحبك .»

«مهلًا يجيده . أنا؟» وكز صدره بإصبع . «أأنتِ غاضبة منِّي؟»

«اخفض صوتكَ .»

هزّ رأسه . «ذلك ليس ذنبي ، كما تعلمين يا يجيده . الفكرة كانت فكرته .»

«دوتون ، أنت وشقيقكَ تآمرتما علي .»

«اسمعي يجيده ، ظننتُ أنَّكِ تعلمين .» وضع يده على ركبتي . «قال إنَّه سيطلعكِ على كلِّ شيء .»

«عليكَ أن تذهب الآن يا دوتون . أنت ترى أنَّني مشغولة ، لا وقت لدي لكلِّ هذا .»

«سأفتقدكِ .» هذه المرة همس بالكلمات همسًا ، وبدا وقعها أنَّه عنى بها شيئًا لا يجرؤ على قوله .

دفعتُ يده عن ركبتي ونهضتُ . «لتكن رحلتكَ غدًا آمنة .»

ابتعدتُ عنه ومضيتُ إلى امرأة مُسنَّة كانت تحوم حول العاملات المتدرّبات ، لكنَّها لم تجلس .

«مساء الخير سيدتي ،» قلت . «ألم يهتم بكِ أحد؟»

«أوه ، بلى يا عزيزتي . لكنّني أخبرتهن أنّني أفضِّل انتظارك . لا أريد أن يفسد أحد ما تبقّى من شعري الخفيف .»

ابتسمتُ وقُدتها إلى كرسي . من زاوية عيني رأيت دوتون يتلكأ عند الباب ، ليحيي إيا بولو وروتيمي قبل أن يغادر الصّالون . انتظرتُ بينما خلعت المرأة الّتي أمامي وشاحها ، وفكّرت في ما عناه دوتون بتكرار ما قاله ؛ سيفتقدني؟ لم يكن شعر المرأة خفيفًا مطلقًا ، بل كثيفًا وطويلًا ، ومقدمته مخططة بالشّيب . تذكّرت من هي وأنا أمرّر يدي عبر شعرها ؛ مسؤولة متقاعدة اعتادت أن تقصدني مرّة في الشّهر لأضفر شعرها ، وتصرُّ على عدم استخدام أيٍّ مستحضر ما خلا زبدة الشيا الّتي تجلبها معها بوعاء بلاستيكي .

«هل أخبرتكِ؟» جاءت إيا بولو لتقف قربي . «أأخبرتكِ عن زفاف بنت أخي؟»

«لا ،» أجبتُ وأنا أمشط شعر المسؤولة المتقاعدة .

«أوه ، سيحدث هذا في السّنة القادمة ، بنت أخي البكر ستتزوج . ألم ينجبوها بالأمس فقط؟ أوه!» كنت قادرة على رؤية انعكاس إيا بولو في المرأة . حملَت روتيمي وابتسمَت لها . «قبل أن تدركي ، سنرقص في عرس روتيمي أيضًا .»

لم يساورني أيُّ شكّ في أنّها قالت الشّيء نفسه عن أولاميد وسيسان ، وأنا قطعًا لم أكن أتطلّع إلى الأمام بقدر ما يمكن أن يصل ذلك إلى زفاف روتيمي . الأمل كان رفاهية ما عدتُ قادرة على تحمُّل نفقاتها .

«أوه ، هكذا تبدو الحال دائمًا ، يكبر الأطفال بسرعة ،» علّقت المسؤولة المتقاعدة وهي تبتسم . «أصغر بناتي تزوّجت السّنة الماضية .

كما تعلمين ، وأنا ما زلت أتذكَّر يوم اكتشفتُ أنَّني حبلى بها ، والآن هي أيضًا لن تلبث أن تصبح أُمًا .»

«تهانينا سيدتي ،» قلت وأنا أتناول المشط الخشبي .

«شكرًا .»

«إذًا ، متى الزَّفاف؟» سألتُ إيا بولو .

«في وقت ما في حزيران ربَّما ، لم يحددوا التَّاريخ الدَّقيق بعد .»

«عسى ألَّا تؤثّر الانتخابات على تحضيرات الزَّفاف ،» قالت زبونتي ، ثمَّ حنت رأسها لأتمكن من فصل شعرها إلى أربعة أقسام متساوية .

«لهذا ما زالوا ينتظرون ليحدِّدوا التَّاريخ المضبوط . يريد أخي التَّأكّد من تاريخ اليوم الَّذي ستجري فيه الانتخابات .»

سخرتُ مما قالته . «أتظنين أنَّه ستجري أيُّ انتخابات؟ مع بابانجيدا هذا الَّذي أجَّل تاريخ إجرائها مرَّة تلو مرَّة؟»

«مرحلة انتقاليَّة ،» قالت زبونتي . «هذه مرحلة انتقاليَّة . الانتقال عمليَّة ، إنَّه ليس حدثًا يجري مرَّة واحدة . ولا داعي لأن نتهكّم . كانت هناك نكسات ، لكنَّني أعتقد أنَّها مفهومة تمامًا .»

«أنا ، لا أعتقد أنَّ الرَّجلَ ذاهبٌ إلى أيِّ مكان . حكاية الانتخابات هذه مجرد احتيال آخر ، إنَّهم يخدعوننا فقط لا غير ، جماعة العسكر أولئك .»

«هذه المرَّة سيرحل ، صدِّقيني . تذكَّري فقط أنَّني قلتُ ذلك . على الأقلّ لدينا الآن ولاةٌ مدنيون ، والمشرِّعون سيتسلمون الحكم بحلول شهر كانون الأوّل . إنّه انتقالٌ تدريجيٌّ ، خطوة خطوة يا عزيزتي . إنَّها الطَّريقة الوحيدة لضمان التَّغيير الدَّائم .»

ثبَّتُ المشط الخشبي على نصف شعرها ، وبدأتُ أضفر النِّصف

الثّاني . ما كان عندي إيمان بذلك الانتقال التّدريجيِّ المزعوم . وبدا من الواضح أن زبونتي قداستثمرت نفسها في العملية برمّتها ، إذ أدرجت التّواريخ والإحصائيات بكفاءة امرأة استنفدت أيامها في قراءة الصُّحف . ما فتئَت تومئ برأسها ، وهي تشرح لماذا تملك الحكومة العسكرية الاتحادية الحق كلّه لتشرّع وتموِّل الحزبين السِّياسيين القائمين في البلاد . وعثرَت على طريقة لتبرِّر حقيقة أن الحكومة هي الّتي كتبت دستور الحزبين ، وصمّمت شعاراتهما .

«انظري ،» قالت ، «إنَّه ليس الوضع المثالي ، لكن بمجرّد أن ننتقل إلى الدِّيموقراطية ، ستختلف الأوضاع . علينا أن نسعى لننقل البلاد إلى ديموقراطية شاملة أوَّلًا ، وبعد أن نفعل ذلك يمكننا تسيير الأمور في الاتجاه نفسه .»

تخليتُ عن مناقشة الموضوع ، لأنّني لم أكترث كثيرًا به . بقدر ما يعنيني الأمر ، ستأتي سنة 1993 وتمضي وفي نهايتها نعرف إذا كانت الحكومة جادّة في وعدها . ولا نيَّة عندي في التَّسجيل من أجل التَّصويت .

«بنهاية هذه السَّنة تخبرنا الحكومة متى ستجري الانتخابات وحينها يحدِّد أخي موعدًا لا لبس فيه . وأنت يا إيا روتيمي ، لا بدَّ من أن ترافقيني إلى بوتشي ،» قالت إيا بولو . «مهما كان تاريخ يوم الزّفاف ينبغي أن ترافقيني . رجاءً .»

«إلى بوتشي؟ أهناك يعيش أخوك؟ أوه ، إنَّها رحلة طويلة .»

«لهذا أنا أخبركِ من الآن ، باشري تحضير ذهنكِ .»

«حسنًا ، سأفكّر في الأمر ،» أجبتُ . «لكنّني لم أوافق بعد على الذَّهاب يا إيا بولو ، إنَّما سأبقي هذا في ذهني على أيِّ حال .»

«أتعرفين أنَّكِ إذا رافقتني يمكنكِ شراء الذَّهب من بوتشي

لتبيعيه هنا . هل تتذكرين تلك الزّبونة الَّتي سألتكِ إن كنتِ تبيعين المجوهرات؟ ها ، الآن تنظرين إلي؟ تيقنتُ من أنَّ هذا سيغريكِ . أتطرق في الحديث إلى العمل فتنتصب أذناك . زوجة أخي تعمل في مجال الذَّهب ، يمكن أن تريكِ الأماكن كلَّها الَّتي تستطيعين شراءه منها ، ومن يدري ، ربَّما يُباعُ ذهب بوتشي هنا .»

«تلك فكرة مثيرة ،» علّقتُ وأنا أفرك فروة رأس زبونتي بزبدة الشِّيا .

35

في عصر يوم اثنين ، دخلَت سكرتيرتي ليندا مكتبي وسلَّمتني رسالة . كنتُ عادة أراجع المراسلات في الصَّباح ، حالما أفرغ من مطالعة عناوين الصُّحف البارزة ، وقبل اجتماعي اليوميِّ برئيس العمليات .

«هذه وصلَت الآن يا سيدي ،» قالت ليندا قبل أن أسألها لماذا لم تلحِق الرِّسالة بملفِّ البريد الَّذي تتأكّد من أنَّه على طاولتي قبل مجيئي كلّ يوم .

تفحَّصتُ المغلَّف ، وميَّزت الكتابة اليدوية السَّلسة فورًا . كلُّ طابع بريدي عليه كلمة أستراليا 45 س فوق صورة جرذ طويل الذَّيل . مزَّقتُ المغلف وأخرجت منه الورقة الوحيدة الَّتي فيه وفتحتُها .

شقيقي الكبير ،

كيف حالك؟ كما لا بدَّ من أن تعرف من الطَّابع ، أنا الآن في أستراليا . وصلتُ إلى هنا في الأسبوع الماضي ، رجاءً طمئن مومي عنِّي .

اسمح لي أن أبدأ بشكركَ على كلِّ ما فعلته من أجلي بعد أن فقدتُ عملي . لم تتح لي الفرصة لأشكركَ قبل رحيلي ، أريدكَ أن تعلم أنَّني أقدِّر جهودكَ الَّتي بذلتها لمساعدتي في تأمين عمل آخر ، لأعود

وأقف على قدمي . أنا ممتن لكَ حقًا لمنحي سقفًا فوق رأسي بعد أن فقدتُ ما كنتُ أملك .

بخصوص ما جرى قبل أن أغادر نيجيريا ، أودُّ أن ننساه . لا يمكن أن نستمرّ في الشِّجار على هذا كما تعلم . نحن شقيقان ، نحن دم واحد . قد تطلقكَ امرأة ، أمّا العائلة فلا تفعل . ما زلتُ متفاجئًا لأنّك لم تعطني أذنًا صاغية عندما جئتُ إلى مكتبكَ . يمكنني أن أصفح عن ذاك ، ويمكننا معًا أن نضع تلك الحادثة وراء ظهرنا ونتابع المضيّ قدمًا . لكن ، من طريقة خذلانكَ لي في مكتبكَ ، يبدو أنّك تريدنا أن ننتهج سبيل العداء بسبب هذه القضيَّة . شقيقي الكبير ، خذ علمًا بهذا ، أنتَ لا يمكن أن تخاصمني ، لا يمكن أن تتشاحن مع العائلة .

أما زالت يجيده معكَ؟ أنا آسف إن كانت قد هجرتكَ ، لأنّني أعرف كم أحببتها . هذا ما أعتقده على الأقلّ .

لا مجال لأن تلقي عليّ اللوم إذا كانت قد رحلَتْ ، فزواجك عانى دائمًا من المشاكل . إنّها امرأة متفهّمة فريدة . كانت ستصغي إليكَ وتستوعبكَ ، أنا واثق من هذا . لم أقصد أن أبوح لها بأيِّ أسرار ، ظننتُ أنّكَ فاتحتها بكلّ شيء ، وليس بأنصافِ الحقائق . افترضتُ أنّكَ ، كما وعدتني ، أطلعتها على كلِّ شيء .

إنّها امرأة يسهل التّحدث إليها ، امرأة يسهل الوقوع في غرامها .

على أيِّ حال ، المهم الآن أن يسامح أحدنا الآخر ونمضي قدمًا ، أنا سبق أن غفرتُ لك .

أتوقع السّماع منك قريبًا جدًا .

مع خالص احترامي ،

دوتون

فكَّرتُ في تلقيم آلة تقطيع الورق الرِّسالة ، لكنَّني مزّقتها ، مزَّقتها إلى فتات في منتهى الصِّغر . تساءلتُ إن كان قد أخبر يجيده أنَّه سيغادر البلاد ، وهل تراها ، في حال فعل ، أعطته المال لرحلة الطَّائرة . دوتون الَّذي أعرف كان مفلسًا ، لم أستطع أن أتخيّل كيف تدبَّر أمر السَّفر إلى أيِّ مكان من دون مساعدتي .

زعزعتني رسالة دوتون ، وفي الوقت نفسه أجابت عن السُّؤال الوحيد الَّذي أردت طرحه بعد ضبطه مع زوجتي . أخبرتني أنَّ الغباء بلغ فيه حدّ مناقشتي مع يجيده . كنت أتساءل كم عرفَت ، واستنتجتُ تقريبًا أنَّ دوتون باح لها بالأسرار الَّتي عهدتها إليه . رأيتُ هذا في طريقة مشيتها المتحدِّية ، انتقالها إلى غرفة أخرى ، طريقة التقاء عينيها بعيني عندما أصطدم بهما . داعبني الأمل في أن دوتون حافظ على فمه الكبير مغلقًا . وتهيَّأ لي أنَّ كلَّ ما مررنا به كان أكثر من كافٍ لإغضاب يجيده ، أقنعتُ نفسي أنَّ هذا يفسِّر صمتها ، يفسِّر الاحتقار الَّذي لازم عينيها .

نجحتُ في إقناع نفسي قبل تسلُّمي رسالة دوتون أنَّها لو ألَمّت بشيء لواجهتني ، ولأعطتني فرصة لأبرِّر نفسي . لا يعني هذا أنَّه كان لدي ما أقوله - بل على الأرجح سأفبرك المزيد من الأكاذيب . وما هذا إلَّا لأنَّه ما زال لديَّ أمل ؛ لطالما كان لدي أمل بأنَّ كلَّ شيء سيتغير ، ولن تعود للأكاذيب أهمية . ما زلت أرى اختصاصيًا في مستشفى جامعة «لاغوس» التَّعليمية ، وقد أبدى بعض التَّفاؤل . وبالتَّالي تلقفتُ تعليقاته الحذرة وتعلّقت بها ، أخبرتُ نفسي أن هذا سيحدث في أيِّ يوم الآن ، أقنعتُ نفسي أنَّ الاختصاصي في تلك المستشفى قادر على اجتراح المعجزات . وجدنا كوكتيل الدَّواء المناسب وكلُّ شيء سيجري على ما يرام . كان الأمل أفيوني ، الشَّيء الَّذي لم

أستطع أن أفطم نفسي عنه . وعلى الرّغم من السّوء الذي آلت إليه الأمور ، عثرتُ على طريقة لأؤمن أنّه حتّى الهزيمة ما هي إلّا دلالة على أنّ الفوز من نصيبي .

في الأسابيع الّتي تلَت وصول رسالة دوتون ، شعرتُ كما لو أنّ بيتنا قد انكمش . بدا في منتهى الصِّغر ، أصغر من أن يحول دون اصطدامي بيجيده . ولأوّل مرّة منذ أن انتقلَت إلى غرفة أخرى ، سررتُ لأنّني وحدي في سريري . امتنعتُ عن تناول الطّعام الّذي تتركه لي ، متسائلًا لعدّة أيام إن كانت تنوي تسميمي ، تعاقبني من غير أن تفاتحني بشيء أبدًا .

كنْتُ أشدّ خزيًا من أن أفرض المواجهة الّتي خشيتها دومًا ، تلك الّتي نبذتها من ذهني منذ أوّل مرّة رأيتها فيها ، وقرّرتُ أن لا شيء أبدًا يمكن أن يحول بيني وبين قضاء بقيّة عمري معها . صرتُ أتسلّل إلى البيت خلسة ، أغادرُ باكرًا إلى عملي ، وأعود في وقتٍ متأخر . قضيتُ عطل نهاية الأسبوع وحدي في غرفتي ، أمعنُ التّفكير مجدّدًا بكلِّ خيار ، مُتتبعًا خطواتي السّابقة ، متسائلًا إن كنتُ أملك خيارًا حقًا ، إذا كانت هناك أشياء أمكنني فعلها بشكلٍ مختلف . وقبل أن أبرأ تمامًا من رسالة دوتون الأولى ، وصلت رسالته الثّانية .

شقيقي الكبير ،

كيف حالكَ؟ وكيف حالُ مومي؟ أتسمعُ أخبارًا من أرينولا وزوجها؟ تسلّمتُ عملًا هنا الآن ، وأنا أكسب بعضَ المال ، مالٌ قليلٌ قليل ، لكنّني سأنجو .

أعرف أنّك تسلّمت رسالتي السّابقة . لماذا لا تكتب؟ كيف أقنعكَ بالكتابة لي؟

شقيقي الكبير ، اسمح لي أن أوضّح الأمور من طرفي في القصة . أوّل مرّة مارستُ فيها الجنس مع زوجتك ، كانت لإنقاذ زواجكَ . وما زلتَ لم تشكرني على ما فعلتُ ، أنت أيُّها الرّجل المعتدُّ بنفسه . في ذلك اليوم عندما خلعَتْ ثيابها أغمضتُ عينَي . أنت تتذكّر تلك المرّة الأولى ، حاولتُ تقبيلها ؛ ليس لأنّي أردتُ هذا بصفة خاصّة ، بل ليبدو هذا الأمر أقلّ شبهًا بالاغتصاب . مارسنا جنسًا محتَشمًا كما يفعل النّاس في أفلام التّصوير المنزليّة ، والملاءاتُ تغطّي جسدينا جيّدًا كما لو أنّ هناك من يراقبنا . وقد اعتقدتُ صِدقًا أنّكَ أطلعتها على كلّ شيء كما وعدتَ . وعندما فتحتُ الموضوع معها أوّل مرّة ، ما كان ذلك إلّا لأنّك خارج البلدة ، وهي علمت للتوِّ أنّ سيسان يعاني من مرض الخليّة المنجلية . شعرتُ أنّها بحاجة إلى شخص تتحدّث إليه . ذاك كل شيء . أرغبتُ فيها؟ لأكونَ صادقًا أمامكَ وأمام خالقكَ ، نعم . إلّا أنّني لم أخبرها ما أخبرتُها به لأخونَكَ . ظننتُ أنّها تعرف . هذا كلُّ ما لدي لأقوله يا شقيقي الكبير .

ستتزوّج أجوك ثانية ، ستتزوّج لواءً في الجيش ، اسمه غاروبا ولديه قبلها ثلاث زوجات . أليستْ غبية ، زوجتي السّابقة هذه؟ لتتزوجَ برجلٍ في الجيش بينما هم على وشك الخروج من السّلطة؟ تقول إن الأطفال سيأتون إليّ هنا في الإجازات . أعتقدُ أن اللواءَ سيدفع مصاريفهم .

كاتِبني ، سأنتظر رسالة منكَ .

مع فائق احترامي ،

دوتون

ملاحظة ؛ عندما تكتب أخبرني عن الانتخابات الرِّئاسيَّة . لا سبيل لديَّ لأعرف حقًا ما يجري في نيجيريا ، وأرغب في الاطِّلاع على الأوضاع .

لم يستحوذ عليّ الشُّعور بأيِّ غضب وأنا ألقِّم آلة تقطيع الورق الرِّسالةَ الثَّانية . الخزي الَّذي اعتمل في داخلي لم يترك مكانًا لأيِّ شيءٍ آخر ، ولا حتَّى للتمنّي . ما عدتُ غاضبًا من أخي ؛ أدركتُ أنَّ ذاك الغضب كلّه كان انفعالًا ، شيئًا تمسّكتُ به لأستخدمهُ كوسيلةِ دفاع في وجه الخِزي ، فالغضب أسهل من الخِزي .

*

روتيمي هي الَّتي أنقذتني من يأسي ، ساعدَتني في العثور على طريق العودة إلى الأمل . في إحدى الليالي عدتُ من العمل ، في الواقع عدتُ مع تباشير الساعات الأولى لليوم التَّالي ؛ حوالي الثَّانية صباحًا . ولمَّا دخلتُ غرفتي وجدتُ روتيمي نائمة في مهدها . في بادئ الأمر خطر لي أنَّ يجيده عادت إلى غرفتنا ، لذا قرعتُ باب الحمام ، ثمَّ فتحته ببطء عندما لم أسمع ردًا ، لكنَّها لم تكن هناك .

ذهبتُ إلى الممرّ وفتحتُ باب غرفة يجيده نصف فتحة ، ارتحتُ قليلاً وأنا أراها هناك ، نائمة في السَّرير . عدتُ إلى غرفتي ، وأنا أتساءل أيّ رسالة تحاول يجيده أن تمرّرها لي بدفع مهد روتيمي وإعادته إلى الغرفة الَّتي كانت في يوم غرفتنا . لم أمتلك طاقة كافية لأفكِّر في ذلك ، نزعتُ ثيابي محتفظًا بلباسي الدَّاخلي ، صعدتُ إلى السَّرير ونمتُ .

أيقظَتني روتيمي في الخامسة صباحًا . بقيتُ ملازمًا سريري ، غيرَ متفاجئٍ من البكاء ، متوقّعًا أن يتوقّف بلا تدخُّل منّي ، كما حدث دائمًا من قبل . استمرَّ البكاء ، وبدا وقعه أشدّ غضبًا وأعلى إلى أن كدتُ لا أصدق أنَّ الصّوت آتٍ من مخلوق صغيرٍ جدًّا . نهضتُ ، وأنا أتساءل عمّا يمكنني أن أفعل بعد أن حملتها . أملَتْ عليّ غريزتي الأولى أن آخذها إلى يجيده لولا أنّني لم أحتج إلى فعل ذلك . كفّت روتيمي عن البكاء بمجرد أن أصبحت بين ذراعي .

كانت صامتة ولكن متوترة ، تتنفّس من فمها ، تضربُ الهواء ، تطرف عينيها بسرعة . بعد أن هدأت ، أغلقتْ فمها ووضعتْ رأسها على صدري ، قرّرتُ أن أعيدها إلى مهدها ، إلّا أنّها بدأت بالصّراخ حالما تركَت ذراعي . حملتُها مجدَّدًا فاستكانت للصمت ، ثمَّ عادت وزعقت لمّا حاولتُ وضعها على السّرير ، ولمّا جلستُ ، ولمّا استلقيتُ على ظهري وهي فوق صدري . استغرقتُ فترةً لأفهمَ ما تريده : أنْ تبقى بين ذراعَي وأنا على قدمَي . لم تعد إلى النّوم لساعةٍ أخرى . وبينما هي مستكينة لي لم تفعل الكثير ، تثاءبتْ فقط وتأمّلت وجهي . لم أفلتها بعد أن نامت ، كان هناك شيءٌ مريحٌ يتعلّق بوزنها وبدفء أنفاسها على صدري . مرّ زمن منذ أن اقتربتُ إلى هذا الحدّ من إنسان آخر . استندتُ على الحائط ولم أفعل شيئًا سوى حملها إلى أن جاءتْ يجيده حوالي السّابعة ، وأخذتْها منّي من دون كلمة واحدة وغادرتْ الغرفة .

في ذلك اليوم عدتُ إلى البيت حوالي التّاسعة مساءً ، وهي المرّة الأولى الّتي أصل فيها إلى البيت قبلَ منتصف الليل منذ أن تسلّمتُ رسالة دوتون . وجدتُ يجيده في غرفتي مع روتيمي . وقفَتْ حالما دخلتُ ، وناولتني روتيمي .

«إذا بكَت قبلَ الحادية عشرة أعطها بعض الماء .» أشارت إلى طاولة السّرير الجانبيّة حيثُ وضعتُ دورقَين حافظَين للحرارة وعدّة رضّاعات .
«أو لقّمها بعض الفتات ، هي تحبُّها مع الحليب . وهناك حفاضات في الحقيبة على الأرضيّة .»

ألقيتُ حقيبتي لأحمل روتيمي بكلتا يدي ، متفاجئًا من أنّ أُمَّها تخاطبني .

«لا تأتِ وتزعجني ، أريد أن أنام . سأعود إلى هنا من أجلها في الصّباح .» قالت يجيده وهي تخرج من الغرفة .

وهكذا ، من ذلك اليوم فصاعدًا ، تطلّعتُ إلى الرِّجوع إلى البيت . لم تهتمّ يجيده بتفسيرِ سبب تزايد عدد أشياء الطِّفلة الّتي صارت تتركها في غرفتي ، اكتفَت بتسليمي روتيمي حالما أدخلُ من الباب . كلّ صباح ، أيقظتني روتيمي في الخامسة ؛ صراخها كان دقيقًا كالمنبِّه ، وعندئذٍ ، أستندُ إلى الحائط ، وأحملها حوالي ساعة . تأمّلتُ وجهها يوميًا ، نظرتُ في عينيها وشعرتُ بشيءٍ يشبه الإيمان ، متأكِّدًا حتّى في ذلك الحين من أنَّ هذه الطِّفلة ستعيش ، ستبقى . لم تكن طفلة لعوب ؛ بل لاحَ هناك شيءٌ جديٌّ في طريقة وضعها يدها على ذقنها . نادرًا ما غمغمَت . مبدئيًا ، كانت ساعات صباحنا هادئة ما دمتُ لا أعمدُ إلى الجلوسِ أو أتخلّى عن حملها ، ثمَّ ، ذات صباح نظرَت إليَّ مليًا ، إحدى يديها تحت ذقنها كما لو أنّها تتفكّر في ما هي تهمُّ بقوله ، وقالت «بابا» . قالتها مرتين أُخريين قبل أن يستولي عليها النَّوم ، كأنّها خمّنَتْ أنَّني احتجتُ إلى سماع الكلمة ثانية . كانت أشبهَ بالتّبرئة في كلِّ مرّة قالتها . تلك الكلمة البسيطة رفعَت قليلًا عن كاهلي ثقلَ رسائل دوتون السّاحق ، وأخطائي كلّها .

شعرتُ كما لو أنّها منحتني هدية ، شيئًا سماويًا تقريبًا لأنّه وُقِّت

بشكلٍ مثاليٍّ ، طالبتْ بي أن أكونَ أباها . نعم ، صحيحٌ أنَّها لم تكن سوى طفلة لا تعرف شيئًا عن الأساليب الَّتي ينتهجها العالم . مع ذلك ، طالبت بي أن أكونَ أباها . شعرت بضرورة مبادلتها هديتها بمنحها شيئًا من نفسي في المقابل ، بسببِ نوع من التَّواصل يدوم ما دمنا على قيد الحياة . بدأتُ أهمس بالقصص لها ، رويتُ لها القصص الَّتي درجت مومي على قصِّها عليّ أنا ودوتون وأرينولا .

لم تكن لديَّ حكاية أفضِّلها ، لكن هناك واحدة ما زلتْ أتذكّر قصَّها عليٍّ روتيمي في أغلب الأحيان . وفي العادة درجَت مومي على افتتاحِ كلِّ حكاية بحكمةٍ ما . وفي هذه القصَّة بدأتُ دائمًا بقولها : ذاك الَّذي لديه أطفال يمتلك العالم .

في الزَّمن القديم ، عندما مشت معظم الحيوانات منتصبة القامة ، والبشر ما زالت عيونهم على رُكبهم ، كان لدى السُّلحفاة أيجابا زوجة اسمها إيانيبو .

تبادلا الحبَّ وعاشا معًا بسعادة . لم يكن لديهما أحدٌ آخر ، لم يُرزقا بطفل ، ولا طفلًا واحدًا . تضرَّعا لـ إلديومير من أجل طفل سنوات عديدة ، لكن لا أحد جاءهما . بكت إيانيبو يوميًا . ويوميًا سخر النَّاس منها أينما ذهبت ، أشاروا إليها بأصابعهم ، وضحكوا من وراء ظهرها في السُّوق .

أرادت إيانبيو الحصول على طفلٍ أكثرَ من أيِّ شيءٍ آخر ، أكثر من الحياة بحدِّ ذاتها . وفي أحد الأيام تعب إيجابا من رؤية زوجته تبكي ، فسافر إلى أرض بعيدة حيثُ يوجد بابالاأو العظيم . كان عليه أن يقطعَ سبعةَ جبال ويعبرَ سبعة أنهر للوصول إلى هذه الأرض البعيدة . كانت الدَّرب طويلة لكنَّها لم تفتْ في عضد أيجابا . فهذا البابالاأو معروف عنه أنَّه الأقوى في العالم في ذلك الزَّمان ، وكان إيجابًا واثقًا من أنَّه

سيجد الحلَّ عند بابالاأو إن كان هناك حلٌّ تحت السَّماء .

عندما وصل إيجابا إلى بابالاأو تضرَّع إليه ليساعده . حضَّر البابالاأو وجبةَ طعام ، وضعها في قرعة ، وطلبَ من إيجابا أن يأخذها إلى زوجته . أكّد البابالاأو لإيجابا أنّه بمجرّد أن تأكلَ زوجته الوجبة ستحبل ، وحذّره بضرورة الامتناع عن تذوُّق الوجبة نهائيًا أو فتح القرعة قبل أن يصلَ إلى البيت . شكرَ إيجابا بابالاأو ، ورحلَ بوجبة الطّعام .

في طريقه إلى البيت ، كان لا بدَّ من أن يقطعَ إيجابا الجبالَ السَّبعة ، ويعبر الأنهار السَّبعة ثانية . فاحت رائحة الوجبة شهيَّة جدًا ، والشَّمس لسعته بحرارتها ، والإرهاقُ أخذ منه كلَّ مأخذ . بعد الجبل الثَّالث ، تريَّث قرب النَّهر الثَّالث ليرتاح ويشرب بعض الماء . لم يكن هناك أيُّ شيءٍ ليأكله ، لم تكن هناك أشجارٌ تحمل الفاكهة في الأنحاء ، ولا حتّى أيّ أعشاب ، وكان إيجابا يتضوّر جوعًا .

قرّر إيجابا إلقاء نظرةٍ على وجبة الطّعام ، نظرة واحدة فقط . لم ينوِ أن يأكل ذلك الطّعام مطلقًا ؛ بل أراد فقط أن ينظر إليه . فتح القرعة ورأى أنَّ فيها عصيدة ؛ عصيدة دسمة ، إضافة إلى البطاطا المهروسة وزيت النَّخيل ، مع سمك ولحم وخضار وجراد البحر .

سال لعابُ إيجابا ، قرقرت معدته بصوت عالٍ جدًا ، لكنّه تذكّر ذراعي زوجته الفارغتين ، وأغلق القرعة متابعًا رحلته ، ازدادت حرارة الشَّمس ، وتفاقم جوعه واشتدَّ تعبه ، لذا توقَّف بعد الجبل الخامس قرب النَّهر الخامس تمامًا .

فكّر إيجابا بينه وبين نفسه : سألمسُ الوجبة بإصبعٍ وأفركه بزيت النَّخيل . بهذه الطَّريقة أعرف إذا كان بابالاأو قد استعمل نوعيَّة جيدة من زيت النَّخيل ، إذ لا أريد أن تأكل إيانيبو أيَّ شيءٍ يربك معدتها .

تحسَّس إيجابا العصيدة بإصبع واحد فقط ، لا لسببٍ إلّا ليكتشف نوعيَّة زيت النَّخيل . فركَ الزَّيت بين يديه ، بدا ملمسه جيِّدًا . يبدو أنَّه جيِّد قال لنفسه ، لكن ربَّما لا يكون مذاقه طيِّبًا ، وهكذا أخذ قطرة صغيرة جدًّا وتذوَّقها . فورًا بدأت معدته تفرقع كالرَّعد فالتهمَ الوجبة كلَّها بدقائقَ . عجز عن المقاومة ، أو عن ردع نفسه حالما عبر ذلك المذاق اللذيذ بوابة فمهِ . تمطَّقَ بعد الوجبة ، وغسل يديه في الجدول .

وعلى الفور استغرق إيجابا في نومٍ عميقٍ .

عندما استيقظ كانت قد مرَّت ثلاثة أيام ، إلَّا أنَّه لم يعرف ذلك . شعر كما لو أنَّه لم ينم سوى ساعة ، قرّر أن يعود إلى بيت بابالاأو . سأقول له إنَّ العصيدة وقعت منِّي وانسكبت . حدّث إيجابا نفسه . أنا متأكد من أنَّه سيصنع من أجلي وجبة أخرى ، إنَّه مخلوقٌ طيِّبٌ .

حاول إيجابا النُّهوض ، لكن النهوض تعذّر عليه . نظر إلى الأسفل ، ورأى أنَّ بطنه منتفخ . في الحقيقة كان بحجم بطنِ امرأةٍ حبلى بتسعة شهور .

بأسرع ما أمكنه ، جرى عائدًا يقطع الجبال الخمسة والأنهار الأربعة الَّتي سبق أن اجتازها . عندما وصل إلى بيت بابالاأو غنَّى :

Babalawo mo wa bebe

بابالاأو ، جئت أتوسَّل إليك

دن دن دن

Alugbirin

Babalawo mo wa bebe

باباالأو ، جئت أتوسّل إليك

دن دن دن

Alugbirin

Oni n mama f'owo b'enu

طلبتَ منّي ألّا أضع يدي في فمي

دن دن دن

Alugbirin

Oni n mama f'ese b'enu

طلبت منّي ألّا أضع قدمي في فمي

دن دن دن

Alugbirin

Ogun to se fun mi l'ekan

الدّواء الّذي صنعته لي في السابق

دن دن دن

Alugbirin

Mo f'owo b'obe mo fi b'enu

لمستُه ووضعت يدي في فمي

دن دن دن

Alugbirin

Mo wa b'oju w'okun O ri tandi

Alugbirin

ثمَّ نظرتُ إلى بطني ، ورأيت أنَّه كبير

دن دن دن

كانت روتيمي تنام دائمًا قبل أن أنهي الأغنية ، فأتوقَّف عندئذٍ عن المتابعة . ما افتتحتُ هذه الحكاية قطُّ بالقول الَّذي درجت أن تبدأ به مومي . صدَّقتها مرَّة ، أقررتُ - مثل زوجَي السَّلاحف - أنَّه لا مجالَ لأنْ يتحقَّق وجود المرء في الدُّنيا بلا ذريَّة . صدّقتُ أنَّ حصولي على أطفالٍ ينادونني بابا سيغيِّر شكل عالمي بحدِّ ذاته ، سيطهرني ، بل حتَّى يمسح من ذاكرتي دفعي لفنمي على الدَّرج . ومع أنَّني رويت الحكاية لروتيمي عدَّة مرَّات ، ما عدت أؤمن أنَّ حصول المرء على طفلٍ يساوي امتلاك العالم .

36

مع أنَّ البرق ضرب البقعة نفسها مرّتين، لم أتصوّر أنّه سيخلّف الدّمار أثناء صحوته في دورته الثّانية الجديدة. اصطحبتُ روتيمي إلى المستشفى من أجل فحوصات النّمط الجيني بعد عيد ميلادها الأوّل، ثمّ تأكّدت مخاوفي عندما أخذتُ النّتائج وأنا في طريق عودتي من العمل بعد يومين. لكن ما لبثتُ أنْ هدأتُ خلال الوقت الّذي استغرقه وصولي إلى البيت. شعرتُ بما يشبه اليقين أنَّ ابنتي ستنجو على الرّغم من رمز «س س» المعلّم بالأحمر في ورقة النّتائج، الرّمز الّذي أصدرَ الحكم عليها بمرض خليّة الدّم المنجلية. ما زلتُ لا أستطيع تفسيرَ من أين جاءني الشّعور بالتّيقن، إلّا أنّه كان هناك، راسخًا كالأرض الّتي وطئتها. غطّت يجيده عينيها بيديها لحظةَ أعلمتُها بالنّتيجة، ما عدا ذلك لم تُظهر أيّ ردٍّ فعلٍ على الخبر. وعندما أصيبتْ روتيمي بنوبة المنجليّة الأولى، رفضَتْ أن تبقى معها في المستشفى.

«أنا؟ أنا عليّ أن أقضي الليلة معها؟ أكين، أنا مرهقة، مرهقة كليًا.» قالت يجيده قبل أن تغادر عنبر المرضى بعد أن أدخلنا روتيمي إلى المستشفى. «أحتاج إلى الرّاحة.»

لُمتُ نفسي على طريقتها في الكلام، كما لو أنَّ أيَّ إمكانية للبهجة عُصِرت منها. راقبتُها تتثاقل خارج العنبر، متسائلًا ما إذا كانت تحتاج إلى ليلةِ نومٍ هانئة، أو أن الإرهاق تحوّل إلى كللٍ دائم!

بعد حوالي ساعتين ، سُمح لي بمجالسة روتيمي . بدت في غاية الصِّغر ، غير متناسقة مع سرير المستشفى الكبير ، وثمّة مصل معلّق بذراعها . تساءلتُ إن كان ذلك كافيًا ، إن كان الأطبّاء يعرفون ما هم فاعلون ، باستخدامهم جهاز تنقيط دواءٍ واحد لمحاربة شيءٍ سبق أن اختطف منّا ابنًا . جلستُ على كرسيٍّ إلى جانب السّرير ، وأبقيتُ يدي على طرف المفرش ، غير متجرئٍ على لمسها .

«مومي؟» قالت بعد فترة وهي ترفع يدها الحرّة . «أمّي أنا؟»

تنحنحتُ وحدّقتُ في عمود السّرير . «أمُّكِ متعبة ، هي نائمة .»

خشيتُ النّظر في عينيها البُنيتَين وأنا أكذب . حتّى ونظري مثبّت على عمود السّرير ، شعرتُ أنَّ الكذب خطأ فادح ، مثل شيءٍ احتجتُ إلى أن يُغفر لي ، تغفره لي طفلة وجهها نُسخة مصغّرة من وجه يجيده . نسخةٌ طبقَ الأصل ، بحيثُ أنَّ النّظر إليها بدا كما لو أنّني أنظر إلى يجيده من خلال عدسةٍ مصغّرةٍ . قسمات وجهها كلُّها تعود إلى يجيده ما عدا أنفها ، كان مفلطحًا وعريضًا ، كأنفي بالضّبط . وقد طربتُ كثيرًا كلّما لاحظ النّاس ، كلّما قالوا هذه الطّفلة ورثت عن أبيها أنفه ، أنف أبيها .

في وقتٍ لاحقٍ من ذلك المساء ، جاء طبيبٌ ليتفقّد روتيمي ، يتبعه طلّاب يحملون ألواحَ ملاحظات . في طفولتي أردتُ أن أصبح طبيبًا ، قبل أن تبلغ يدي اليمنى الطُّول المناسب لتلمس أذني اليسرى ، قبل أن تصبحَ سنّي مناسبة لدخولِ المدرسة . كان ذلك في وقت لم أعرف خلاله أنَّ هناك مهنًا أخرى في الدّنيا ، عندما فكّرت أنَّ الطِّبَّ هو الشّيء الوحيد الّذي يمكن أن يصبح عليه النّاس الّذين يرتادون المدرسة .

بعد أن انتقل الطّبيب وطلّابه إلى مريضٍ آخرَ ، خاطبني أحد الطُّلاب بنبرةٍ خافتةٍ : «أنا أقوم ببحثٍ يا سيدي ، إنّه عن مرض الخليّة

المنجلية ، وسيساعدُ في نصائحَ ما قبل الزَّواج ، ويسعدني إذا وافقتَ على . . .»

أومأتُ برأسي مثل سحليَّة أصابها الجنون ، اختطفتُ ورقة الاستفتاء الَّتي عرضها علي ، متلهفًا لإبعاده عن وجهي . تساءلت عن عدد الاستفتاءات الَّتي اضطرتْ يجيده إلى الإجابة عنها خلال الأيام الَّتي قضتها في المستشفى مع سيسان . كانت الأسئلة المُدرجة متراصَّة في صفحة واحدة ، كأنَّ الطَّالب يحاول توفير مال نسخ الأوراق : مجرد محاولة قراءة الكلمات الواردة أصابتني بالصُّداع .

«يا أبي!»

«نعم ، حبيبتي ، ماذا؟» رحَّبتُ بصرف تركيزي ، ووضعتُ جانبًا ورقة الاستفتاء .

«أُمِّي؟» سألتني بصوت لا يكاد يُسمع ، تنفَّسَت بصعوبة كما لو أنَّ النُّطق بتلك الكلمة الوحيدة استنزف قواها كلّها .

حملتُ يدها ، نظرتُ في عينيها هذه المرّة . «ستأتي أمُّك قريبًا ، قريبًا جدًا ، وبينما ننتظرها سأروي لك حكاية ، إنَّها عن السُّلحفاة إيجابا وزوجته إيانيبو .»

كرّرتُ بداية القصَّة ، عن الزَّوجين اللذين لا ينجبان وعن محاولات الحبل العقيمة . وصفتُ زيارة إيجابا لبابالاأو ، قدر الحساء الَّذي لم يستطع مقاومته ، عودته المخزية إلى بابالاأو بعد أن خرّب الحلَّ الوحيد بيديه . بقيتْ روتيمي مستيقظة عندما أنهيتُ الأغنية ، ولذا أكملتُ الحكاية .

عندما عاد إيجابا إلى بابالاأو ، استعطفَه واستعطفَه .

تدحرج وتدحرج على الأرض ، مستعطفًا بابالاأو ليسامحه ، ملتمسًا فرصةً أخرى .

«لا ، لا أستطيع مساعدتكَ ،» قال بابالاأو .

«ساعدني ، ليس من أجلي . فكِّر في إيانيبو ، زوجتي . ساعدني ، لا ، ساعد زوجتي المسكينة ، ساعدها .»

فكَّر بابالاأو في إيانيبو المسكينة . ومع أنَّ إيجابا فعل شيئًا مروعًا ، وعصى الأوامر ، أشفقَ بابالاأو عليه من أجل إيانيبو المسكينة ، وهكذا أعطاهُ شرابًا . ومباشرة بعد أن كرع إيجابا الشَّراب ، استوى بطنه من جديد .

القصَّة الَّتي اعتادتْ مومي أن ترويها لي لا تنتهي هنا ، إذ على ما يبدو لم يشأ إيجابا وزوجته أن يبقيا السَّيِّد والسَّيِّدة سلحفاة فقط ، فهذا لا يكفي ، ولذلك تستمرّ الحكاية لتروي كيف أنجبت السُّلحفاة الزَّوجة طفلًا ليعيش الجميع بسعادة وهناء إلى أبد الآبدين . لم أكترث بقصِّ هذا الجزء على بنتي ، إنَّه الكذبة الَّتي صدَّقتُها في البداية ؛ أن تنجب يجيده طفلًا ، وبعدها نعيش سعداء إلى الأبد . الكلفة لم تهمّ ، لم يهمّ عدد الأنهار الَّتي علينا أن نعبرها . في نهاية المطاف هناك تلك السَّعادة المديدة الَّتي يُفترض ألَّا تبدأَ إلَّا بعد حصولنا على أطفال ، وليس ولا دقيقة واحدة قبل ذلك .

في تلك المرَّة الأولى قضَت روتيمي أسبوعًا في المستشفى . لم أستطع أن آخذ إلَّا يومَي إجازة من العمل لأجالسها ، غير أنَّني أمضيت الليالي في المستشفى ، أنام على كرسيٍّ خشبيٍّ أمامَ عنبر المرضى ، أحلمُ ثانية للمرة الأولى منذ سنين بفنمي .

لازمتْ فنمي تفكيري منذ أن شُخِّصَت حالة روتيمي . كان من المستحيل ألَّا أتساءل ما إذا كان موت أولاميد وسيسان شكلًا من أشكال العقاب ، أو أنَّ الطِّفلين دفعا ثمن خطيئتي ، وفقًا لبعض معايير ميزان العدالة الكونيَّة ، عن طريق عمليَّة منحرفة من الكارما أو عواقب

عمل شرير. كلّما صحوتُ من كوابيسي عن فنمي ما كففتُ عن التّساؤل ما إذا كانت الأحلام نذير شؤم يخصُّ مصير روتيمي، وما إذا كان ثلاثة أطفال يعادلونَ شخصًا بالغًا في ميزان العدالة الكوني.

تلك الأفكار لم تدمْ قطُّ إلى ما بعد ساعات الظّلام السّابقة على الفجر. كنت قادرًا على تبديدها حالما تبزغ الشّمس، وأنهض لأتفقّد ابنتي. فهذه الطِّفلة ستنجو من النّوبات كلِّها، ستكون الاستثناء لكلِّ القواعد - هذه الطفلةُ ستعيش - لم يداخلني الشّكُّ. لو كانت هناك بالفعل يدٌ كونيّة توزِّع العدالة، لأخذتني أنا بدلًا من الأطفال الأبرياء.

هذا إضافة إلى أنّني لم أنوِ قطُّ قتل فنمي.

ليلة ماتت فنمي، ليلة الاحتفال بتسمية أولاميد، ما أردت إلّا أن أصلَ إلى غرفة نومي من غير أن أتعثّر على الدّرج، لكنّه تموّج أمام عيني بسبب زجاجات الجعة الّتي ابتلعتها. تمسّكتُ بالدّرابزين وأنا أصعد، وخلفي تمامًا كانت فنمي، تتعتعُ في الكلام.

«إذًا كيف حبلَت يجيده؟»

لم اضطر إلى التّفكير قبل أن أردَّ: «كما تحبل النِّساء.»

ضحكَت فنمي. «أتحسبني بلهاء؟ أكاذيبكَ وذلك الهراء الّذي تمارسه في السّرير، أتظنّني لا أعرف؟ ألأنِّي قرّرت ألّا أفضحكَ؟»

تابعتُ صعود الدّرج، ولا أستطيع أن أتذكّر على وجه التّحديد ما إذا فعلتُ ذلك لأنّني كنتُ أشدّ سُكرًا من أن أجيبَ، أو وثقتُ بأنَّ صمتي سيفَسّر بطريقةٍ ما لصالحي.

أتذكّر أنَّ فنمي قبضَت على ساقِ بنطلوني من الخلف، بيد أنَّ هذا لم يضايقني.

«أخبِرني،» تابعَت. «أخبِرني كيف لقضيبٍ لم يسبق أن انتصب

قطُّ أن يخصِّب امرأة؟ ولا تقل لي مجدّدًا أنَّ هذا لا يحدث إلّا وأنت معي ، ما عدت أصدِّق أباطيلك .»

لا أستطيع الجزم مطلقًا ما إذا كانت فنمي تهمس بهذا الكلام أو تصيح به ، لكن في تلك الليلة بدا لي أنّها تجأر بتلك الكلمات ، تهيّأ لي أنَّ وقع صداها يصل إلى غرف البيت كلِّها . كانت قد أفلتت بنطلوني عندما التفتُّ لأسدَّ فمها بيدي . لمسَتْ راحتي وجهها ، غطَّت فمها للحظة عابرة قبل أن تترنّح وتسقط إلى الوراء متدحرجة على الدَّرج .

*

أخيرًا ، عندما أرسلَت مومي تستدعيني ، لم تطلب منِّي أن أراها في البيت . بل طلبت منِّي أن أوافيها إلى كشكها في السُّوق . كان ذلك إهانة مدروسة جيِّدًا . حركة قصَدت بها تذكيري أنَّها لم تدُس مطلقًا عتبة الدُّكان الَّذي ابتعته لها بعد أن غادر دوتون البلاد . لطالما تأفّفت مومي من السُّوق ، كرهَت الأرض لأنَّها زلقة وموحلة خلال موسم المطر ، وصلبة ومتربة في موسم الجفاف ، مقتَت نساء السُّوق اللاتي يتخلّصن من نفاياتهنَّ في الشَّارع ، بغضَت الضَّجيج المتواصل ، والحرارة الَّتي لا تُطاق بسبب التصاق النَّاس ببعضهم وهم يحاولون عبور الطُّرقات الضَّيقة . أغضبها اصطدام يد شخص ما أو حقيبة أو مؤخّرة كبيرة بسلعها يوميًا ، وكيف تسحق الأقدام المستعجلة ما تبيعه من طماطم وفلفل قبل أن تهرع إلى التقاطها وإعادتها إلى الصِّينية . وقبل كلِّ شيء اشمأزّت من الرَّوائح الكريهة . لم تكفَّ قطُّ عن ملاحظتها . خيشومها لم يتكيَّف مطلقًا مع نتن البضائع الكثيرة الفاسدة المحصورة في مكان واحد .

طوال عمرها، حتّى وهي عروس شابّة رفض زوجها أن يعطيها المال من أجل كشكٍ خشبيٍّ، آمنت مومي أنَّ مكانها في العالم يساوي أكثر بكثير من كشكٍ جانبيٍّ عند طرف السُّوق. في سريرتها رأت أنَّ مكانها هو مع النِّساء اللاتي يستطعن بيع سلعهن في دكّان، محميّات من سخونة منطقة السُّوق الشِّريرة. ذلك ما دفعني إلى شراء أكبر دكّان لها في أعلى قسم من السُّوق. مع ذلك، عندما زرتها في «أيسو» وناولتها مفاتيح الدُّكان، رمتها في وجهي.

عندما ظهرتُ في كشكها، تصرَّفت كأنَّها لا تعرفني؛ رفضَت الردَّ على تحيتي، بقيتُ جالسًا على مقعدٍ خشبيٍّ خلال نصف السّاعة التّالية التي قضتها وهي تلبِّي حاجات الزّبائن.

بدا لي أنَّها أصبحت مستعدَّة للكلام معي عندما سحبَت قطعة نايلون شفّافة فوق صواني الطّماطم والفلفل. ثمّ جلسَت على مقعدٍ خشبيٍّ، أبعدَ ما يمكن أن يكون عنّي من غير أن تحطَّ مؤخرتها على الهواء. رحّبَت بي بالكلمات الوحيدة الّتي تنازلت وقالتها لي منذ أن طلبَتْ منّي أن أقطعَ رجليها إذا عادت ودخلَت بيتي. «أين ابني؟ متى يعود دوتون؟»

على الرَّغم من أنَّني أخبرتها أنَّ دوتون في أستراليا، وهو بخير ويتدبَّر أموره جيّدًا أيضًا، في حال صدَّقنا رسائله، تصرَّفَتْ كما لو أنَّني قد حبسته في قبو؛ لمجرد أن أجعل حياتها بائسة. تعلَّمتُ بالطّريقة الصَّعبة أن ليس هناك أسلوب جيّد للإجابة عن أسئلتها. الأجوبة كلُّها الّتي جرَّبتها عملَت فقط على تأجيج نيران غضبها. تجاهلُ أسئلتها كان أفضلَ شيءٍ أفعله، أسهلُ شيءٍ أفعله.

«لماذا لم تطلبي منّي أن أقابلكِ في البيت؟ ما يمكن أن نتحدَّث عنه هنا في السُّوق؟»

«لماذا؟ أكين يسألني لماذا . سأقول لكَ لماذا ، جئتُ إلى هنا لأبيعَ بضاعتي لأنّني لا أريد أن آكل الحشيش والرّمل . تعرف أن هذا ما يأكله النّاس عندما لا يملكون المال؟ أشكرُ الرّبَّ على أختك .» رفعت رأسها لتنظرَ إلى السّماء . «يا خالقي ، أشكركَ على أرينولا ، إنّها تتذكّر دائمًا أمّها العجوز المسكينة . لو أنّي لم أنجب إلّا دوتون وهذا الّذي هنا ، لكنتُ الآن أسلق الرّمل من أجل الفطور .»

تنهّدتُ . «مومي أهذا ما استدعيتني إلى هنا لنناقشه؟»

«وماذا لو؟ إن كان هذا ما أريد قوله أتنوي المغادرة؟ لن أدهَش إذا فعلتَ ، لا معنى لكلامي الآن بالنسبة إليك .»

«مومي ، ماذا تريدين؟»

تكتّفَت . «مارسْ أيَّ سحر يحلو لكَ ، استمرَّ في خداعي . أنت ابن أبيك ، فأنت أيضًا قادر على اختلاق أكاذيب تكفي لإيقاظ الموتى .»

«لماذا تريدين رؤيتي؟»

«لماذا تصيح؟ أهكذا تخاطب أُمّك؟ مثل طفلٍ لم يتلقَّ تربية في بيت؟»

أخذتُ نفسًا عميقًا . «أنا آسف ماما ، لا تغضبي ، رجاءً .»

«كيف حال زوجتكَ؟ «

«بخير .»

«ألم تعبأ بإرسال سلامها لي؟ أوصَلَ الأمر إلى هذا الحدِّ الآن؟ أتعلم أنّها لم تزرني لأكثر من سنة؟ ونحن نعيش في البلدة نفسها ، هذه البلدة نفسها .»

«كانت مشغولة بعملها . هي أيضًا لا تريد أكل الحشيش والرّمل .»

«أتظنُّ أنّك مضحك؟ على أيِّ حال ، أخبرتني أرينولا أن روتيمي أُدخِلَت إلى المستشفى . كيف حالها الآن؟»

«لقد أُخرِجَت من المستشفى .»

«أممم ، ليحرسها القدير .» قالت هذه العبارة بلا أيِّ عاطفة ، كما لو أنَّها دعت لشخصٍ لا تعرفه ، أو لا تهتمُّ لأمره .

حدَّقتُ في عابري السَّبيل ، ولذا لم اضطر إلى النَّظر إليها .

«آمين .»

نخرَت ثمَّ تنهَّدت . أدركتُ أنَّني لن أحبَّ أيًا مما تنوي قوله . كنتُ مُلمًا بحركة النَّخر والتَّنهُّد تلك ، كانت تكتيك الشَّيخوخة ، حركة تقوم بها لتحصِّن نفسها وهي تهمُّ بطرحِ اقتراحاتٍ سأمانع في الرُّضوخِ لها .

«لماذا تنأى عنِّي بنظركَ؟» قالت . «انظرْ إليَّ ، انظر إلى وجهي . سبب طلبي منكَ أن تأتي وتراني ، حتَّى مع أنَّك ربَّما قتلتَ ابني بقدر ما أعرف . . .» نخرَت . «هو أنَّه إذا رأى العالم كيف بدأتْ حياتكَ تبدو مثل ممتلكات رجلٍ مجنون ، سيقول هذا ابن أموبي الَّذي تتمزَّق حياته كما تتمزَّق خرقةٌ بالية . وبالتَّالي لا أستطيع السُّكوت حتَّى لو قلتَ إنَّ رائحة فمي كريهة ، سأفصحُ عمَّا لدي . أيمكن أن تسمعني؟»

«أنا أسمعكِ ماما .»

«أترى ، يبدو أنَّه مقدَّر على زوجتك أن تنجبَ أطفالَ أبيكو . أنت يا هذا الفتى ، لا تدوِّر عينيك الآن أمامي - أتعتقد أنَّني لا أراكَ؟ تظنُّ أنَّني أصبحت عمياء؟» صفعَت ظاهر يدي . «لو عشتَ لتبلغَ ألف سنة ، لن تكون كبيرًا إلى درجةٍ أن تنظرَ إليّ هكذا ، في حين أنَّ كلَّ ما أقوله هو من أجل مصلحتكَ! في حين أنَّ كلَّ ما فعلتُه منذ أن ولدتكَ هو من أجل مصلحتك!»

«مومي ، ماذا تريدين منِّي الآن؟ رجاءً أنهي ما أنتِ بصدده .»

«هناك تلك البنت ، ربَّما أنتَ تعرفها .» هزَّت رأسها ، «لا ، إنَّها

لا تقاربك في السِّنِّ أبدًا ، لا يمكن أن تعرفها . أنهَت مؤخَّرًا مرحلة الدِّراسة الثَّانوية ، بنتٌ طيِّبة ، ما زالت مغمضة العينين ، كما تعلم ، ليس مثل بنات هذه الأيام .»

«و؟» شعرتُ بنبضٍ في جبيني ، يشبه باكورة صداع خبيث .

«الربُّ يفعل ما يريد - مَن يدري ، ربَّما تكون هذه البنت قادرة على إنجاب أطفال لكَ . أطفالٌ يعيشون . أنا لا أقول إنَّ يجيده إنسانة سيِّئة ، لكنَّك لا تستطيع محاربة القدر . والطَّريقة الَّتي جرت بها الأمور منذ أن تزوَّجتَ تلك المرأة يجيده ، تجعلني لا أعتقد أنَّه مقدَّر لها أن تنجبَ أطفالًا في هذا العالم . أوه ، لقد حاولَت بجهد ، وحتَّى الأعمى يمكن أن يرى كم حاولَت بجهد ، لكن قلَّة من النَّاس فقط تستطيع الفوز بمعركةٍ مع قدَرها . لقد عشتُ مدة طويلة كافية لأعرف ذلك .»

«تريدين منِّي أن أتزوَّجَ هذه البنت الَّتي ذَكَرتِها؟» أشحتُ بوجهي عنها . رأيتُ عبر الشَّارع رجلًا يلصق إعلانات الحملة الانتخابيَّة على أعمدة الإنارة .

«ألا تريد أن تُرزق بأطفال في حياتكَ؟ ماذا ستفعل إذا ماتت روتيمي؟»

«روتيمي ستعيش!» لم أكن أحاول إقناعها ، أنا صدَّقت هذا كأنَّه حقيقة حتمية . الشمس تبزغ من المشرق ، أربعة زائد أربعة يساوي ثمانية ، وروتيمي ستعيش .

«أترى ، حتَّى لو عاشت روتيمي ، طفل واحد فقط؟ طوال حياتك؟ طفل واحد؟»

«تريدينني أن أتزوَّج امرأة أخرى ثانية؟» ابتعد الرَّجل الَّذي في الطَّرف الآخر من الشَّارع عن عمود الإنارة ، تفحَّص الإعلان الأخضر

وأومأَ برأسه ، ثمَّ انتقل إلى العمود التَّالي . الإعلان الَّذي ألصقه كان أخضر وأبيض ، ومن حيث جلستُ ، تبيَّنتُ كلمة «أمل ٩٣» .

«إنَّه ليس بالإكراه . إذا كنتَ لا تريد الاقتران بها ، يمكننا ترتيب شيء ما . نجعلها تحبل فحسب .» صفعَت ظاهر إحدى يديها براحة اليد الأخرى . «الحصافة لا يمكن أن تصبح نادرة جدًا في هذه الدُّنيا ، إلى درجة أنَّنا قد نصعد إلى السَّماء قبل أن نعثر على شيءٍ منها .»

«لا ، ثمّ لا ، مومي . قطعًا لا .»

«لا تستعجل في قول لا ، أعرف أنَّك تفكِّر في ما جرى لفنمي ، لكن . . .»

عندما ذكرَتْ اسم فنمي ، ما عدتُ أسمع ما تتفوه به ، وما عدت أرى سوى فمها وهو يتحرَّك .

طرقَت بيدها على كتفي . «أكين؟ ألا تسمعني؟ ألن تقول شيئًا؟»

ضغطتُ جبهتي بيد واحدة ، ونقرتُ بقدمي مع إيقاع الخفقان في رأسي . «مومي ، كما لو أنَّك لم تحطمي حياتي بما فيه الكفاية .»

فغرَت فمها . «أكينيل ، أيُّ هراءٍ هذا الَّذي تقوله؟»

«لا تتدخَّلي في هذه المسألة أكثر مما فعلتِ . أتسمعينني؟»

«هل أنتَ مريض؟ ما قلتُه هو . . .!»

وقفتُ . «لا تطلبي رؤيتي من أجل هذا النَّوع من النِّقاش مجدَّدًا . أبدًا وإلى الأبد .»

«أنا؟ ماذا؟ أتجهل مع من تتحدَّث؟ أكين؟ أكينيل؟ أتنصرف يا أكين؟ عُد إلى هنا . أكين ، ما زلتُ أخاطبكَ . ألستَ مَن أناديه؟ انظروا إلى هذا الصَّبي . أكينيل!»

لم ألتفِت إلى الوراء .

37

في المرّات القليلة الّتي حدّثني أبي خلالها عن حبّه لأمّي ، اعتاد أن ينهي حديثه بقوله : بجيده ، الحبُّ يشبه الامتحان . استخدم هذه العبارة كما لو أنّها الفقرة الوحيدة الّتي تستحقّ الذّكرَ من كلّ ما قاله . وقد ولّد لدي الانطباع بأنّه اعتبرها الدّرس الّذي تعلّمه من حياة أمّي وموتها ، الحكمة الّتي عليه أن يمرّرها لي : بجيده ، الحبُّ يشبه الامتحان . ما فهمت قطُّ جيّدًا ما يُفترض أن يكون مضمون ذلك القول . ولم أعبأ بالاستفسار لأنّني خشيتُ أن يحتوي تفسير أبي على وصفه المعتاد لصعوبة ما عانته أُمّي بسببي . وفي فترة مراهقتي نجحتُ في تجاهل وصفه المرعب لكميّة الدّم التي نزفتها ، لكنّني لم أتغلّب مطلقًا على طريقة نظره إليّ عندما يتحدّث عن موتها ، كما لو أنّه يقيّمني ، محاولًا أن يقرّر ما إذا كنتُ أساوي ما فقدَه .

على مرِّ السّنين سأسمع هذا القول عدّة مرات من أناس آخرين ، ومع ذلك ما زلت لا أستوعب أبدًا ما يعنون تمامًا في كلِّ مرّة . الحبُّ يشبه الامتحان إذًا ، لكن بأيِّ معنى؟ وإلى أيِّ حدٍّ؟ ومَن يُشرف على الامتحان؟ في الوقت نفسه آمنت أنَّ في الحبِّ طاقة هائلة قادرة على استخراج جماع ما هو جيّد فينا ، يُنقّينا ويكشف لنا نسخنا الأفضل . وعلى الرّغم من إدراكي أنّ أكين استغلّ سذاجتي ، ظللتُ لفترةٍ أعتقدُ أنّه أحبّني وأنّ الشّيء الوحيد الّذي بقي له ليفعله هو القيام بالشّيء الصّحيح ، الشّيء الجيّد . رأيتُ أنّها مسألة وقتٍ قبل أن ينظر في عيني

مباشرة ويعتذر .

لذا ، انتظرتُ أن يأتي إلي .

عندما جاء دوتون إلى غرفة نومي أنا وأكين ، بعد أن شُخِّصت حالة سيسان وتبيَّن أنَّه مصاب بمرض خليَّة الدَّم المنجلية ، وأخبرني أنه آسف ؛ لأنَّ أكين لم يجد علاجًا لعجزه الجنسيِّ ، بدا واضحًا أن دوتون ظنَّني على دراية بأنَّ نصف سفرات أكين إلى «لاغوس» كانت ليرى طبيب المسالِكِ البوليَّة في مستشفى الجامعة التَّعليمي . والحقيقة هي أنَّني لم أعرف شيئًا عن موضوع أخصائيِّ المسالك البوليَّة ، والعقاقير الَّتي وُصفت له ، أو الإجراءات الَّتي مرَّ بها ، لكن في تلك الليلة ، لأنَّ المرء يضحك ويتظاهر باستيعاب الطُّرفة عندما تسخر الحياة منه ، ما فتئتُ أومئ برأسي لدوتون ، وبذلتُ جهدي لأتصرَّف كما لو أنَّني على تلك الدَّرجة من الذَّكاء لتخمين الأشياء وحدي . وقبل أن يخرج دوتون من غرفة نومنا ، تأكَّدَ لي أنَّه هو أيضًا أدرك أن زواجي بُنِي على كذبة .

على الرَّغم من ذلك كلِّه كنتُ مقتنعة بأنَّ أكين أحبَّني ، ولأنَّه يفترض بالحبِّ أن يكون الامتحان الَّذي يُظهِر أفضل ما فينا ، قلت لنفسي إنَّ زوجي لن يلبث أنْ يأتي إليَّ ويبرِّر نفسه . حوَّلتُ طاقتي إلى إبقاء ابني على قيد الحياة ، لكنَّني ، انتظرتُ ، طوال الوقت ، قدوم أكين إلَي .

بعد أن ضبطني في السَّرير مع شقيقه ، أيقنتُ من أن أكين سيواجهني ، يعتذر ، يشاركني معاناته الَّتي نجح في إبقائها مخفيَّة عنِّي ، ويتوسَّل إليَّ لأبقى معه . كان من الصَّعب قبول عزمه على الاستمرار في الخداع طوال حياتنا . وحتَّى بعد أنْ هجرْتُ غرفة نومنا ، وأحجمتُ عن مخاطبته ، كنتُ واثقة من أنَّني أعرفُ من هو حقَّ

المعرفة ، وآمنت أنَّ ذاك الرَّجل الَّذي أعرف ما زال هناك تحت قناع المكر والتَّظاهر . الرَّجل الَّذي تراءى لي أنَّني أعرفه ليس من معدنٍ شخص قد يتركني أذهب إلى قبري ، وهو ما زال يستمرئ خداعي .

في وقتٍ ما أثناء الأسابيع السَّابقة على نوبة المنجلية الأولى الَّتي أصابت روتيمي ، توصَّلت إلى قناعة بأنَّ أكين قد يقضي بقية حياتنا ، وهو يكذب عليّ في حال وجد طريقة للإفلات . وبينما قدتُ سيارتي خارج مستشفى نقابة ويزلي بعد دخول روتيمي إليها لأوَّل مرَّة ، تساءلتُ كيف تجرَّأ أكين على أنْ يطلب منِّي ملازمتها في عنبر المرضى . ألم يرَ أنَّني تعبتُ من كلِّ أولئك الأطباء وهم يستعرضون الأخبار السَّيئة ، الأخبار الجيدة ، الصَّمت المتجهِّم ، الضَّمانات ، ويدٌ على الكتف للإدلاء بمزيد من الأخبار الجيِّدة ، الأخبار السَّيِّئة؟ وأنا ابتداءً من أولاميد وسيسان إلى روتيمي ، عُلِّقتُ عند حافة منحدر ، وأصبحت الآن مرهقة جدًا بحيث ما أردتُ إلَّا أنْ أُسقط .

حينما أخرِجَتْ روتيمي من المستشفى وعادا معًا إلى البيت ، اختلفَتْ نظرتي إلى أكين . لم أرَه ذلك الشَّخص الَّذي تغيَّر ، لكن رأيتُ فيه رجلًا لم أعرفه قطُّ . شككتُ في الحبِّ الَّذي كنتُ متأكِّدة منه أيما تأكُّد ، واستنتجت أنَّه تزوَّجني لأنَّه رأى أنَّني ساذجة .

قبل أسبوع من الانتخابات الرِّئاسيَّة ، قرَّرتُ أنَّ الوقت قد حان لمواجهته . كان في غرفة الجلوس مع روتيمي ، يتفرَّج على مناظرة المرشَّحين في التِّلفزيون . لم أرَ سببًا وجيهًا لأنتظرَ نهاية المناظرة قبل أن أبدأَ الكلام ؛ فأنا في النِّهاية قضيتُ ما يقاربَ ثلاث سنوات أنتظرُ أن يأتيَ إليَّ . من وجهةِ نظرٍ ما ، شعرتُ أنَّ علَيَّ مباغتته بالهجوم عندما لا يتوقَّعه ، بحيثُ لا أفسح له مجالًا للمراوغة . جلستُ على أريكةٍ قبالته تمامًا ، لأنَّها كانت موقعًا ممتازًا . أردتُ أن أراقب الانفعالات الَّتي

تظهرُ على وجهه ، وأحكمُ على ردود فعله تجاه كميني .

«حسنًا أكين ، أصحيحٌ أنَّك لا . . .؟ أنَّك لا . . .؟ هل أنت عاجزٌ جنسيًا؟»

أتمنَّى لو أستطيع القول إنَّه احترمني بالقدر الذي يجعله يجيب عن سؤالي مباشرة عندما واجهته أخيرًا . ابتسم ورجِعَ بظهره إلى الوراء على مقعده إلى أن أصبحَ يحملق في السَّقف . لم يقلْ شيئًا لوقت طويل .

انتظرتُ ، راقبتُ بينما تسلَّقت روتيمي إلى حضنه . في التِّلفزيون كان رئيس الجلسة يتحدَّث عن أثر تعديل السِّياسة الهيكليَّة الخاصَّة بـصندوقِ النَّقد الدُّوليِّ على المجتمع النَّيجيري .

«متى أخبركِ دوتون؟» سألني أكين أخيرًا ، وهو يدني روتيمي منه .

«تمامًا قبل أن يخبرني أنَّكَ طلبتَ منه إغوائي .»

لم يخرج أيُّ بخارٍ من كلماتنا ونحن نتحدَّث ؛ لا عاطفة ، لا حرارة . كما لو أنَّنا نتحدَّث عن المطر الَّذي انهمر طوال الصَّباح . وبينما وضع أكين إحدى رجليه فوق الأخرى ثمَّ أعادها ، فكَّرتُ في الدَّرب الَّتي مشيناها إلى أن وصلنا إلى تلك النُّقطة الَّتي نجلس فيها متقابلَين في غرفة جلوسنا ، ونناقش عجزه لأوَّل مرَّة من غير إظهار الكثير من التَّعاطف .

فكَّرت في فنمي ، تذكَّرت كيف كان أكين واثقًا جدًا من أنَّني لست حبلى ، حتَّى قبل أن يخبرني الأطباء أنَّه حملٌ كاذبٌ .

قرص أكين أنفه . «ما تنوين أن تفعليه الآن؟»

شبه ابتسمتُ ، لم يتغير فيه شيء كثير . رأيت أنَّه من المريح تقريبًا اكتشاف أنَّه ما زال يتفادى الحقيقة بالرَّدِّ على الاستفسارات بأسئلته الخاصَّة .

«لم تجب عن سؤالي ،» قلتُ . «أهذا صحيحٌ يا أكين؟»

حجب وجهه بكلتا يديه كأنّه ما عاد قادرًا على تحمّل نظرتي . ولم أتأثّر لأنَّ رغبتي في سماعه يعترف استنزفتني .

«أكينيل ، لماذا تغطّي وجهك؟ انظر إليّ وأجب عن سؤالي .»

لم تتملّكني أيُّ شفقة عليه ، وهو ينزل يديه من على وجهه ويلفّهما حول رقبته كأنّه أراد أن يخنق نفسه . وكيف لي أن أشفق؟ هو في نهاية المطاف نظر في عيني مباشرة خلال سنة زواجنا الأولى ، عندما قال إنَّ كلَّ قضيب مختلف عن الآخر ، أخبرني أنَّ هناك أنواعًا تنتصب ، وأخرى لا تنتصب أبدًا . قال ذلك بطريقة عرضيّة ، دسّه في حديثه بحيثُ بدا أنّه أحد الأمور الّتي يقولها الرِّجال لزوجاتهم العذارى عن الجنس . أدهشني عدم اضطراره إلى الكذب كي يخدعني .

«يجيده لماذا تطلبين منّي أن أخبركِ ما تعرفينه؟»

وماذا عرفتُ؟ عرفت أنّه استثمر أكاذيبه فيّ ، بقدر ما استثمرها في نفسه ، ويُحتمل أنّها طالتني أكثر ممّا طالته . أتخيّل أنّه ، على الأقلّ ، اعترف لنفسه بالحقيقة . لم أستطع مجابهته إلّا بعد أن نطق دوتون الكلمات . كان يفترض أن يكون أكين حبَّ حياتي . قبل أن أنجب أطفالًا ، اعتبرتُه خلاصي من كوني وحيدة في العالم ، رفضتُ أن يؤخذ عليه أيُّ مأخذ . ولذا عضضتُ لساني كلّما تحدّثت زبوناتي عن الجنس ، وتركته يمسك يدي عندما أخبر الطّبيب أنَّ حياتنا الجنسية طبيعية جدًا. قلت لنفسي إنّني أحترم زوجي ، أقنعتُ نفسي أنَّ صمتي يعني أنّني زوجة صالحة ، لكن أكبر الأكاذيب هي غالبًا الأكاذيب الّتي نقنع أنفسنا بها . عضضتُ لساني ؛ لأنّني رفضتُ أن أطرح الأسئلة . لم أطرح أسئلة لأنّني رفضت الاطّلاع على الأجوبة .

كان من الأسهل علَي الإيمان بأنَّ زوجي جدير بالثِّقة ؛ أحيانًا الإيمان بشيءٍ أسهل بكثير من الشَّك .

«أنا آسف ،» قال وهو يربّت رأس روتيمي .

أدركتُ آنذاك أنَّه لن يمنحني أجوبة مباشرة ، ولا حتَّى إذا سلطتُ مدية على حنجرته .

«وهل خدعتَ فنمي أيضًا؟» سألتُه .

هزَّ رأسه . «هي لم تكن مثلكِ .»

تنهَّدتُ . «تعني أنَّها لم تكن غبية؟»

«أعني فقط أنَّها لم تكن عذراء .»

لم يبقَ لدي ما أقوله له ، لذا قمتُ وغادرتُ الغرفة . ولم يعبأ ولا حتَّى أن يطلب منِّي كتمان سرِّه ، كان واثقًا من أنِّي سأفعل .

*

الحماسة السَّابقة على الانتخابات الَّتي طغت على البلاد أصابتني عدواها على الرَّغم منِّي . في الأيام المؤدية إلى الانتخابات وجدتُ نفسي أدندن مع أناشيد الحملة . أقنعَتني إيا بولو بالتَّسجيل للتصويت ، وتملَّكني شعور غير مألوف بالقوَّة مع اقتراب موعد الانتخابات .

وصلَت إيا بولو إلى بيتنا في السَّابعة من صباح يوم السَّبت الَّذي ذهبنا فيه للاقتراع . بالكاد جلسَتْ بلا حراك ، ولم تكفَّ عن الإلحاح عليَّ لأستعجلَ كي نصل إلى مركز الاقتراع قبل الثَّامنة . قبلَنا توجّه أكين إلى الدَّوّار ليصوّت ؛ سجّل اسمه هناك بما أنَّ الدَّوّار قريب من مكتبه . حوالي الثَّامنة والنِّصف ربطتُ روتيمي إلى ظهري وانطلقنا .

حينما وصلتُ أنا وإيا بولو إلى مركز الاقتراع، رأينا مئات النَّاس الَّذين سبقونا إلى هناك. وبعد أن أدلينا بأصواتنا جلسنا في ظلِّ شجرة مانغا، وتحدَّثنا عن زفاف ابنة أخيها القادم، بينما انتظرنا إعلان مركز الاقتراع النَّتائج. كانت مراسم الاحتفال بالزَّفاف ستجري بعد أسبوعين، لكنَّنا خطَّطنا السَّفر إلى «بوتشي» قبل الزَّفاف ببضعة أيام. أرادت إيا بولو أن تكونَ على الأرض لمساعدة عائلة أخيها بالتَّحضير للمناسبة.

عندما أعلن النَّتائجَ من المركز مسؤولٌ انتخابيٌّ تحجبُ النَّظَّارات نصف وجهه، لعلعت عاصفة من التَّصفيق، وعدد من النَّاس صاح «هنيئـــــــًا لـــكِ نـــيجيريا». انغمستُ في الغبطة المؤقتة، وصافحتُ الغرباء كما لو أنَّنا نجونا معًا من رحلة طويلة وشاقة.

*

يوم قرَّرتُ الذَّهاب إلى «بوتشي»، ألبستُ روتيمي ثوبًا أرجوانيًا بلا أكمام بينما شُغِل أكين بتفقّد السَّيارة في الأسفل. كان في إجازته السَّنويَّة وقرَّر الذَّهاب إلى «لاغوس» ليومين. لم أسأله عن هدفِه من الرِّحلة - لمْ أرغب في أن أعرف. كان ثوب روتيمي شيئًا ابتاعه أكين لأنَّه ظنَّ أنَّني قد أقيم لها حفلة في عيد ميلادها. طبعًا لم تكن هناك أيُّ حفلة، لكن روتيمي أحبَّت الثَّوب، وكلَّما لبسته مرَّرت راحتيها على صدريته المخرَّمة، وابتسمَت.

استغرق تحضيرها في ذلك الصَّباح وقتًا أطول من المعتاد؛ كانت نزقة لأنَّني أيقظتها باكرًا كي نغادر البيت قبل السَّادسة. بعد أن أقنعتُها بانتعال حذائها، جلستُ إلى طاولة الزِّينة، ووضعتُ مسحوق البودرة

على وجهي . بعد انتهائي وضعتُ طبقة خفيفة من ذرور الأطفال على جبهتها ، فحافظَت على وجهها ثابتًا ، بينما فركتُ بشرتها . ثمَّ جلستُ على مقعد واطئ ، وطليتُ شفتَي بأحمر شفاه ورديٍّ . وحينما أمعنتُ النَّظر في المرآة لأتأكَّدَ من أنَّني لم ألطِّخ أسناني ، مالت روتيمي نحوي وضغطَت إبهامًا على شفَتِي العليا . راقبتُها وهي تمدُّ يدها نحو فمها ، متوقِّعة منها أن تمصَّ إبهامها ، لكن بدلًا من ذلك تتبعَت شفتَها السُّفلى مقلِّدةً طريقتي في وضع أحمر الشِّفاه .

«أنتِ طفلةٌ ذكيَّة ، أليس كذلك؟» قلتُ .

لمسَت فمي لتحصل على مزيدٍ من أحمر الشِّفاه ، إصبعها ناعم على شفَتِي السُّفلى ، ضغطه بخفَّة الريشة . عندما انتهت من تلطيخ شفتيها بإبهامها ، وضعتُها على ركبتي لتنظرَ في المرآة ، لكنَّها لم تكد تنظر إليها . تلوَّت إلى أن أصبحَت قبالتي ، ثمَّ مالت برأسها تارة هنا وتارة هناك تحت نظرتي ، كأنَّني كنتُ المرآة الوحيدة الَّتي تهمّها .

«أنتِ الأجمل ،» قلت للطفلة الوحيدة الَّتي لم أروِ لها قطُّ أيَّ حكاية . حكاياتي وأناشيدي بدت عديمة الفائدة في وجه المرض الَّذي تتصارع معه ، ولذا ما تكلَّفتُ يومًا عناء قصِّ أيِّ شيء عليها . لم أرد أن أسردَ لها حكايات ، أردت أن أشفيها ، أنقذها . وبينما هي تضغط شفتيها معًا كما رأتني أفعلُ قبل لحظات ، نهشتني رغبة جامحة لأضمَّها بقوَّة إلى أن تعودَ بطريقة ما إلى رحمي ، من حيثُ يمكنها أن تنبثق مرَّة أخرى بنمطٍ جيني جديد ، حرّة إلى الأبد من تهديد الوجع والمرض المتواصلين .

لم أدرك إلَّا بعد أن تعالى أنين روتيمي أنَّني كنتُ أطوق كتفيها بشدّة وأنا ألهث . أفلتُّها . لهذا لم أسمح لنفسي أن أبقى وحدي معها في أغلب الأوقات ؛ بسبب الأفكار الَّتي دفعتني من أعلى المنحدر نحو

هوّة بلا قعر حيثُ تخبّطتُ وأنا أسقط . قاومتُ الرّغبة الملحّة في وضع رأسي على طاولة الزّينة والاستسلام للبكاء ، أخذتُ نفسًا عميقًا ، ورتبتُ السّلسلة الذّهبية حول رقبة ابنتي .

حملتُ روتيمي على ركبتي ونحن نقود السّيارة إلى العقار القديم حيثُ درجنا أن نقيمَ لنصطحبَ إيا بولو . كانت تنتظرنا في الشّرفة مع حقيبة السّفر .

«أترين بيتكِ السّابق؟» قالت وهي تستقرُّ في السّيارة . «العائلة الجديدة الّتي انتقلت إليه أفسدته . أترين كيف يتقشّر الطّلاء؟ لا يبالون حتّى بإعادة طلائه . والرّجل ، صدّقيني ، هو كلبٌ شبق .»

قاد أكين السّيارة إلى «أومي آسوروا» لاصطحاب ليندا ، سكرتيرته . هي أيضًا كانت ستسافر إلى لاغوس في ذلك الصّباح ، وعرض عليها أن يأخذها معه . لمّا وصلنا إلى بيت ليندا ، أطلّت برأسها من نافذة ، وقالت إنّها ستخرج في غضون خمس دقائق . وبينما لبثنا ننتظر ، عبثَ أكين بمذياع السّيارة ، محاولًا الحصول على محطةٍ تُذيع الأخبار . كانت قد مرّت تسعة أيام بعد الانتخابات ، ولم يُعلَن عن أيٍّ فائزٍ بعد .

«أتبحثُ عن تحديثات بخصوص مسألة الانتخابات هذه؟» قالت إيا بولو لأكين . «كأنها مسرحية ، كأنها مسرحية ، مرَّ أسبوعان الآن تقريبًا . وهذا يوم اثنين آخر ، كيف يحقُّ للمحكمة أن تصدرَ أمرًا بعدم إطلاق النّتائج؟ لماذا؟»

«لا تأبهي بهم ، ليس للمحكمة شأن بهذه القضيّة وذاك القاضي يعلم ، فقط محكمة الانتخابات الرّئاسيّة هي صاحبة السّلطة القضائيّة .»

«نعم ، هؤلاء العسكر لا يريدون التّخلّي عن السّلطة ، صح؟»

«لكن أنا واثق من أنَّ الجيش سيسلّم مع ذلك ،» أجاب أكين .

«صُرِف مالٌ كثير على هذا الانتقال، فهل سنرميه كلَّه في البالوعة؟»

«فلتحلَّ علينا رحمة الرَّب،» تنهَّدت إيا بولو. «أيُعقل أنْ يكبرَ أطفالنا في ظلِّ حكومة عسكريَّة؟»

عطستُ عندما دخلت ليندا السَّيارة. بدا كأنَّها في ذلك الصَّباح أفرغَت على نفسها زجاجتين من أيٍّ من العطور الَّتي تضعها. أطفأ أكين مكيّف الهواء، وفتح نافذته.

سلّمتُ روتيني إلى ليندا عندما وصلنا إلى موقف الآليات.

«ألن تجلبي روتيمي معكِ؟» استفسرَت إيا بولو، وهي تصفقُ باب السَّيارة وتعدِّل دثارها.

هززتُ رأسي نفيًا وانتظرتُ ريثما فتح أكين الصُّندوق. أخرج حقيبة سفري، وقاد الطَّريق إلى السَّقيفة الخشبيَّة حيثُ تقف الحافلات. كان هناك سبعة مسافرين في الحافلة المتجهة إلى «بوتشي».

ناول أكين السَّائق حقيبتي، ثمَّ دار حول الحافلة متفحِّصًا إطاراتها، وألقى نظرة على المقود والدَّواسات وناقل السُّرعة. هو شيء قام به دائمًا كلَّما أنزلني عند موقف الآليات. اعتبرتُ ذلك مسليًا عندما كنَّا نتواعد، لكن في ذلك الصَّباح تساءلتُ عن دوافعه الحقيقية. فأنا أصبحتُ أنظرُ إلى أبسطِ تصرفاته بعين الشَّكّ، متسائلة إن كان هناك مكرٌ عظيمٌ يحفِّزها.

«سأكون أنا وليندا في طريقنا الآن،» قال حينما صعدْتُ إلى الحافلة.

«سفرة آمنة،» قلتُ وأنا أتزحزح قليلًا كي تستقرَّ إيا بولو إلى جانبي. كنتُ أنا وأكين نتصرّف بلباقة ونحن في العلن أمامَ النَّاس، وأحيانًا نبذل ما في وسعنا لنبدو ودودَين. *telegram @ktabpdf*

«سأتّصل بكِ لاحقًا الليلة ،» قال . «إيا بولو ، قلتِ أنْ لا بأس إذا اتصلتُ ببيت أخيكِ بعد السّابعة مساءً؟»

«نعم ، لا مشكلة في ذلك . ما عليك إلّا أن تخبرَ الخادمة مع من تريد التّحدّث .»

«حسنًا إذًا ، سفرة موفقة .»

38

«هل ستنضمّ إليكما السّيِّدة لاحقًا يا سيدي؟» حكمَت عليَ عينا موظف الاستقبال بأنّني لستُ كفؤًا للاعتناء بروتيمي من دون مساعدة امرأة .

«أيمكن أن تطلبَ من خدمة الغرف إرسال زجاجة نبيذ إلى غرفتنا؟» قلتُ . فقد قضيتُ ساعات في زحمة المرور بعد دخولي «لاغوس» ظهرًا تقريبًا ، لكنّني وصلتُ في الوقت المناسب لموعدي مع أخصائيٍّ الأمراض البوليّة في مستشفى جامعة «لاغوس» التّعليمي ، لِأعلَم فقط أنّ الطّبيب مريض ، ولن يعود إلى العمل قبل يوم الخميس . لم أكن في مزاجٍ يسمح لي بملاطفة موظف الاستقبال بأيٍّ ردّ .

أومأ برأسه ، ورفع سماعة الهاتف .

غيّرتُ حفاضة روتيمي بعد أن أصبحنا في غرفتنا . وبينما كنتُ أنقعُ الملوّثة في مغسلة الحمام سجّلتُ في رأسي ملاحظة لأسأل يجيده هل حان الوقت لتدريب روتيمي على استعمال النُّونيّة .

لم أنزل إلى المطعم للعشاء ، وأمرتُ بجلب بعض الأرز إلى الغرفة . رفضَت روتيمي تناول شيء ، واستمرّت تحاول انتزاع الملعقة من يدي . وقبل أن أستسلمَ وأعطيها الملعقة ، كانت قد ألقت قطعة لحم على الأرضيّة بغضب . شغّلتُ التّلفزيون بعد أن نظّفَت خدمة الغرف الفوضى الّتي سبّبتها روتيمي ، ذرعتُ الأرضيّة ذهابًا وإيابًا ،

وتجادلت مع التِّلفزيون بخصوص «ماذا بحقّ الجحيم يجري في البلاد» . ضحكَت روتيمي في السَّرير ، وصفَّقَت كما لو أنَّني أقدِّم لها عرضًا . بعد ساعةٍ من التَّنقل بين القنوات ، على أملِ الحصول على تحديثٍ من الحكومة العسكريَّة حول الانتخابات ، أطفأتُ التِّلفزيون والانفعال يعتريني .

قبل أن يفقد دوتون وظيفته ، كلَّما ذهبتُ إلى «لاغوس» ، أقمتُ في بيته في «سوروليرِ» . وبينما رحتُ أراقب روتيمي تقتلعُ ذراع دميتها في غرفة الفندق ، تمنَّيتُ لو أنَّني معه ، نختلف في نقاشنا على وضع الأمَّة الحالي ، موقنًا أنَّه كان سيبرِّر رفض الحكومة العسكرية إصدار نتائج الانتخابات ؛ فهو ذلك النَّوع من الحمقى الَّذي يعلن لأيِّ شخص يبالي بالاستماع إليه أنَّ الجيش هو أفضل ما حدث للبلاد . أنا في الحقيقة أفتقده .

كان من المستحيل ألَّا أفكِّر فيه وأنا في «لاغوس» . ارتدنا جامعة لاغوس معًا ، تقاسمنا شقَّة في الحرم الجامعي خلال سنتِي النِّهائيَّة هناك . في تلك السَّنة أخبرته أنَّ قضيبي لم ينتصب قطُّ . في البداية ضحك ، ولمَّا أدرك أنَّني جادٌّ ، حكَّ نقرته ، وأخبرني أن لا داعي للقلق لأنَّ هذا سيحدث عندما ألتقي بالفتاة المناسبة . ولأنَّ دوتون هو ما هو عليه ، أخذ ، ونحن ننتظر ظهور المرأة المناسبة ، يعرض أمامي سلسلة من الفتيات في شقَّتنا خلال النَّهار ، وفي الليل يقتادني إلى مناطقِ البغاء في شارع «ألين» . وهو الَّذي ، حتَّى بعد أن بدأتُ العلاج في عيادة خاصَّة في «إكيجا» خلال فصلي الدِّراسيِّ الأخير في الجامعة ، مَن اشترى لي أعشابًا ومشروبات عجائبية طهَّرتني ، لكنَّها لم تجعل قضيبي ينتصب . وبفضله لا بدَّ من أنَّني تفرَّجت على جميع أفلام الفيديو الخلاعيَّة المتوافرة في «نيجيريا» . شاهدتها كلَّها : رجالٌ مع

نساء، رجالٌ مع رجال، نساءٌ مع نساء. ولا شيء نفع.

وإذ فكّرتُ في شقيقي، خطر لي أن أتّصلَ بزوجته أجوك لأسألها عن إمكانيّة زيارة الأطفال ما دمتُ في المدينة، إلّا أنّني ما نويت مطلقًا الردَّ على رسالة دوتون، لكن عندما شدّت روتيمي أنفي وضحكَت كلّما عويتُ، ما عدتُ قادرًا على إنكار أنّني أدين له بشيءٍ على الرّغم من قضيته مع يجيده.

طلبتُ «بوتشي» بدلًا من ذلك، تحدَّثتُ مع الخادمة الّتي أخبرتني أنَّ إيا بولو وزوجتي قد نامتا.

*

في صباح الثّلاثاء، اشتريتُ صحيفة، فتّشتُ في صفحاتها عن أخبار تتعلّق بموعد إصدار نتائج الانتخابات. اكتظّت الصّفحات بتخمينات مشوّشة، عدّة نظريّات وافتتاحيّات غاضبة ولكن معلومات قليلة. والحكومة الاتحاديّة العسكريّة لم تصدِر أيَّ بيان. صار من الواضح أنَّ الإنذار القضائيّ المزيّف الّذي انتظرَ إطلاق مزيد من النّتائج الانتخابيّة يخدم مصالحهم بطريقةٍ ما. المحاكم العليا في «إيبادان» و«لاغوس» أصدرَت أحكامًا مضادّة، وأمرت لجنة الانتخابات الوطنيّة أن تصدِر بقيّة النتائج. لم أصدّق أنَّ المسرحيّة العجيبة الّتي تجري دلّت على أنَّ الجيش نوى التّمسك بالسّلطة إلى أجلٍ غير مسمّى. لسببٍ ما، رأيت أنّهم يحاولون تأخير تاريخ التّسليم بضعة شهور، وأنّهم يعرقلون ظهور النّتائج ليحقّقوا مبتغاهم.

أتذكّر أنّني وأنا أطوي الصّحيفة فكّرتُ أنَّ الوضع سيسفر عن حلٍّ خلال بضعة أسابيع في أغلب الأحوال. افترضتُ أنَّ الجيش يعلمُ

أنَّه أصبحَ مكروهًا ، وسيعود إلى الثُّكنات قبل أن تنتهي السَّنة . ولو أخبرني أحدٌ في ذلك الصَّباح أنَّ «نيجيريا» ستقضي ست سنوات أخرى تحت حكم الدِّكتاتوريَّة العسكريَّة لضحكت .

بعد الفطور ، أجريتُ اتصالًا آخر لـ«بوتشي» وتكلَّمتُ مع إيا بولو . رفعَت صوتها وهي تخبرني أنَّ يجيده في الحمَّام حاليًا ، فتولَّد لدي انطباع بأنَّ زوجتي تقف هناك ، لكنَّها لا تودُّ التَّحدث إليَ . أردتُ أن أحادثها ، افترضتُ أنَّها بسبب بعدها عنِّي قد ترغب في الكلام ، ولو حتَّى لتسمع أخبار روتيمي . كنت قد خططتُ أن أمرِّر لها في الكلام ما أفعله في «لاغوس» . تراءى لي أنَّني جاهز لمناقشة حالتي معها ، شعرتُ أنَّ عدم اضطراري إلى النَّظر إليها مباشرة يمكن أن يساعد ، تصوَّرتُ أنَّها لا يمكن أن تهجرني . أسوأ ما قد تفعله هو أن تقفل الخطَّ ، وإذ قلتُ لإيا بولو إنَّني سأتَّصل ثانية قبل نهاية اليوم ، بدا لي أنَّني مستعدٌّ لمصارحة يجيده بأيِّ شيءٍ ، حتَّى عن زيارتي البائسة إلى مختصّ تقليديّ بالأعشاب .

آنذاك ، سافرت إلى «إلارا- موكين» لاستشارة بابا سوكي خلال فترة ما زلتُ أعتبرها أسوأ ما اختبرته في حياتي . في ذلك الحين كانت يجيده تنفي الأدلَّة الطِّبيَّة كلَّها المغايرة لقناعتها ، وهي تعلن للعالم أنَّها حبلى .

تهيَّأ لي أنَّ جميع المختصين بالأعشاب هم رجال مسنُّون . لكن بابا سوكي كان شابًا ؛ في عشريناته على الأرجح . أعطاني مزيجًا بسواد القطران لأشربه ، وتقاضى خمس نيرات .

في طريق عودتي إلى إليسا ، بدأتُ أحسّ باضطراب ما فوق أربيتي . ركنتُ السَّيَّارة جانبًا ، متسائلًا إن كانت قرقرة معدتي البطيئة وانكماشها وارتخاؤها يعني أنَّ الجرعة تؤتي مفعولها .

حدث ما حدث بغتة. وما استطعت أن أحمل نفسي على التَّصديق إلَّا بعد أن فاحت الرَّائحة الكريهة في السَّيَّارة. لم أحصل على علاج، إسهال فقط لا يشبه أيَّ شيء سبق أن مررتُ به. جلستُ مذهولًا، والبراز السَّائل يتخلَّل بنطلوني الجينز بينما تسارعت السَّيارات في الطَّريق. في الشَّهر التَّالي، سافرتُ إلى لاغوس لأرى دوتون، ولم أقُلْ كلمة واحدة عن بابا سوكي وأنا أتوسَّل إليه ليأتي إلى «إليسا» ويخصِّب زوجتي.

عندما طلبتُ «بوتشي» بعد الظُّهر، قالت الخادمة إن إيا بولو ويجيده قد خرجتا. وحتَّى عندما أخبرَتني إيا بولو في المساء إنَّ يجيده في الحمَّام ثانية، قلتُ لنفسي إنَّ حقيقة بقائها معي بعد مجابهتها لي تعني شيئًا ما. ومع أنَّها ما زالت لا توجّه لي الكلام، وغالبًا ما خرجَت من الغرفة إذا حاولتُ فتح حوارٍ معها، شعرتُ بالامتنان لها لأنَّها بقيَت في البيت، لأنَّ سرِّي قد ذاع ومع ذلك ما زلنا تحت السَّقف نفسه. لا ريبَ في أنَّ ذلك يُحتسب. خطَّطتُ أن أطلبَ منها الجلوس معي عندما نعود إلى «إليسا» لأسألَها إنْ كنَّا نستطيع البدء ثانية بشروطٍ جديدةٍ.

*

استيقظتُ يوم الأربعاء على إشاعة أنَّ الانتخابات الرِّئاسيَّة قد «أبطِلت». لا أظنني سمعت مسبقًا أنَّ كلمة «إبطال» استعمِلت باستثناء الإشارة إلى ما يتعلق بالزَّواج. أنا قطعًا لم أسمع قطُّ نادلَ فندقٍ يستعملها قبل ذلك. بحلول المساء، أصبحَت الإشاعة أخبارًا وتجمَّعَ حشد صغير في الشَّارع يحرق الإطارات، ويعلن عن احتجاجه

بلا لافتات ، وفي وسط الطَّريق يقف رجلٌ باسطًا ذراعيه كالأجنحة ، بينما بدأ رجالٌ آخرون يقيمون الحواجز بأغصان الأشجار الكبيرة ، والفضلات المعدنيَّة ، والمسامير والزُّجاجات المكسورة .

ابتعدتُ عن النَّافذة لأنظرَ إلى بنتي . «هذا مستحيل ،» قلتُ . «مستحيل . لا بدَّ من أنَّ هؤلاء الجنود يمزحون . من يحسبون أنفسهم؟»

حاكت روتيمي كلمة «مستحيل» ، ثمَّ رمَت شخشيختها في الهواء .

في تلك الليلة ، عزمتُ على الانتظار على الخطِّ إلى أن تخرج يجيده من الحمَّام الَّذي بدا أنَّها تسكن فيه منذ وصولها إلى «بوتشي» .

«إذًا؟» قالت عندما جاءت إلى الهاتف .

«أنتم بخير كلُّكم؟ النَّاس هنا يتفاعلون مع خبر الإبطال هذا . هل الأوضاع سلميَّة عندكم؟»

«نعم .»

«أردتُ فقط التَّأكُّد من أنَّكم بخير . النَّاس يسدُّون الشَّوارع في إكيجا اليوم ، ويبدو أنَّهم سيعودون غدًا . لا أعتقد أنَّني سأقدِّر على الخروج لأرى طبيبي غدًا .»

نقرتُ على قرص الهاتف على أمل أن تلاحظ أنَّني أشرتُ إلى ما أفعله في لاغوس ، متمنيًا أن تعبِّر عن استيعابها للجملة الأخيرة بشيءٍ ما - صوت تنهُّد ، سؤال ، هسهسة . كنتُ سأشعرُ بالامتنان تجاه أيِّ ردِّ فعل .

«أما زلتِ على الخطِّ؟» سألتُها بعد برهة .

«أيُّ شيءٍ آخر؟» تساءلت .

«حسنًا ، روتيمي بخير - نامت قبل قليل .»

«تصبح على خير.»

استيقظتُ في الصّباح التّالي قبل الثّامنة، ودهشتُ إذ رأيت أنَّ روتيمي ما زالت مستغرقة في النّوم. منذ أن جئنا إلى «لاغوس»، درجَت على إيقاظي بتقبيل ذقني وهي تطبِّل على وجنتي. في الخارج، بدأ حشد يتجمّع - يهتف، يلوِّح باللافتات. قبل الظُّهر، تجمهر النّاس في الشّارع بالآلاف؛ كان الهواء مثقلًا بالأدخنة بسبب إحراق عدَّة إطارات. أدركتُ أنْ لا جدوى من محاولة الوصول إلى المستشفى.

لم تأكل روتيمي شيئًا من الفاصولياء الّتي طلبتُها للغداء، ولذا طلبتُ القليل من الأرز، لكنّها لم تأكل منه شيئًا كذلك. عندما نزلَت عن ركبتي وتمدَّدَت على الأرضية، جثمتُ قربها، واعدًا إياها بمثلجات إذا تناولت شيئًا من الطّعام، إلّا أنّها لم تحاول الجلوس أو الابتسام أو التّفاوض. أغمضَت عينيها، ثمّ حجبتهما بذراعها اليسرى. وضعتُ راحتي على جبينها، شعرت أنّه دافئ، كأنّه بداية حمى. حملتُها ومدَّدتها في السّرير. كنت قد جلبتُ معي من أجل الرِّحلة شراب باراسيتامول مع بقيَّة العقاقير الأخرى، لكن، لأنّها ارتعشت عندما مدّدتُها، رأيتُ أنَّ اصطحابها إلى المستشفى في الحال قد يكون أفضل.

ذهبتُ إلى نافذةٍ وتفقّدتُ الشّارع متسائلًا إنْ كان الحشد سيسمحُ لي أنْ أخترقَ تجمُّعه بالسّيارة إذا شرحتُ وضع ابنتي الصِّحيِّ. عندئذٍ رأيتُ الجنود، ولمّا أُطلِق أوّل عيار ناريٍّ على الحشد كنتُ ما زلتُ عند النّافذة. ارتميتُ على وجهي، زحفت إلى السّرير وجذبتُ ابنتي إلى الأرضيّة، كانت عيناها مغمضتين وصراخها يدوِّي. في البداية ظننتُ أنَّ صوت الطّلقات النّاريّة هو ما يروّعها، ثمّ عندما لمستُ جبينها شعرتُ كما لو أنَّ هناك أتونًا تحت جلدها.

39

ونحن نستعدُّ للنوم في ليلتنا الأولى في «بوتشي» ، وجَّهت لي إيا بولو محاضرة قصيرة عن ضرورة التيقّظ لأعتني بروتيمي . كانت أمام مرآة الزِّينة تدهن عنقها بالمستحضر السَّائل وتدقِّقُ في بثرة ظهرَت على أنفها .

«يجب أن أصارحكِ بالحقيقة يا إيا روتيمي . هذا الشَّيء الَّذي تفعلينه يجافي الصَّواب . ماذا اقترفَت بحقِّك تلك الطِّفلة؟ لم أركِ قطُّ تلاعبينها ، ولا مرَّة . تذكَّري خالقها قبل أن تعامليها بهذه الطَّريقة الآن . انظري كيف تحملينها على ركبتيك بعيدًا جدًّا جدًّا عن جسمكِ . أوه هذا ليس تصرّفًا سليمًا . أهو بسبب المنجلية؟ آه ، نحن لا نستطيع دائمًا أن نعرف ما سيسفر عنه الغد بمقارنته مع اليوم . مهمَّتكِ بصفتكِ أُمّها أن تعتني بها . اتركي قرار موتها أو حياتها للرَّب ، لا تقتليها في رأسكِ منذ الآن . لا تفعلي .»

«قبل أن تنعتي الحلزون بالضَّعف ، اربطي بيتكِ إلى ظهركِ واحمليه مدَّة أسبوع ،» قلتُ . إذ استهجنتُ ذلك من إيا بولو الَّتي لم تشاهد بنتًا من بناتها تتوقّف عن التَّنفُّس ، وبعد ذلك ترتئي أنَّها يمكن أن تُملي عليّ كيف أعيش حياتي . «ثمَّ ، ألم تتركي بناتك عندما كنَّ في سنِّها يزحفن وحدهن على طول الممر وعرضه؟»

عبسَت وهي تدهن وجهها بمستحضر العناية بالبشرة الليلي . «تظنِّين أنَّك قد تسكتينني بإهانتي . جلُّ ما أعرفه هو أنَّ عليك ألَّا

تعاقبي روتيمي على موت الآخرين .»

«يُدعيان أولاميد وسيسان ، وأنا لا أهينكِ . أليس صحيحًا أنّك لطالما تركتهنّ في الممر وحدهن؟»

قامت إيا بولو وذهبت لتجلس على سريرها . «على الأقل أطعمتهن كلّما جعنَ ، وحملتهن عندما بكين . يا إيا روتيمي ، أنا لا أحاول أن أطعنَ جرحك بعود ، أقول فقط أن لا أُمَّ أخرى لديها ، وفي الوقت الحاضر ، هي الطِّفلة الوحيدة الَّتي لديكِ .»

أنا لم أكن أعاقب روتيمي على أيِّ شيء . أنا ببساطة لم أعتقد أنّها ستعيش مدّة كافية لتتذكر أيّ شيءٍ أفعله أو لا أفعله . آمنتُ أنّها مسألة وقت قبل أن تسلك الطّريق الّتي سلكها ولداي وكنتُ أهيِّئ نفسي ، أكيّف نفسي لتتقبّل كونها بلا أطفال . كلّما فكّرتُ في الأمر ، ما أمِلتُ إلّا ألّا تعاني كثيرًا . لم أبالغْ في ضمِّها لأنّني أردتُ حماية نفسي منها إذا فقدتُها . اقتطع سيسان وأولاميد أجزاءً من كينونتي ، ونأيتُ بنفسي عن روتيمي لأنّني أردتُ أن يتبقّى لديَّ شيء ما من هذه الكينونة عندما ترحل .

«وحكاية أنّكِ طلبتِ من الخادمة الكذب على زوجكِ بقولها إنّنا نائمتان ، أأنتِ على خصام معه؟»

«حتّى اللسان والأسنان لا يستطيعان التّعايش بلا عراك .»

«أوه يا إيا روتيمي ، أنتِ وهذه الأمثال كلّها . تصبحين على خير .» أولتني ظهرها وسحبت الغطاء فوق رأسها .

*

يوم الخميس ، بقيتُ وحدي مع الخادمة في البيت . غادر شقيق إيا

بولو وزوجته إلى العمل ، وإيا بولو ذهبَت إلى السُّوق لتشتري بعض الحاجيات لبناتها . أمَّا العروس المُقبلة : محاضِرة في جامعة «جوس» ، فقدومها متوقَّع في المساء . كنت أطالع صحيفة قديمة عندما دخلَت الخادمة الغرفة ، وأعلمتني أنَّ لديَّ مكالمة هاتفيَّة من «لاغوس» .

«طلبتُ منكِ إخباره أنَّني مشغولة .»

«قال إنَّه يجب أن يتكلَّم معك يا سيدتي ، قال إنَّ طفلتكِ مريضة .»

وضعتُ الصَّحيفة جانبًا ، وقصدتُ غرفة الجلوس .

«يجيده ،» هتف أكين عندما رفعتُ السَّماعة . «غابت روتيمي عن الوعي .»

سقطتُ على كرسي . قبل ذلك اليوم ظننتُ أنَّني مستعدَّة ، بعيدة بما يكفي سواء بالعاطفة أو المكان لأتقبَّل خبر موت روتيمي أو احتضارها . لكن ، ماذا نعرف عن أنفسنا؟ أنعرف حقًّا ما قد نفعله في أيِّ حالة قبل أن تظهر الحالة نفسها؟ منذ يوم ولادتها ، جهَّزتُ نفسي للأسوأ ، بيدَ أنَّ عمرًا بحاله لم يبدُ كافيًا ليجهِّزني للدوار الَّذي صعقني .

«يجب أن تأخذها إلى المستشفى ،» قلتُ .

«إنَّهم يطلقون الرَّصاص في الشَّوارع يا يجيده . الجنود هنا ، وهم يطلقون الرَّصاص ، يطلقونه على النَّاس . وروتيمي كفَّت عن الصُّراخ فجأة . ثمَّ أنا . . . ثمَّ حاولتُ أن أوقظها لكنَّها لم تتجاوب . ما زالت تتنفَّس ، ما زالت تتنفَّس!»

«يجبُ أن تأخذَها إلى مستشفى .»

«أهناك ما تعرفينه ، ويمكنني القيام به؟ أهناك أيُّ شيء أستطيع فعله الآن؟ يجيده؟ يجيده؟ أنتِ هناك؟ ما يُفترض بي أن أفعل الآن؟»

«عليكَ أن تأخذَها إلى مستشفى.»

«قولي شيئًا آخر، أنا متأكِّد من أنَّهم قتلوا أناسًا؛ قد نصاب بالرَّصاص. أهناك ما أستطيعُ فعله؟ يجيده؟ أتعرفين أيَّ شيءٍ؟ هل علَّموك أيَّ إجراءات طارئة من أجل سيسان؟ يجيده؟»

كان في وسعي أن أرى ما تبقَّى من حياة روتيمي يتكشَّف أمامي.

«أنا لن أرجع إليكَ.»

«ماذا تقولين؟»

«لن أرجع إلى إليسا، ولن أرجع إليكَ.»

«ماذا تقولين؟ اسمعي، يجب أن أذهبَ، سأتَّصل بكِ الليلة لأعلمكِ إذا... إذا... لأعلِمك...»

جلستُ في غرفة الجلوس الغريبة عنِّي، وأنا أحمل السَّماعة إلى أذني مدة طويلة بعد انقطاع الخط. أيُّ أُمّ صالحة ستنتظر المكالمة الهاتفية الحتميَّة، تعود إلى «إليسا» وتستقبل الزّوار، تتقبَّل رسائل التَّعزية بصفتها المكلومة الرَّئيسة، تؤدِّي دورها باعتبارها أُمّ روتيمي على الرَّغم من رحيلِ ابنتها. وبعد قيامي بكلِّ ذلك، بعده فقط يمكن أن أهجرَ زوجي، لكنَّني كنتُ مرهقة ولم يبقَ في «إليسا» شيء لي. ومع أنَّ صالوني هناك، لم أجده كافيًا ليعيدني إلى البلدة نفسها الَّتي يقيم فيها أكين. ما كنتُ لأتحمَّل فكرة المرور بالسَّيارة أمام مستشفى نقابة ويزلي مرَّة أخرى بعد، أو أرى الأطفال يلبسون الزي المدرسي الَّذي ارتداه سيسان وهو على قيد الحياة. لذا قمتُ بما أردتُ حقًّا القيام به.

شربتُ كوبين من الماء، ثمَّ دخلتُ الغرفة الَّتي أشارك إيا بولو بها. أخذتُ حقيبتي اليدويَّة فقط. كلُّ الأشياء الَّتي أحتاجها كانت فيها: دفتر حسابي المصرفي، قلم، كراسة ملاحظات، والنُّقود الَّتي جلبتها

معي إلى «بوتشي» ، وصورة أُمِّي الوحيدة الَّتي أملك . تركتُ ملاحظةً على سرير إيا بولو . كنتُ واثقةً من أنَّ زوجة أخيها ستقرأها ، وتُعلِمُها أنَّني لن أعود .

خرجتُ إلى الشَّارع ، لوَّحت بيدي لسيارة أجرة في طريقها إلى موقف الآليات . غبَّشت الدُّموع عيني وأنا أصعد إلى السَّيارة وكدتُ أتعثر . اعترفتُ لنفسي حينها أنَّني فشلت ، وأنَّ روتيمي أيضًا اقتطعَت منِّي جزءًا . لمَّا خرجتُ من سيارة الأجرة وجفَّفتُ دموعي لأميز اللافتات الَّتي تدلُّ على وجهة كلِّ حافلة ، أدركت أنَّني لن أنسى روتيمي أبدًا ، لن أقدر مطلقًا على محوها بالطَّريقة الَّتي تمنَّيت أنَّني سأكون قادرة على فعلها .

ركبتُ الحافلة المتجهة إلى «جوس» . رحلتُ إلى «جوس» لأنَّني سمعت أنَّها المدينة الأكثر جمالًا في «نيجيريا» ، ولطالما رغبت في الذَّهاب إليها . سأستغرق بعض الوقت لأدركَ أنَّ كلَّ طفل من أطفالي قد وهبني شيئًا بقدر ما أخذ منِّي . ذكرياتي عنهم ، بحلاوتها المرَّة واستمرارها كانت بقوَّة حضورهم الجسديِّ . وبسبب ذلك ، وبينما حملتني حافلة إلى قلب مدينة أجهلها ، وبينما آخر طفلة لي تنازع في «لاغوس» والبلاد تتفكّك ، لم أشعر بالخوف لأنَّني لم أكن وحدي .

الفصل الرَّابع

40

إليسا كانون الأوّل 2008

أنا هنا ، ترتعش يداي وأنا أسوّي دثاري ، ورَجْعُ خفقان قلبي يتردّد في حنجرتي ، لكنّني هنا ، ولن أغادر قبل أن أراكَ .

حضر الضّيوف بالمئات ، والسّرادقات المُكيّفة التي أقيمت من الأنواع الغالية جدًا - لقد مات أبوك ميتةً مُشرّفةً كما أرى . فناء المدرسة الثّانويّة هذا جرى تحويله . هناك رايات عليها صورة أبيك ، وهناك رجال شُرطة لطرد الأنذال من المكان ، ومصابيح معلّقة لإبقاء الحفلة مستمرّة إلى الليل . أيّ رجلٍ يمكن أن تُعِدّ له ذريّته هذا النّوع من الكرنفال لتشرّفَه بعد رحيله ، لا ريب في أنّه مات ميتة رفيعة الشأن . إنّما أنا لستُ هنا بسبب موته ؛ فأنا ما جئتُ إلّا بسبب الطّفلة الّتي خلّفتها ورائي ، الطّفلة الّتي لم أشأ أن أشهد موتها .

صارعتني نفسي لأعودَ في أوقاتٍ كثيرةٍ ، لأسألكَ فقط عن لحظاتها الأخيرة ، فأنا ما عدتُ قادرة على تحمُّل رفاهيّة الأمل ، ولذا نبذتُ فكرة أنّها بطريقةٍ ما نجَت . وكلّما أملَتْ عليّ نفسي الرّجوع إليكَ ، ما ذاك إلّا لأسالكَ إن كانت لم تكابِد ألمًا يفوق طاقة احتمالها .

أكثر من مرّة حزمْتُ حقيبةً صغيرةً خاصّة بعطلة نهاية الأسبوع ، وطلبتُ من سائقي أن يستعدّ لسفرةٍ إلى «إليسا» . لكن ، في الأيام المُفترضة لمغادرة «جوس» أتسمّرُ في مكاني ، أعجزُ عن النّهوض من

السَّرير ، متيقّنة من أنَّ أيَّ حركة أقوم بها ستحطِّمني إلى مليون شظيةٍ صغيرة . قضيتُ تلك الأيام في السَّرير ، أذرفُ الدَّمع بلا نشيج ، وأترك الدُّموع تنهمرُ على جانبَي وجهي إلى أن تخزَ أذنيَّ ، لأنَّني أفقد القدرة على رفع يدي لالتقاطها . بعد عقد من الزَّمان ، امتنعتُ عن تحضير نفسي لهذه السَّفرات ، وعلى مدى خمس سنوات لم أحزم حقيبةً صغيرةً لعطلة نهاية الأسبوع ، أو أطلب من سائقي الاستعدادَ لسفرةٍ نحو الجنوب .

أنا مستعدَّة الآن ، مستعدَّةٌ للسَّماع عن لحظاتها الأخيرة ، ولأعرف أين دُفِنت . لا مغزى في إنكار أنَّني واجهتُ الأسوأ أكثر من مرَّة ، وعدم رؤية القبور لا يغيِّر حقيقة أنَّني عشتُ أطول من أولئك الَّذين كان ينبغي أن يقفوا أمام قبرٍ حُفر حديثًا وينثروا أوَّل حفنة تراب على تابوتي . أكين ، أنا ما عدتُ أبالي بطقوس التَّشريف : يجب أن أرى قبر بنتي .

كلُّ شيءٍ تحت السُّرادِقات أصفر وأخضر ؛ مفارش موائد خضراء ، ومقاعد بأغطية حرير أصفر ذات أقواس خضراء . أجلس على أوَّل مقعد شاغر تحت سُرادق يحمل اسمكَ ؛ يوجد هنا ما يزيد عن ألف ضيف . لا ريب في أنَّكَ أنفقتَ مالًا كثيرًا ، ولو أنَّ ذلك ليس ظاهرًا كما ينبغي . النَّاس عند هذه الطَّاولة يتذمّرون ، لا أحد قُدِّمَت له أيُّ خدمة ، ولا حتَّى قارورة ماء .

«لكن السُّرادق ممتاز ، والكراسي مزيَّنة بطريقةٍ حسنةٍ .» أقولُ . نعم ، ما زلتُ أتصدَّى للدفاع عنكَ ، كما لو أنَّ هذه عائلتي أنا ، كما لو أنَّني لستُ من الدُّخلاء هنا .

يسخر الرَّجل الجالس إلى جانبي . «أيفترضُ أن نأكل مفارش المائدة؟ عندي طعامٌ في بيتي . ما داموا يعلمون أنَّهم لا يملكون المال

لإطعامنا، لماذا دعوا الكثير من النّاس؟ أثمّة ما يحتّم عليهم إقامة احتفال ضخم؟ أهو بالإكراه؟»

«أنا واثقة من أنَّ الخدم لن يلبثوا أن يعتنوا بنا.» أقفُ وأقصدُ طاولة أخرى. بعد أن أجلس ينهشني القلق؛ أنقرُ بأصابعي على ركبتي، وأفتّش في الحشد عن رأس يبدو مثل رأسكَ. لن تكون معتمرًا قبّعتك الآن؛ القبّعات تجعل رأسكَ يتصبّب عرقًا. أفتِّش عن رأسٍ حاسرٍ.

«اختبار، اختبار، مكبِّر صوت. واحد، اثنان، واحد، اثنان. اختبار، اختبار. واحد، اثنان. واحد، اثنان.» يقول شخص ما عبر شبكة مكبِّرات الصّوت.

أراكَ الآن؛ أنتَ تقف على بعد طاولة منّي. عيناي تتواصلان مع شفتيكَ؛ ما زالت شفتُكَ السُّفلى ورديّة. لا تراني؛ عيناكَ تمسحان الحشد، وترحِّبُ بضيوفكَ بذهنٍ شارد، تبحث عن شخصٍ ما، تمرُّ بطاولتي. أغرز أظفاري في راحتي، لئَلا أمدَّ يدي والمسكَ. خانتني الشّجاعة الّتي تراءى لي أنّني أتسلّحُ بها عندما قرّرتُ القدوم إلى هنا، لا أريد سوى التّشبُّث بوسائل الرّاحة الصّغيرة الّتي تسبغها الجهالة. لعلّي في نهاية المطاف لستُ جاهزة لأعرف كيف ماتت بنتي، ربّما لستُ بحاجة إلى أن أعرف.

«بابا روتيمي، المصرفي، انظروا كيف يمشي، إنّه المال يمشي!» تقول امرأة جالسة إلى الطّاولة، وهي تصفع فخذها براحتها، ونظراتها تلاحقكَ.

يعتريني الذّهول لأنّهم ما زالوا يدعونكَ بابا روتيمي، وآمل أنْ لا أحد يستعمل هذا اللقب أمامكَ. القُساةُ وحدهم يمكن أن يذكّروكَ بخسارتنا على هذا النّحو.

«شقيقه هنا؟ الابنان الوحيدان لأمّهما، سمعتُ أنّهما

متخاصمان، ولا يتبادلان السَّلام حتَّى؟» تسأل المرأة الأخرى، الجالسة إلى الطَّاولة.

«طبعًا هو هنا أيضًا. أليس الميِّت أباه؟ ها؟ سيتوجَّب عليهما أن يفضًا ما بينهما من خلاف كرمى لأبيهما الميت على الأقلّ.» أجابت المرأة الأولى.

«ألا يُقال إنَّ زوجته هي الَّتي سبَّبت المشاكل بينهما؟ هل لكِ أن تتخيَّلي كيف ترفض بعض النِّساء الطَّالحات رفضًا قاطعًا وجود أهل أزواجهن حولهن... نساءٌ شرِّيرات!»

أهكذا إذًا أصبحَت قصتنا تُروى؟ أنا الشِّريرة وأنتَ القدِّيس. أقفُ وأدور، أدور في السُّرادق إلى أن أجدكَ تقف أمام طاولة مكتظَّةٍ بالمشروبات.

هناك صبيَّة مراهقة إلى جانبك، تشبهني ولكن لديها أنفكَ. أطرفُ عيني وأرى أنَّها ما زالت هناك، تقف إلى جانبك. أتقدَّم، وتنفرجُ شفتاي. لقد فكَّرتُ في حدوث هذا اللقاء بطرقٍ متعددة، لكن ما تخيَّلتُ قطُّ أن أرى ذراعك ملتفَّة حول كتفيها، ما سمحتُ لنفسي مطلقًا أن أفكِّر برؤيتها ترنو إليكَ مبتسمة.

كيف أمكنكَ ألَّا تُعلِمَني؟

تلتقي عيناي بعينيها أوَّلًا؛ تحدِّقُ بي كما يحدِّق النَّاس بالدُّخلاء، كأنني شخصٌ لم يسبق لها أن رأته قطّ. كلمات كثيرة جدًا تفور في صدري، تحتلُّ مساحة الهواء في داخلي كلَّها، ولا أكاد أتمكَّن من التَّنفّس. ثمَّ تستدير أنتَ، وتلتقي عيوننا. أنقل النَّظر من وجهكَ إلى وجهها بذهول، أشعر كما لو أنني قد أغيب عن الوعي. هذه معركة استيقنتُ من أنَّني خسرتها، وفجأة يظهر لي أنَّني ربحتها. لم أربح المعركة فحسب، بل الحرب بأسرِها.

عيناها كعيني أُمِّي ، جيدها الأهيف وشفتاها الرَّقيقتان . أريد أن ألمسها ، لكنَّني أخشى أن ترتدَّ أو حتَّى تختفي . وبينما آخذ نفسًا عميقًا ، تمدُّ يدها لتلمس الصَّليب المتدلِّي من سلسلتها الذَّهبية .

أتقدَّم أكثر . «أهذه بنتي؟ أكينيل ، أهذه بنتي؟»

41

يجيده ، كلَّ يوم منذ أن أرسلتُ لكِ دعوةً لحضور جنازة أبي ، قلقتُ ممّا ستسفر عنه هذه اللحظة . بيد أنَّ تيمي قالت لي عدّة مرّات أنَّ الأمر سيجري على ما يرام . لكن ماذا تعرف؟ لا تعرف إلّا ما يكفي لترى أنّه ما زالت لدينا فرصة لنكوِّن نحن الثّلاثة عائلة سعيدة . أمّا أنا فينبغي أن أعرف ما هو أكثر ، بل أنا أعرف ما هو أكثر . لكن ، معكِ لا يمكنني مطلقًا أن أفقد الأمل .

«مَن هذه؟» تستمرين في الاستفسار مشيرةً إلى تيمي ، بيد أنَّ عينيكِ عليّ . «أهذه روتيمي؟ أكين ، مَن هذه؟»

تُفضّل أن نناديها تيمي ، تقولُ إنّها شخص مستقلّ بذاته ، وليست نصبًا تذكاريًا لأشقاء ما عرفتهم قطُّ ، وأنا أوافقها على ما تقوله . تنوي تغيير اسمها رسميًا ، لكن تريد أن تناقش هذا معكِ أوّلًا . لقد آمنَت دائمًا بأنّنا سنعثرُ عليكِ . مع ذلك تراجعَت عن الخطط كلِّها الّتي رسمناها لنتواصلَ معكِ منذ أن حصلنا على عنوانكِ . حجزنا في طائرات لم نستقلَّها قطُّ . كتبتُ رسائلَ مَزّقَتْها ، وكتبَتْ رسائل ومَزّقْتُها أيضًا .

ماذا لو أنَّ أمّي لا تريدني؟ تسألني ونحن نغادر المطار ، تسألني وهي ترمي قصاصات الرّسائل المصوغة بعناية في سلّة النِّفايات ، فأخبرها أنّكِ قد أحببتِها ، وما كنتِ لتتخلّي عنها لو علمتِ أنّها حيّة ، وأنّكِ تريدينها الآن . مرّة واحدة فقط قالت : حتّى على الرّغم

من مرض خليّة الدّم المنجلية؟ أترى يا أبي لدي ذلك الصّديق في الجامعة الّذي هجر أبوه العائلة بسبب مرض ابنه بالمنجلية هذه، فاق الأمرُ قدرته على التّحمُل . لا بأس إذا أخبرتني أنّ أمّي هجرتنا لهذا السّبب، في وسعي أن أتقبّل الأمر . في تلك المرّة الوحيدة، أكّدتُ لها أنّكِ ما تركتِها تغيب عن نظركِ مطلقًا عندما كنتِ معنا . أخبرتُها أنّكِ يوم سافرتِ إلى بوتشي كانت تلك أوّل مرّة تغادرين فيها البيت، من غير أن تحمليها بين ذراعيكِ . ليس من العدل أن أخبرها بشيءٍ غير الأشياء الجيّدة عنكِ .

هي الّتي قرّرت أنّنا يجب أن نرسلَ لكِ الدّعوة بعد موت أبي . هي الّتي اختارت شركة البريد السّريع؛ وأنا أرسلتُ الدّعوة . ومنذ ذاك الحين انتظرنا والقلق ينهشنا، وها أنتِ هنا الآن، على قابِ قوسين منّا .

ها هي تلمسُ ذراعي، تميل نحوي وتهمسُ، «إنّها هي، أليس كذلك؟»

أنتِ تُمعنين النّظر إليها؛ تبدين كما لو أنّك ستنهارين . بعض ضيوف الحفلة يرشقوننا بنظرات جانبية، يمطّون أعناقهم تُجاهنا .

أضعُ يدي بيدِ تيمي . «يجيده، تعالي معنا رجاءً .»

لا أدري يد مَن فينا الّتي تنضح عرقًا، يد تيمي أم يدي! تمشين خلفنا، تستمرُّ تيمي في الالتفات للنّظر إليك، عاقدةً حاجبيها كما لو أنّها تظنُّ أنّها لن تجدك هناك عندما تلتفِت . نتقدّم في المشي إلى أن يخفتَ إيقاعُ الموسيقى، وأستطيع سماع كعبَي حذائكِ على الأرض الحجريّة . أمامنا مجموعة من الصّفوف المدرسيّة المطليّة حديثًا .

عندما نصبحُ في إحدى الغرف، أتنحنح . «نعم، هذه روتيمي .» أقولُ . «لكنّنا الآن ندعوها تيمي .»

«آه يا إلهي! يجبُ أن أجلسَ رجاءً .»

أراقبكِ أنا وتيمي بينما تجلسين على مقعدٍ خشبيٍّ . تنحنين ، تطوقين رأسكِ بيديكِ . تشدّد تيمي قبضتها على يدي ، إلى أن يبدأ الخدر يسري فيها .

«اكتشفنا أين أنتِ قبل سنةٍ ،» تقول تيمي . «بولو ، أنتِ تتذكّرينها ، صح؟ إنّها تُحضِّر من أجل درجة الماجستير في جامعة جوس . جاءت لتشتري ذهبًا من متجركِ ، وعرفَت مَن تكونين .»

تنظرين إلى تيمي بفم شبه فاغر . أستطيع سماع أنفاسكِ .

«لا بأس إذا كنتِ ترغبين في الرَّحيل . . . أنا . . . أنا أردتُ . . . أردتُ فقط . . . أردت فقط أن أراكِ . هذا كلُّ شيء .»

لا ، ليس هذا كلُّ ما تريده ، وليس هذا كلُّ ما أريده أنا أيضًا . تريد أن تعانقكِ ؛ لتقولي لها أنّكِ لم تنسِها ، حتّى وأنتِ تعتقدين أنّكِ لن تريها ثانية أبدًا ، تريدكِ أن تبقي .

«روتيمي ،» تقولين وأنتِ تقفين .

«تيمي ،» يرتعشُ صوتها . « ينادونني تيمي الآن .»

«يا طفلتي ، بنتي ، بنتي أنا .»

تفلتُ تيمي يدي بينما تتقدّمين نحوها .

تتحسّسين وجهها كأنّك تهمّين بالتقاط الدُّموع ، لكنَّ وجنتيها جافتان ، كوجنتيك تمامًا . تبقي ذراعيها متدلّيتين عند جانبيها ، تنتظر إلى أن تجذبيها نحوك . تضمّينها . عندئذٍ تطوقكِ ذراعاها بحذر مفرط ، كأنّها تظنُّ أنّها قد تكسركِ .

«رجاءً ، روتيمي ، تيمي ،» تقولين . «أيمكنُ أن تنتظري في الخارج؟ أيمكن؟ يجب أن أتحدَّث إلى أكين .»

«لا بأس ،» تقول . ثمَّ بعد لحظة ، تبتسم وتضيف ، «عليكِ أن

تُفلتيني قبل أن أتمكّن من الذّهاب .»

تنسلُّ من بين ذراعيك ، وتغادر الغرفة . ظهرها مستقيم ، وذقنها مرفوعة مثلكِ . تبتعد عن هذا المبنى ، تقف وتُولينا جانبها ، تفرد تجاعيد ثوبها الأصفر .

«أخبرتَني أنّها فقدَت الوعي .» تقولين وظهركِ لي ، لكنّني أرى أنّ تركيزكِ منصبٌّ على مكان وقوف تيمي .

«صحيح ، فقدَت الوعي . إنّما في النّهاية حملتُها ، ومشيتُ إلى عيادةٍ . اضطررتُ إلى رفعها عاليًا في الهواء مثل عَلَم وأنا في الطّريق حتّى لا يطلق الجنود الرّصاص علينا . لم يسمحوا لي أن أستقلّ سيارة ، حتّى عندما رأوا أنّها غائبة عن الوعي .»

تستديرين نحوي ، تتحرّين وجهي . لن ألومكِ إذا لم تصدّقيني ، لكن هذه هي الحقيقة كما حدثَت . تعبسين ، تستندين على حائط ، تديرين وجهكِ نحو الباب المفتوح . تبقين صامتة لِما تهيأ لي أنّه ساعات . الصّوت الوحيد بيننا هو صوت الموسيقى الخافِت من الحفلة . لا بدّ من أن أجد كلمات تكسر الصّمت ، لكن كلّ ما أفكر فيه هو كم أنتِ جميلة في نظري ، بعد هذا الزّمن كلّه ، وأعلم أن ليس هذا ما تريدين سماعه . أقرّر أن أنتظر أسئلتكِ قبل أن أردد الكلام الّذي تمرّنتُ عليه أمام المرآة ، تلك المرأة الّتي كنتِ تستعملينها لما تشاركنا الغرفة نفسها .

«ماذا أخبرتَها عنّي؟ عن سبب رحيلي؟»

«أخبرتُها أنّني قلتُ لكِ إنّها ميتة عندما اتصلتُ بكِ . لذا ، بقدر ما يعنيها الأمر ، عندما اختفيتِ ، اختفيتِ لاعتقادكِ بأنّكِ فقدتِ طفلًا آخر .»

تشرعين في المشي نحو الباب ، نحو تيمي . فجأة تقفين وتلتفتين .

«هل أخبرتَها عنّي وعنكَ وعن دوتون؟ عن . . .»

«أثمّة ما يستدعي أن تعرف؟»

تزمِّين شفتَيك وتُومئين برأسكِ . «كيف كانت الحال . . . بالنِّسبة إلى صحتها؟»

«هي شجاعة .»

ترفعين صوتكِ ، كأنَّك تتوقَّعين منِّي أن أرفض . «أحتاج إلى البقاء معها الليلة .»

«بالتَّأكيد ،» أجيبُ . «جهَّزتُ لكِ غرفةً في البيت . يمكن أن نغادر الآن فورًا إذا شئتِ .»

تحدِّقين فيَ كما لو أنَّني ناولتكِ سكِّينًا ، وطلبتُ منكِ أن تطعني نفسكِ . «لا ، لا أستطيع الذَّهاب إلى بيتكِ .»

كلماتكِ الأخيرة هذه هي كلُّ ما استلزم الأمر لأبتلع العبارات الحمقاء الَّتي حضَّرتُها في ذهني ؛ أريد أن أعيش معكِ ، يمكن أن نصبح رفيقَين ، افتقدتكِ ، إذا رغبتِ في اتّخاذ عشَّاق ، ما عليكِ سوى أن تتصرَّفي بتكتُّم ، يمكن أن نبدأ مجدّدًا ، وفقَ شروط جديدة .

«ما أعنيه هو ، إذا روتيمي ، تيمي لا تمانع ، سأصطحبها إلى الفندق لتقضي الليلة معي . نعود إلى بيتكَ غدًا ، وحينها يمكن أن نناقش كيف سيتطوّر هذا .»

«بالتَّأكيد ،» أقول .

«حسنًا إذًا .» تستديرين ، تحلِّين دثارك وتعيدين ربطه وأنتِ تمرِّين من الباب . تذهبين إلى تيمي ، تمسكين يدها ، تسندين جبهتكِ على جبهتها . تومِئ برأسها وأنتِ تخاطبينها . تضعين ذراعًا حول كتفيها ، وتقودينها بعيدًا عن نظري .

42

أحملُ يدي ابنتي ، أمرِّرُ إبهاميَّ على راحتيها ، ألمسُ رسغيها وأتحسَّس نبضها . هذا ليس حلمًا . بنتي هنا ، تقف أمامي وظهرها إلى قاعة الدَّرس . قدماها تنتعلان صندلًا ذهبيًا ، وأظفار أصابع قدميها مطلية باللون الأخضر . حاشيةُ ثوبها الأصفر الصَّدفية تلامسُ ركبتيها ، وصليب يتدلَّى من سلسلة عنقها الذَّهبية ، شفتاها مكسوَّتان بأحمر شفاه ورديٍّ لمَّاع ، وعيناها مُحدَّدتان بالكحل . هي هنا . أمامي . أدنو ، أضع جبهتي على جبهتها وأشعرُ بأنفاسها على وجهي . ربطة شعرها التَّقليدية تحتكُّ بوشاحي .

«روتيمي . . . تيمي ، تيمي . . .» هذا كلُّ ما أمكنني قوله .

أعدُّ أصابعها ، أمرِّرُ إبهامي الأيمن وسبابتي على طول الأصابع ، وأخنقُ توقي إلى النُّزول على ركبتي لأعدَّ أصابع قدميها . أنا «توماس» ، أنشدُ برهانًا ملموسًا لما تراه عيناي قبل أن أستسلمَ للبهجة . تحبسُ بنتي دموعها وتبتسم .

ألمس الصَّليب ، «أهذا الـــ . . .؟»

«أبي قال إنَّه منكِ .» تتنحنح . «أضعُه كثيرًا .»

لا أحبس دموعي وأنا أفكِّر في تلك السِّنين المديدة الَّتي عاشتها بنتي بلا أُمّ . أريد تطويق وجهها بيدي إلى أن تطلق سراح دموعها . أريد أن أضمَّها بحرارة جمّة وأخبرها أنَّها ستشعر بالتَّحشّن إذا بكت ، ثمَّ أدركُ أنَّني أجهل ما إذا كانت تكتم بكاءها ، بل حتَّى لا أعرف

أهي الّتي عقدت ربطة شعرها وحدها ، أو احتاجت إلى شخص آخر ليفرد لها أطرافها . الطِّفلة الّتي خلّفتها ورائي هي الآن شابّة أميِّزها ولكن لا أعرفها . جدول جديد من الدُّموع يحتشدُ في عينيّ ، هذه المرّة من أجلي ، ومن أجل السِّنين الطِّوال الّتي عشتها أُمًّا بلا أطفال ، بينما وضع شخص آخر يده بيد بنتي واصطحبها إلى يومها المدرسيِّ الأوَّل ، بينما علّمها شخصٌ آخر كيف تبرع في تحديد عينيها بالكحل .

«أنا في منتهى الأسف . فقط لو علمتُ أنّكِ على قيد الحياة . . . فقط لو عرفتُ ، أقسم أنّني كنتُ سأعود . نعم كنتُ سأعود ، سأعود من أجلكِ .»

«أنتِ هنا .» تمسح دموعي بيديها . «أنتِ هنا الآن .»

تنجرفُ كلماتها إلى أعماقي ، تحلّني من تبعة السّنوات الضّائعة .

«مومي ،» تهمس .

ألقي نظرة خلفي ، متوقّعة أن أرى حماتي . «جدّتكِ؟ أين هي؟»

تضحك بنتي ، ورنين الصّوت البديع يجلب ابتسامةً إلى وجهي . أريد أن يرنَّ صوت ضحكها إلى نهاية الزمن .

«ماما ، ما فتئتُ أنتظر أن أقولَ هذه الكلمة منذ الأبد . أنتِ وحدكِ مومي الّتي تعنيني . أنا لا أنادي جدّتي بها .» تلمس الصّليب وتهزُّ كتفيها . «لا أحد يفهمني ، هذا أحد طباعي الغريبة .»

«أنا أفهمكِ .» أفهم كيف أنَّ كلمة يقولها الآخرون يوميًا يمكن أن تصبح شيئًا يُهمس به في الظّلام ، لتسكين جرح يستعصي على الشّفاء . أتذكّر تفكيري بأنّني لن أسمعها تُنطق من غير أن أتفكك قليلًا ، متسائلةً ما إذا كنت سأحظى بتردادها في الضّوء . لذا ، أنا أميِّز الهبة الكامنة في هذا التّصريح البسيط ، أميز الوعد ببدايةٍ في هذه الكلمة .

«أيمكن أن تكرِّريها ، أن تناديني بها مرَّة أخرى؟» أسألها ، ممتنَّة لأنَّ طفلتي لن تضطرَّ إلى القبول بتسوية بديلة .

تشدُّني بنتي نحو ذراعيها . «مومي!» صوتها رقيق وهيَّاب .

أغمضُ عيني كشخصٍ يُمنح بركة . في أعماقي يتفتَّح شيء ، تنتشر البهجة في كياني ، بهجة غير مألوفة لكنَّها غير مُفنَّدة ، وأدرك أنَّ هذه أيضًا بداية ، وعدٌ بعجائبَ ستأتي .

شكر وتقدير

إلى أختي الرائعة جولاجيسو التي ، بطريقة ما ، تجد الوقت لقراءة كلّ ما أكتبه ، شكراً لك لوقوفك معي .

O ra nukan ro.

وامتناني لوكيلتي الاستثنائية كلير ألكساندر التي دعمت رؤيتي لهذا الكتاب ، إلى جانب الأشياء المدهشة كلها التي قامت بها .

إيلا ألفري ، لويزا جوينر ، جينيفر جاكسون وجوانا دينجلي ، شكراً جزيلاً لكنّ على جعل هذه الرواية أفضل .

وشكراً لك يا جيمي بينج لإيمانك بهذا الكتاب . وإلى فريق كانونغيت - جيني فراي ، جاز ليسي كامبل ، فيكي روثرفورد ، رافي رومايا وجميع الفريق - أشكر لكم تعهدكم هذه الرواية . بولا كوكوزا ، وروري جليسون ، وجاكلين لاندي وسوزان أوشي ، شكراً على تعليقاتكم القيمة وكلماتكم الطيبة ونقدكم الثاقب .

دامي أجاي وجولي بابا أشكر لكما تيقنكما من أنني قادرة على القيام بهذا العمل .

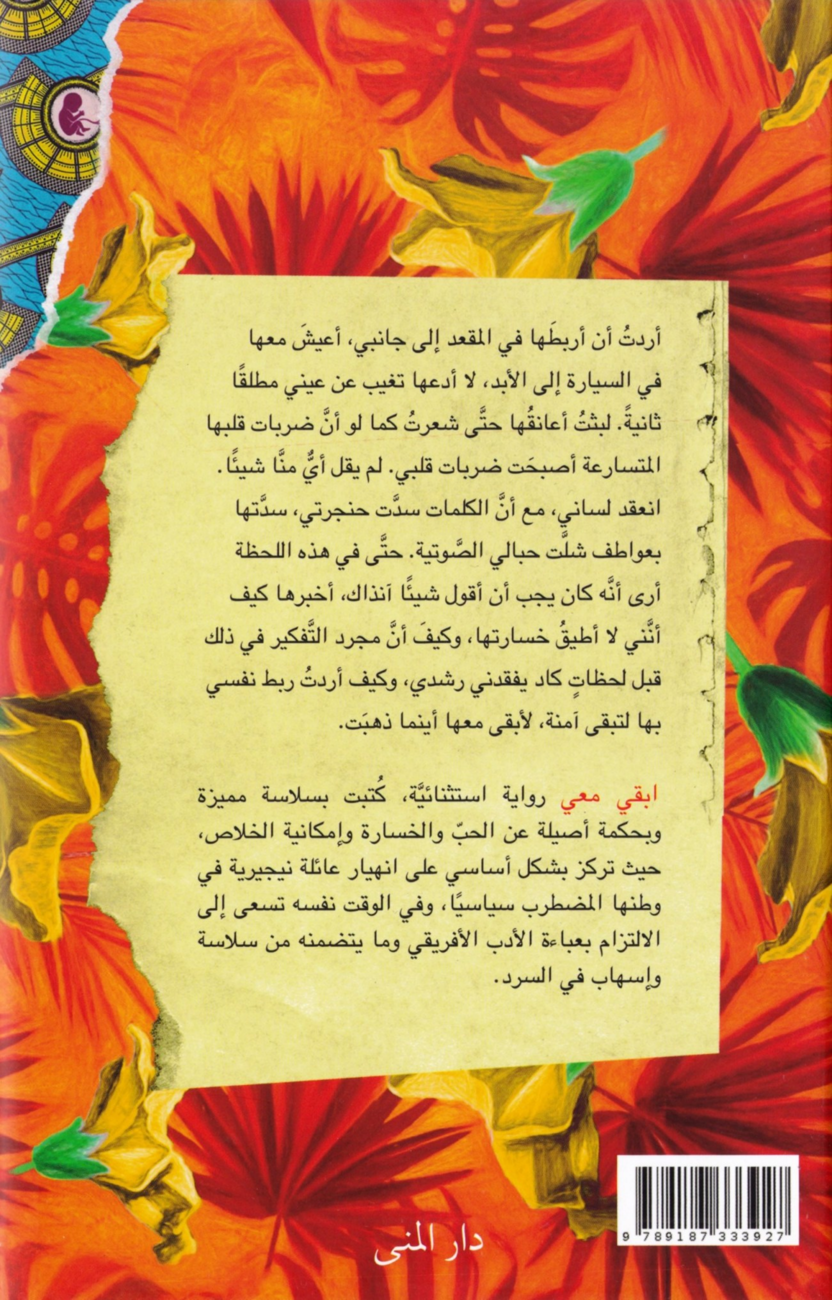
إيمانويل إدوما ، أخي ، أنا ممتنة لك لإيمانك بهذه الرواية .

وأعرب عن امتناني بشكل خاص للدكتورة شيما أنياديك . أشكرك على منحي الوصول إلى مكتبتك الغنية ، وأشكر كونك معلمة رائعة وأعتزّ بإيمانك بكتابتي . الخالة بيسي انياديك ، أشكر احتفالك معي كلما أحرزت النجاح .

وأبقى مُدينة لموظفي ليدج هاوس، وهيدجبروك، وثريدز للوقت والمكان اللذين توفرهما الضيافة هناك.

في أوقات مختلفة يسر لي لُطف البروفيسور إيبن أديجيوغيب والدكتورة أ. ر الاستمرار في الكتابة، وأنا ممتنة لهما.

أشكر آرثر أنيادوبا وأبو بكر آدم إبراهيم ولانيي فيمي وفونت أمير على قراءة أجزاء ومقاطع من هذا الكتاب وطبعًا، أشكر يجيده وأكين أجاي اللذين اختارا البقاء معي بقدر ما احتجت إليهما.



أردتُ أن أربطَها في المقعد إلى جانبي، أعيشَ معها في السيارة إلى الأبد، لا أدعها تغيب عن عيني مطلقًا ثانيةً. لبثتُ أعانقُها حتَّى شعرتُ كما لو أنَّ ضربات قلبها المتسارعة أصبحَت ضربات قلبي. لم يقل أيٌّ منَّا شيئًا. انعقد لساني، مع أنَّ الكلمات سدَّت حنجرتي، سدَّتها بعواطف شلَّت حبالي الصَّوتية. حتَّى في هذه اللحظة أرى أنَّه كان يجب أن أقول شيئًا آنذاك، أخبرها كيف أنَّني لا أطيقُ خسارتها، وكيفَ أنَّ مجرد التَّفكير في ذلك قبل لحظاتٍ كاد يفقدني رشدي، وكيف أردتُ ربط نفسي بها لتبقى آمنة، لأبقى معها أينما ذهبَت.

ابقي معي رواية استثنائيَّة، كُتبت بسلاسة مميزة وبحكمة أصيلة عن الحبّ والخسارة وإمكانية الخلاص، حيث تركز بشكل أساسي على انهيار عائلة نيجيرية في وطنها المضطرب سياسيًا، وفي الوقت نفسه تسعى إلى الالتزام بعباءة الأدب الأفريقي وما يتضمنه من سلاسة وإسهاب في السرد.

9 789187 333927

دار المنى